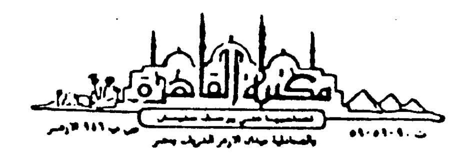
فيض الوهاب

فى بيان أهل الحق ومن ضل عن الصواب

بقلم
علامة عصره ووحيد دهره
الشيخ عبد ربه بن سليمان بن محمد بن سليمان
« الشهير بالقليوبى »
أحد علماء الأزهر الأعلام ، الخادم للسنة المطهرة
الذى تنتهى إليه أسانيد السنة جماء فى هذا العصر
والذى لم يسبقه أحد فى شرح جامع الأصول
لأحاديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لابن الأثير

الجزء الرابع

سنة ١٣٨٣ هـ — ١٩٦٤ م



الباب الخامس

في معرفة كيف تدون الدين الإسلامي

أراد ربك تعالى أن يكون تدوينه بكلياته وجزئياته المندرجة تحت الكليات بجميع ما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، في أقواله، وأفعاله، وتقريراته صلى الله تعالى عليه وسلم محفوظًا مجمعاً عليه وفيه فصول.

الفصل الأول

في بيان معنى الدين الحق وأصل مصدره

اعلم أن لفظ الدين هو من الألفاظ التي وضعها الله عز وجل لعباده على لسان الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من بني آدم أجمعين. والمهم معناها وهو الإيمان والإسلام على ما سيتضح لك إن شاء الله تعالى.

وهو من الألفاظ العربية الموضوعة لعدة معان ومن أهم معناها في هذا الباب — الذلة والخضوع والطاعة: — كما قال صاحب لسان العرب: — والدين لله من هذا — إنما هو طاعته والتعبد له — وعليه جميع ما ورد في الكتاب والسنة من هذا المعنى.

أما ما ورد في الكتاب العزيز والسنة المطهرة من كل لفظ يشبه هذا — كالملة — والشريعة. والأمر — وغيرها — فكلها بمعنى الدين قال تعالى (ملة أبيكم إبراهيم) أي دينكم وقال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وهو الدين، وقال تعالى (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين) وقال الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم «من أحدث في أمرنا» الحديث — أي ديننا —

فاعلم أن ذوي العقول المرضية الراجحة يعرفون أن الله تبارك وتعالى لم يشرع لعباده أديانا مختلفة ذات مسميات متعددة مختلفة ليس بينها وبين المرسلين أية صلة ولا أدنى مناسبة — بل هي من مخترعات رؤساء كل حزب كما قال تعالى (كل حزب بما لديهم فرحون) وذلك بإغواء الشيطان لهم وإيحائه إليهم في نفوسهم بأن هذا هو الدين الحق وما عداه باطل ليزيدوا ويزدادوا في الضلالة والتضليل.

فالعقلاء من عباد الله تعالى يعلمون أن دين الله تعالى لعباده هو واحد ولم يختلف واحد منهم عن شيء في أصوله إذ يعلمون علم اليقين أن الواضع له إنما هو جل وعلا على ما شرع في جميع الكتب السماوية وجاء البيان به في الكتاب العزيز الجامع لها قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبى من يشاء ويهدى إليه من ينيب) .

فمن هنا تعرف بالنص الصريح الصحيح أن الدين المشروع لعباد الله تعالى هو واحد لا تفرق فيه ولا اختلاف بين أهله عامة وليس له اسم عندهم غير الإسلام والإيمان وهذا الاسم هو الفارق لهم بين الحق والباطل والهدى والضلال - ويعرفون أن كل مسمى بغير هذا الاسم فليس من الله والحق المشروع لعباده في شيء .

بل هو من مسمى رؤساء الأحزاب وزعمائهم على ما هو مفصل في كتب الملل والنحل - وهناك الأديان - ستة - خمسة منها للشيطان - وواحد للرحمن .

إذ هو الحق الصريح الواضح المسمى بالإسلام والإيمان .

وليس هو - أى دين الإسلام من مخترع أحد من البشر على ما سيتضح لك .

أما الخمسة التى هى للشيطان - اليهودية - والصابئة - والنصرانية - والمجوسية - والشركة .

فكل واحد من هؤلاء سمى دينه الذى يدعو به باسم زعيمه الأول .

ولا يخفى أن منشأ تلك المخالفة للرسول الذى جاء بعد ومصدره الذى نشأ عنه إنما هو إبليس اللعين - ليعارض بهم وبه الحق الصريح الواضح لله جل وعلا

أما اليهود فجمع هائد - كعائذ وعوذ على ما قرره الإمام الفخر

وقيل سميت اليهود بذلك لأنهم هادوا بمعنى رجعوا عن عبادة العجل

والصابئة على ماقرره العلامة الألوسى فى تفسيره ج ۵ ص۱۷ ٤ هم على ما أخرجه ابن جرير وغيره عن قتادة قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرأون الزبور .

وفى القاموس هم قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وقبلتهم من مهب الشمال عند منتصف النهار وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى أن الصابئة

كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ويقال لمقابلهم الحنفاء

وكانوا يقولون إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأمره وأحكامه جل شأنه إلى متوسط روحانى لاجسمانى ـ ومدار مذاهبهم على التعصب للروحانيات ـ اه

والنصارى جمع نصران ـ كسكارى جمع سكران ـ وقيل نصران اسم قرية ـ والنسب إليها نصرانى ـ وقيل نصرانى منسوب إلى ناصرة قرية المسيح ـ وقيل الياء فى نصرانى للمبالغة ـ وسموا نصارى لأنهم نصروا المسيح اه منه

والمجوس على ما أخرجه ابن جرير وغيره وعلى ما روى عن قتادة أيضاً ـ هم قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران وهم القائلون إن للعالم أصلا من نور أو ظلمة ـ وقيل قوم أخذوا من دين اليهود شيئا ومن دين النصارى شيئاً فهم كمن قبلهم ـ وفى كتاب الملل والنحل أيضاً ما يكفيك عن معرفة هذه الطوائف المختلفة والفرق الضالة وأصول منشئها .

وفى القاموس : ـ مجوس ـ كصبور ـ رجل صغير الأذنين وضع دينا ودعا إليه : ـ وفى المصباح : المجوسية نحلة والمجوس نسبة إليها .

والمشركة هم قوم يعبدون الأصنام ويستندون تأثير أفعالها فى الموجودات ويجعلونها آلهة صغيرة يشركونها فى العبادة مع الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقد جمعهم الله تبارك وتعالى فى آية واحدة إرداعا لهم وزجرا وليعلم أهل الحق أن أديانهم ليست من الله فى شىء فقال تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد)

ولا يخفى أن كل فرقة من هذه الفرق وطائفة من طوائفها تلعن أختها وتزعم أنها على الحق وليسوا منه فى شىء كما قص علينا تبارك وتعالى واقعة حال من وقائعهم المخزية لهم وإن كانوا لا يخزون فقد قال تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) الآية وقد ورد أنها نزلت لما قدم نصارى نجران على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود للنصارى: ما أنتم على شىء من الدين وكفروا بعيسى والإنجيل وقالت النصارى لليهود: ما أنتم على شىء من الدين وكفروا بموسى والتوراة

ولا تستعظم ذلك ولا تبعده ـ إذ زعيمهم الأول ومنشئ ذلك المبدأ عارض مولاه جل وعز واعترض عليه سبحانه وتعالى ، وحرف الكلم عن موضعه .

فكيف لايكون كل تابع له معارضا لأهل الحق ومعترضا عليهم متأولا المخالفة والشاقة مثلما مايشين به الحق وأهله فى نظر أمثالهم من المنشئين على مبادئهم وفيهم الاستعداد لقبول ذلك . وأما من عصمهم الله تعالى من الغواية والضلالة ووفقهم لسماع خير القول واتباع أحسنه فهم ثابتون على الحق وطريق مستقيم .

الجهل عمى وصمم

جهل الكثير من الناس سنن المكونات لله عزوجل فى خلقه حتى زعم بعض الناس أن اليهودية دين حق والنصرانية دين حق على ماهو ظاهر من حال اليهود بزعمهم الفاسد ومتابعتهم لسيدنا موسى عليه السلام ولظاهر حال النصارى بزعمهم الفاسد لمتابعتهم لسيدنا عيسى عليه السلام .

ويقول هم أهل كتب سماوية وأهل الكتب السماوية على الحق وقد ضل سعيا وعمى عن الطريق السوى المسنون من الله تعالى لعباده — وهو أن كل رسول لله تعالى لم يؤمن به من كان فى عصره من الناس فهو كافر بالله وبالرسول وبالكتاب الذى يزعم أنه على مبادئه ولانذهب بك بعيدا فقد أوجد الله لنا مايحقق به هذه العقيدة ويؤيد به هذه النظرية .

فهاهم اليهود لم يؤمنوا بسيدنا عيسى عليه السلام وأن التوراة فيها بالنص الصريح مجىء سيدنا عيسى عليه السلام رسولا لبنى البشر من بعد سيدنا موسى عليه السلام فهم كفار لعدم إيمانهم بسيدنا عيسى عليه السلام وبكتابه .

وهاهم النصارى — قد كفر كل من لم يؤمن بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إذ الانجيل فيه بالنص الصريح مجىء سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بعد سيدنا عيسى عليه السلام .

وكيف يجوز فى العقل السليم وجود العمل بقانونين أو قوانين فى دولة واحدة قد بادت ملوكها حتى يجوز العمل بكتاب سماوى مع وجود كتاب جديد ورسول جديد . وماهذا إلا عين الضلالة والغواية .

ولقائل أن يقول لم يجعل الحق عز وجل أمر الرسول الجديد بمحق كل مخالف له : وبإبادة كل معارض لدينه الذى شرعه لعباده تعالى على يد الرسول الجديد .

فقل له إن حكم ربك العالية جعلت نهى الرسول عن ذلك لأمور ، منها: أن لو آمن من فى الأرض جميعا لتعطلت النار المخلوقة لكل مخالف . ومنها : لم يعرف الفرق بين الإيمان والكفر والضلال والهدى . ومنها : لم يعرف الفرق بين الإيمان الصحيح الصريح والنفاق الذى هو أقرب للإيمان والنفاق الذى هو أقرب للكفر . ومنها قطع حجة الكافرين على رب العالمين (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . ومنها : إلزام كل من لم يؤمن بالرسل الحجة ، فى عدم إيمانه بالرسول الجديد ورسل الله تعالى أجمع وبكتبه والجن والملائكة واليوم الآخر .

فمن هنا تعرف أن كل من يقل : إن اليهود والنصارى أهل كتاب صحيح ودين صحيح فهو كاذب وقد افترى على الله الكذب . وقال على الله بما ليس يعرفه — وجهل سنة الله تعالى فى خلقه ووضعه الأشياء موضعها — وتعريفه للعز والإذلال تفريقا — فإن عرفت ذلك . فاعلم أنه يجب على كل من يرجو من الله تعالى الأمن فى الدنيا والأمان فى الآخرة أن يعتقد أن الله تعالى لم يترك عباده هملا من غير إرشاد على يد من أرسلهم لعباده مبشرين ومنذرين وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وأن سنته تعالى مع المرسلين أن التالى تكون شريعته ناسخة لشريعة سابقة ومن حسن سنته تبارك وتعالى أن جعل دين الجميع واحدا وهو الإسلام الذى هو صورة الإيمان والإيمان هو معنى والإسلام صورته لأنه سبحانه خالق المعانى والصور كما قال عز من قائل (الذى خلق الموت والحياة) فالموت معنى وصورته عدم الحركة فى جميع الحيوانات والحياة معنى وهى الحركة . والنبات والجماد يكونان كذلك فهو من قبيل قوله تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وقوله تعالى (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) فالوجود كله على نوعين على مقتضى كمال الحق جل وعلا. فمن هنا تعرف أن شعار جميع الأنبياء المرسلين كان هو الإيمان والإسلام كما سيتضح لك من آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ومن تبعهم من المؤمنين المسلمين

حتى من كان لا يؤمن بهم كان يعرفهم بهذه السمة كما سيظهر لك من قول فرعون كما جاء محققا من قول العليم الحكيم فى كتابه العزيز المجيد الذى سماه قرآنا إذ جمع فيه كل شىء وبين فيه كل شىء وفصل فيه كل شىء وما فرط فيه من شىء ـ روى عن أسلم أن عمر بن الخطاب بينما هو قائم فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم إذ رجل من دهاقين الروم (رؤساء) قائم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ـ فقال له عمر ـ ما شأنك ؟ قال: أسلمت لله ـ قال ـ هل لهذا من سبب ؟ قال : نعم ! إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال قوله تعالى (ومن يطع الله) فى الفرائض (ورسوله) فى السنن (ويخش الله) فيما مضى من عمره (ويتقه) فيما بقى من عمره (فأولئك هم الفائزون) والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر . قال النبى صلى الله عليه وسلم « أوتيت جوامع الكلم » أى سواء كان فى القرآن أو فى كلامه الشريف مثل أن سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » . وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ولك أجر » ومثله فى السنة كثير فلقد أعطاه الله تعالى جوامع الكلم وكان من خصوصيات حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم. وأما القرآن فهو مشاهد بلفظ جمان إذ جمع فيه تعالى جميع ما فى الكتب المتقدمة وجميع ما فيه فى الفاتحة وجميع ما فى الفاتحة فى بسم الله الرحمن الرحيم ـ وقد حفظه تبارك وتعالى بصريح قوله عز وجل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) قال قتادة وثابت البنانى : حفظه الله من أن تزيد فيه الشياطين باطلا أو أن تنقص منه حقاً فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً إلى يوم القيامة . وقال : فى غيره : (بما استحفظوا) أى من التوراة والإنجيل وقال الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون ـ وهو أمير إذ ذاك ـ مجلس نظر ، فدخل فى جملة الناس رجل يهودى حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلما تقوض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلى ؟ قال نعم . قال له : أسلم حتى أفعل بك وأصنع ، ووعده . فقال : دينى ودين آبائى ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما ، قال :

فتكلم على الفقه فأحسن الكلام ، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال : ألست صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى. قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت ترانى حسن الخط . فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت منى ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشتريت منى ، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها ، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامى . قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لى : مصداق هذا فى كتاب الله عز وجل . قال قلت : فى أى موضع ؟ قال ؟ فى قول الله تبارك وتعالى التوراة والإنجيل . (بما استحفظوا من كتاب الله) ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل فى حفظ القرآن (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فتولى سبحانه حفظه بنفسه وقيض سبحانه له رجالا قائمين عليه عرفوا كل سورة وما اشتملت عليه من الآيات . والكلمات . والحروف مهملة ، ومعجمة وحملها العدد فسبحان من وضع الأشياء موضعها ورتب أفعاله بالحكم والأحكام .

ولما كان القرآن المجيد آخر الكتب المقدسة السماوية وكان جامعاً لما من توحيد ومعاملات وقصص ولم يأت سبحانه بعده بكتب ولم يأت بعده رسول ولا بدين جديد ولا كتاب فجعله تعالى جامعاً مانعاً وجعله عمدة فى جميع مستلزمات الحياة لبنى الإنسان دينا ودنيا وأخرى فهو المرجع فى كل الأمور وأنه هو السند الأقوى والحجة الكبرى والمرجع الأعلى فى جميع بيانات رب العالمين لعباده .

كيف لا وقد أنزله العليم الخبير العزيز الحكيم العالم بما سيحدثه فى هذه الحياة الدنيا فلابد وأن يكون كتابه مشتملا على كل ما يوجده فيها حتى يصح الرد إليه عند وجود الاستدلال منه والمرجع إليه عند وجود النزاع بينهم .

وهاهى المحدثات التى لم تكن عند نزوله كالأشياء التى ظهرت عن الكهرباء والصناعات من السيارات والقاذفات والطائرات وغيرها قال تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) وقال تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وخاصة أنها لم تكن محدثة عند النزول فبين تعالى أنها من محدثاته فى الكون قال تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه

زنهم يلعبون) كالراديو وغيره والقرآن يؤخذ منه بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقال تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) فالمستحدثات لاتقع إلا بمشيئته وإرادته قال تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله) الآية . وقال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك إنه على كل شيء شهيد) وفى قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « تحدثون ويحدث لكم »

ومن مهام بيانه جل وعلا لعباده من حسن الخلق ومكارم الأخلاق مما تبنى عليه دعائم الأسر ورفع شأن المجتمع فى بنى الإنسان أجمع وهو عدم تعليم المرأة التعليم الخارج عن حد الدين وبيان رب العالمين ؛ لأن المرأة هى أساس العمران وقاعدة صلاحه فأمر الله تعالى عباده إصلاح شأنها ولا يكون ذلك إلا بالعمل بما جاء فى قوله تعالى لهن : (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وفى قوله تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) الآيات وقوله تعالى (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) وقوله تعالى (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيما) وتعليم البنت مما يدب فيها الحماس ويجعلها تتظاهر بمعلوماتها وإدراكاتها كما يتظاهر الشاب بمعلوماته وإدراكاته فيكون أكبر حامل لها على الظهور والتبرج والخروج على أوامر رب العالمين وإرشاده لعباده لما فيه المصلحة العامة لبنى الإنسان هذا هو الخالق سبحانه يرشد عباده لما فيه مصلحة الدين والدنيا والآخرة ، ثم لابأس بتعليمها التعليم الأولى ليقوى ذهنها على تأدية أعمالها المنزلية بكل خبرة ونشاط . والحمد لله لى فى هذا الشأن رسالة تكتب بماء الذهب فراجعها إن شئت ونسأل الله تعالى أن يرشدنا إلى ما فيه الخير والصواب .

الفصل الثانى

فى معرفة الاسلام ومن سماه بهذا الاسم ومن تسمى به من قبل ومن هم المسمون بهذا الاسم

اعلم يا أخى أنه يجب علينا أن نعرف قبل كل شىء ما هو الإسلام ليتبين لكل واقف على هذه الفائدة كل ذلك حتى يتجلى له الحق من الباطل مما عليه الناس الآن من الفرق والأحزاب والشيع والجماعات ويظهر منها الحق واضحا وجليا ؛ إذ كل فرقة من مختلف هذه الفرق تدعى أنها على الحق ومن سواها على الباطل .

فنقول: إن الإسلام هو الانقياد الظاهرى المقرون بالتصديق الباطنى الناشىء عن الإيمان — إذن فالباطن حقيقة لابد منها ولولاها ما حصل الفارق فى الظاهر — وهو ما يسمى بالإيمان — فالإيمان هو التصديق بالقلب المقرون بالنطق باللسان والإسلام هو نتيجة ذلك وهو العمل بالأركان .

ولا يخفى على كل ذى عقل متعقل أن الله تعالى جعل عباده فى هذه الناحية أيضا على قسمين ـ مؤمن ـ وكافر ـ ولم يتركهم هملا بل بعد أن زانهم بالعقل الذى هو نور الله تعالى فهم يميزون به بين الحق والباطل ـ فأرسل لهم رسلا منهم فيهم مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ـ فمن آمن منهم بالله الذى خلقه وخلق كل شىء ـ وآمن بأن لله تعالى فى عباده مزايا وخواص ـ وجعل من هؤلاء المميزين من خلقه منهم رسلا لهم الصلة بخالقهم تعالى فآمنوا بهم وصدقوا بأن لهم الصلة بخالقهم ولهم الميزة عنهم فى ذلك ـ فهؤلاء يسمون بالمؤمنين المسلمين ومن لم يؤمن منهم بالله تعالى ورسله فهم الكافرون .

ولا يخفى أيضا أن سنة الله تعالى فى عباده ـ ما أرسل رسولا إلا بالسنن والقوانين الإلهية ليعمل بها هو ومن تبعه من المؤمنين المسلمين حتى إذا مات ذلك الرسول يعمل أتباعه بتلك القوانين التى سنها لهم ـ وهى الشرعة والمنهاج حتى يرسل الله عز وجل رسولا آخر بعد الرسول الماضى ويكونون قد غيروا وبدلوا بحسب الأهواء وتضليل الشيطان لهم واستهانتهم بالأحكام الماضية فيشرع الله تعالى على يد الرسول الجديد قوانين جديدة فمن آمن به وصدق رسالته وعمل بما جاء به من جديد فهو

المؤمن المسلم ومن لم يؤمن به ولم يصدقه ومن لم يعمل بما جاء به فهو الكافر ــ وهكذا سنة الله تعالى فى خلقه .

ولا يخفى أيضاً بأن الحق عز وجل كتبا سماوية اشتمل كل كتاب منها على معرفة الله تعالى والقوانين السابقة واللاحقة ومبينا فيها حال الماضين من المؤمنين والكافرين وذلك لعظة الحاضرين بأحوال الماضين ــ فالتوراة مثلا كانت ناسخة لصحف إبراهيم والزبور من التوراة ــ والإنجيل من التوراة ــ والفرقان ناسخ للإنجيل والتوراة .

هكذا سنة الله تعالى فى خلقه (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وقد أخذها للملوك سنة لهم إذ كل ملك يبطل قوانين من قبله ــ بين ذلك سبحانه وتعالى كله فى كتابه العزيز الذى جعله خاتمة الكتب السماوية الذى وصفه جل وعلا بقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقد حفظه تبارك وتعالى بحسن رعايته حيث قال عز من قائل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وسبق أن ضربنا لك الأمثال .

فقد اشتمل هذا الكتاب المجيد على كل ذلك من التوحيد وهو معرفة الله تعالى والقوانين التى يسير عليها بنور البشر والقصص الذى فيه عظة الحاضرين بأحوال الماضين على يد خاتم الأنبياء والمرسلين ــ وقد قدمنالك بالإيجاز وما يعقلها إلا العالمون .

فالإسلام قد سماه الله سبحانه وتعالى ووضع له هذا الاسم الشريف على لسان جميع الأنبياء والمرسلين خصوصاً خاتم الأنبياء والمرسلين لعباده المؤمنين واختاره لهم وسماهم بالمسلمين وبالمؤمنين هم ومن على شاكلتهم من السابقين فى كتابه العزيز على يد الأنبياء والمرسلين قال تعالى (هو سماكم المسلمين من قبل) وقال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وقد ظن بعض الجهلة بحقيقة دين الله تعالى الحق لعباده أن الإسلام هو دين من آمن بسيدنا محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة . وفهم أنه دين كبقية الأديان المنسوبة إليها بعض طوائف الناس المنسوخة بالأديان الأخرى التى بعدها كاليهودية ــ والنصرانية والمجوسية ــ والبوذية .

وقد انتحل أيضا من الفرق الضالة أديانا أخر فى الإسلام ــ كالقاديانية ــ والإسماعيلية والبهائية ــ وغيرهم من كل باطل يدعون أهله أنهم على الحق والحق برىء منهم وعنهم وليسوا منه فى شىء .

• إذ الإسلام هو دين الله تعالى الذى ارتضاه لعباده وهو حق وواحد ولانزاع ولاشقاق ولاتفرقة فيه ـ الذى جعله دينا لجميع الأنبياء والمرسلين ومن على قدمهم من المؤمنين المسلمين إذ كل من يؤمن بالله والرسول يسمى مؤمنا مسلما قال تعالى (آمن الرسول) الآية ومن يخالفهم يكون كافرا مبطلا قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) .

وهاهو سيدنا نوح عليه السلام الذى هو أول منازع فى الرسالة من بنى البشر المسمى بآدم الصغير وقد نازعه قومه فى رسالته فقص علينا تعالى من أمره ومعارضته قومه له فقال لهم (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) لتعلم من هنا أن الإسلام دين الله تعالى الذى ارتضاه لعباده المرسلين والمؤمنين ومن كان كذلك منهم يسمون بالمؤمنين ولذا لما جادله قومه عليه السلام وقالوا له (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال وما علمى بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين) وهاهم سحرة فرعون فقد قص تعالى علينا من شأنهم لما آمنوا وقد توعدهم فرعون بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) .

وها هو المكلوب فرعون لما أغرق فى البحر وعرف أنه هالك لا محالة فقد قص تعالى علينا شأنه بقوله (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين) .

وها هم حواريوا سيدنا عيسى عليه السلام فقد قص علينا تعالى من شأنهم بقوله تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) وفى الآية الأخرى (واشهد بأنا مسلمون) .

وها هو سيد العالمين وقد قال الله تعالى لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم (قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين) .

وهكذا شأن الإسلام والمسلمين بالبيان المفصل لعباد الله المؤمنين أجمعين على لسان سيد المرسلين حيث قال تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وقال تعالى فى وصف حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ومن آمن به فى التوراة والإنجيل (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعذروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون).

فالدين الإسلامى ليس خاصاً بشريعة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا من مسمى العرب ولا مقترحاً من أى بشر بل إنما هو الذى سماه الله تعالى ديناً لأنبيائه والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين كما هو صريح الآيات فى القرآن المبين الذى أمر به تعالى سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم ومن تبعه من المؤمنين فقال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) وقال تعالى أيضاً (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) .

وها هو الذى كان من أخص خصائص حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بالرد من الله تعالى عن حضرته لأتباعه للعارضين .

إذ ما من نبى ولا رسول إلا وقد أسند الله تعالى إليه الرد على قومه بالأدلة العقلية والنقلية.

وإن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم قد تولى الله تعالى عنه الرد على عباده الكافرين العارضين مثل آحاد اليهود والنصارى فى معارضة حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بقولهم (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) الآيات . وفى قوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق) الآية .

وقد بين سبحانه وتعالى ألا يدخل جنته التى أعدها لعباده المؤمنين المسلمين المتقين المجتمعين على الحق فقد عرفت أن من آمن بالله تعالى ورسله فهو المسلم المؤمن ومن

لم يؤمن فهو من الكافرين كما قص علينا تعالى حال من كفر بالأنبياء والمرسلين وقد صرحوا بذلك لأنبيائهم (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) الآية .

وها هو سيدنا هود عليه السلام الذى كانت رسالته لقومه بعد سيدنا نوح عليه السلام لما عارضه قومه أيضاً فقص علينا تعالى أمرهم بقوله تعالى (فأنجيناه والذين آمنوا معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وفى قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) .

وها هو سيدنا صالح عليه السلام الذى كان بعد سيدنا هود عليه السلام فقد قص علينا جل شأنه ما دار بين أتباعه بعضهم بعضاً بقوله تعالى (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) وفى قوله تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز) .

وها هو سيدنا لوط عليه السلام الذى كان من بعد سيدنا صالح عليه السلام وكان معاصراً لسيدنا إبراهيم عليه السلام فقد قص علينا عز وجل شأن قومه وإهلاكهم أجمعين فقال تعالى (وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) وقال تعالى قاصاً علينا ما كان من شأن قومه من المؤمنين والمسلمين (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) .

وها هو سيدنا إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء والمرسلين فقد قال لنا تعالى فى شأنه (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) الآيات وقال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

وها هو سيدنا يوسف عليه السلام حيث قد جمع الله شمله بأبيه وأمه وإخوته حيث قال عز من قائل حاكياً لنا عنه (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين) .

وها هو سيدنا سليمان عليه السلام حيث قال لقومه (أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) ولما جيء بعرشها قبل مجيئها قال لها (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) ثم بعد أن استقر بها النوى وآمنت (قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) .

وها هو سيدنا شعيب حيث قال الحق عز وجل فيه (ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) .

وها هو سيدنا موسى عليه السلام قال تعالى في بيان شأنه لقومه (قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وقال تعالى في الآية الأخرى عن سيدنا موسى أيضاً عليه السلام لقومه (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فقد وضح لك أن حال المرسلين ومن آمن بهم على الإيمان والإسلام وهذا في الحياة الدنيا .. وأما في الآخرة فقد أخبر سبحانه وتعالى أنهم على الإيمان والإسلام فقال عز من قائل مبشراً لهم (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) الآيات .

فاعلم أن الإسلام هو من مسمى الحق عز وجل وهو دين الله تعالى من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين لجميع الأنبياء والمرسلين ومن آمن بهم أجمعين ومن آمن من بعدهم من الناس كافة إلى يوم الدين قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) الآية .

وأما ما يدعونه باليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو البوذية أو الإسماعيلية أو القاديانية أو البهائية وغيرها فليست من الله في شيء وما هي إلا ضلالات عن الحق اتخذها بعض زعماء الناس من أهل الأهواء والأغراض والحظوظ الشيطانية ليضلوا ويضللوا بها عن الحق وأهله وبينها وبين الإيمان بالله تعالى ورسله وكتبه واليوم الآخر ـ بون واسع ومدى شاسع .

ولا يخفى أن هذه سنة الله تعالى في خلقه حيث خلق للحق أهل ـ وللضلال أهل ـ ولا ثالث لهما على الصحيح قال تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون)

وقال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال تعالى (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وقال تعالى (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) وقال تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) .

فهو الفعال في الحقيقة لما يشاء ويريد ولا يكمل إيمان العبد إلا بهذه العقيدة والعباد المخلوقون ما هم إلا صور آثار صفاته التي يعرف جل وعلا بها وعليه يكون قول القائل وحده لا شريك له قولا صحيحاً جازماً مطابقاً للواقع عن دليل .

وأما نسبة الأفعال إلى المخلوقات فهي نسب باعتبار الإضافة إلا ظاهر المصدر لتصح النسبة إليها ظاهراً وعليها كان مدار التكاليف الشرعية ونسبة الثواب والعقاب إلى فاعلها نسبة حقيقية في الظاهر مجازية في الواقع ونفس الأمر قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

ولا تنسى أن كل فرد من أفراد المخلوقات ما خلق إلا ليؤدي ما خلق لأجله لله تبارك وتعالى لا لنفس المخلوق في ذاته - ولما كان تكوينه مشتملا على ما خلق لأجله جعله الله تعالى نزاعاً إليه بطبعه ونطرته محبياً لما يفعل راغباً فيه ولا يعدل عنه إلا بأداء جميع ما خلق لأجله قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) الآية .

وهذا سر من أسرار القضاء والقدر اللذين استأثر سبحانه وتعالى بعلمهما وليس من حق البشر أن يبحث وراءهما ولا عنهما وإنما عليه أن يمتثل أمر الله تبارك وتعالى لعباده على لسان أنبيائه ورسله من أمر ونهي - وهذا هو مدار التكليف .

والله الموفق لما يشاء - ولا يسأل عما يفعل - وهم يسألون ؟

الفصل الثالث

فى التعرف بمكانة القرآن الكريم وخصائصه التى اختص بها دون جميع كتب السابقين من الأنبياء والمرسلين

اعلم نور الله بصيرتك بنور اليقين أن القرآن الكريم فضلا عن كونه معجزاً للبشر فأكبر الدلائل على ما اشتمل عليه من الحكم العالية . والأسرار التى لا يمكن كنهها . فهو يتعبد بتلاوته . ويتحدى بأقصر سورة منه دون كتب السابقين . وينتفع المتمسك به حسا ومعنى . وظاهرا وباطنا من أمور الدين والدنيا والآخرة . ومن خصائصه رعاية الله عز وجل له ولحفاظه القائمين بخدمته من كل الوجوه خصوصا من قد حفظ جميع حروفه وألفاظه ولهجاته من التغير والتبديل .

ولما كان لا يأتى رسول بعد سيد العالمين ولا كتاب بعد الكتاب المبين حفظه تبارك وتعالى من التغير والتبديل مصداق قوله عز من قائل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى برجال وفقهم وألهمهم سبل المحافظة عليه من كل ما يتسرب إليه حتى عرفوه المميزات وأثبتوا ودونوا كل ذلك من الآيات والحروف والهيئات والصفات إلى أن بينوا أن حروفه تغاير حروف العامة ، بالألفاظ العادية . بمخارجها المميزة لها عدوا كل سورة منه بما اشتملت عليه من الآيات . بل وكم فيها من الألفات والباءات والتاءات وهكذا إلى الياءات . وكم فيه من الآيات التى يشبه بعضها بعضا والتى لا تشبه الأخرى . بل قاموا بحساب جميع جمل ما اشتمل عليه القرآن الكريم بالأعداد المعروفة بالأعداد الهندية بالجمل الصغير والكبير . كما كانت عوائد اليهود والنصارى من قبل وحسابهم لكل شىء . حتى قالوا فى قوله تعالى (يسألونك عن الساعة قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة) فقالوا : إن ما بقى من عمر الدنيا لا يزيد عن ألف واثنتين وثمانمائة سنة إذا الباء باثنين والغين بألف والتاءان بثمانمائة . وهكذا حتى قالوا عند نزول سورة (طه) فقالوا مدة دولة محمد أربعة عشر سنة . إذا الطاء بتسعة والهاء بخمسة فأنزل الله (حم) فقالوا زيد فيها إلى ثمانية وأربعين . إذ الحاء بثمانية والميم بأربعين . فأنزل الله عز وجل (ن) فقالوا زيد فيها . فأنزل الله (الم) فقالوا زيد فيها أيضا . فأنزل الله (ص) فقالوا أيضا زيد فيها فأنزل الله تعالى (ق) فقالوا أيضا زيد فيها . فأنزل

عز وجل (الر) فاضطربوا وعرفوا أنهم لم يعرفوا المعنى المراد من ذكر هذه الحروف المفرد منها والمركب . إذا جعلها مائتان وواحد وسبعون . فعرفوا أنه معجز في ألفاظه وحروفه .

لفت نظر

يجب عليك أن تعرف أنه معجز حقا فإن حروفه تغاير الحروف المعدية الموضوعة للبرية كما في ذكره تعالى (رحمت) و (نعمة) وفي قوله تعالى (يا أيها) في جميع القرآن بالهاء والألف . إلا في ثلاثة مواضع منه يأيه حتى أحسن بعضهم في قوله :

يا أيها المحذوف في القرآن　　في النور والزخرف والرحمن

فإذا وقف القارىء عليها بقوله — يا أيه — وكذا في قوله تعالى (فلا تخشوهم واخشوني) في البقرة بالياء بعد النون وفي المائدة في قوله تعالى (فلا تخشوهم واخشون) بنون فقط بدون ياء . وغير ذلك كثير . ولذا قال بعض الأفاضل خطان لا يقاس عليهما القرآن والشعر . وعلى هذا حوفظ على أوضاع رسمه كما كان ينطق به صلى الله تعالى عليه وسلم . ونقلت هذه الأوضاع كما هي ودونت بحضرة من شاهدوا ذلك بالعين واللفظ والنطق . وبتوفيقه تعالى وحسن رعايته أن بقي الأمر على ذلك إلى أن تقوم الساعة إن شاء الله تعالى مصداق قوله جل وعلا (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) كيف لا وجميع ما جاء به محقق الوقوع لا محالة حاصل ويجب الإيمان به ومن لا يؤمن فهو لا محالة كافر إذ هو مشتمل على مكوناته سبحانه وتعالى من المبدإ للمعاد ولما كان هذا القرآن لابن آدم الذى خلقه سبحانه على العلم والمعرفة وجعله نزاعا إلى حب الاستطلاع وخاصة فيما غاب عنه فجعله سبحانه مشتملا على كل شيء من مستحدثات الأمور وقد قال تعالى (إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) وذلك كان في الوقت الذى كان فيه رؤساء قريش في أشد المعارضة لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وقد وقع وتحقق والحمد لله ومن مهام الأعاجيب التى جاء بيانها من مستحدثات الزمان من كل صغيرة وكبيرة فيه حتى مقدمات الساعة الكبرى التى أولها المهدى . ثم الدجال ثم عيسى عليه السلام. ثم يأجوج ومأجوج ثم الدابة ثم الريح اللينة. ثم طلوع الشمس من المغرب. ثم ما بعدها كما بينه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لعباده المؤمنين (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) وهنا نذكر الجواب عن سيدنا عيسى عليه السلام مختصراً وقد بسطناه في رسالة خاصة بجميع ما جاء في القرآن المجيد والسنة المطهرة وإجماع عقلاء الأمة الإسلامية وهم علماؤها قديماً وحديثا سلفا وخلفا وهاهو الجواب

مع الإيجاز والاختصار حيث كان الرفع بالجسد والروح معاً قال عز من قائل فى رفعه عليه السلام حيا (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه) الآية .

وهذا من مقتضيات تكوين الحق عز وجل له عليه السلام عن ملك وبشر ليعيش بها فى البشرية والملائكية قال العارف :

عن ماء مريم أم عن نفخ جبرين * سواه كالبشر المخلوق من طين

فهو عليه السلام مصداق قوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) أى علامة دالة على بديع صنعته وعظيم قدرته . حيث يغاير فى التكوين كيفما يشاء فهو الفعال لما يريد وهذا من أكبر الأدلة على نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان .

وأنه ينزل إلى الأرض بصريح قوله تعالى (وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) الآية فعيسى عليه السلام من علامة الساعة الكبرى التى جاء بها القرآن الكريم وبيان سنة سيد العالمين ولى رسالة فى نزول عيسى عليه السلام فى الرد على من أنكر نزول عيسى عليه السلام .

أما القرآن الكريم فهذه الآية أول دليل على نزوله وهى صريحة فى ذلك لأن المقام يختص به عليه السلام من قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) الآيات إلى قوله تعالى (وإنه لعلم للساعة) .

وأما السنة فقد تواترت فيها الأحاديث عند جميع أصحاب السنن والمسانيد فى نزوله عليه السلام من السماء ويحكم بين الناس ويقيم الدين على الوجه الذى كان عليه فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان . الذى منها ماروية البخارى بسنده إلى سيد العالمين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » .

ولايغرنك ما كتبه بعض المنتسبين إلى العلم وأهله الذين نقلوا عن اليهودى المستشرق الذى عداوته ثابتة للنصارى حيث دلل على أنه عليه السلام مات وقد تلمس بعض معانى الآى القرآنية البعيدة عن المقام والتى لاتستقيم مع بيان السنة لتحريفه لمعانيها وإن كان اللفظ يعطيها بعيدة عن المقام وجعلها ذريعة له لرأيه الفاسد . وقد رددت عليهم وأبطلت حججهم ومحوت آثار شبههم فى كتابنا (القول الصريح فى جميع ما جاء

في الكتاب والسنة في شأن سيدنا عيسى المسيح) عليه السلام . فراجعه إن شئت وهو عليه السلام لايعمل إلا بالقرآن لحفظ الله تعالى له . حتى يصل له ليكون قد بلغ أمنيته عليه السلام . إذ ما من نبي ولا رسول إلا وقد تمنى أن يكون من أمة محمد عليه الصلاة والسلام لما رأوا من فضل الله عليها وتمييزها عن جميع الأمم . فحقق الله تعالى أمنية سيدنا عيسى عليه السلام حيث كان تكوينه صالحا لذلك .

فالغرض لنا أن القرآن لايزال باقيا محفوظاً برعاية الله تعالى له إلى ما بعد زمن سيدنا عيسى عليه السلام حتى يرفع القرآن قرب النفخة الأولى قال الله تعالى (ولايزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة) الآية ومصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لاتقم الساعة حتى لايبقى على وجه الأرض من يقول لا إله إلا الله » وفي رواية « من يقول الله الله » .

ولما كان خلق بني البشر على العلم والمعرفة جبلهم جلا وعلا على حب الاستطلاع نزاعين إليه خصوصا فيما غاب عنهم . فكان هذا الكتاب العزيز مشتملا على بيان كل شيء من المبدإ للمعاد من مستحدثات المكونات ماضيها وحاضرها . وعاجلها وآجلها قال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) . (وتفصيل كل شيء) . (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فكان مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم . وخبر ما بعدكم . وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . هو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء . ولا يخلق عن كثرة الرد . ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته إليه الجن إذ سمعته حتى قالوا (ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به) من قال به صدق . ومن حكم به عدل . ومن عمل به أجر . ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم » وهو الذي آمنت به الجن حيث قال عز من قائل (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين) .

واعلم أن القرآن المجيد جعل الله تعالى له أسماء كثيرة . منها ما سماه عز وجل . ـ روحا ونورا ـ فقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ومنها ـ الكتاب ـ قال تعالى (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) وقال تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) ومنها ـ الذكر ـ قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ومنها ـ هدى ورحمة ـ قال تعالى (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) ومنها أنه الشفاء قال تعالى : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ومنها أنه الحق قال تعالى (وهو الحق من ربهم) ومنها القرآن قال تعالى (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) وقال تعالى (ص والقرآن ذى الذكر) وقال تعالى (يس والقرآن الحكيم) ومنها الفرقان . قال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس) وقال تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) .

ولما كان العلم المشهور به لفظ القرآن لتواتره فيه لما أطلقه عليه جل وعلا فى جميع التنزيل فقد عرفه أفاضل الأمة بحسب الوضع العربى فقالوا (والقرآن) تسميته بذلك توقيفية . وقيل لجمعه . والقرآن على وزن فعلان بمعنى مفعول أى مقروء . بمعنى الأمر والنهى . والإخبار . والوعد والوعيد . والمواعظ . من قرأ الماء فى الحوض . إذا جمعه . وقرأت الناقة لبنها فى الضرع جمعته . فيكون معنى المقروء . أى امتثلت أمره واجتنبت نهيه . واتعظت بمواعظه . وقيل من قرأت الكتاب قراءة وقرآنا إذا تلوته لأنه مجموع ومتلو .

فالقرآن الكريم عند أهل اليقين ليس بقانون ولا أحكام معاملة ولا قصص فحسب بل هو النعمة الكبرى من الله تعالى لعباده يرتشفون منه فى كل ما يتطلبونه من أمور الدين والدنيا والآخرة وتعرف من معنى القرآن أنه الجامع لجميع الكتب السماوية . فالعقلاء يتدبرون نعم الله التى لا تختص بشىء دون شىء كالماء الصالح لكل شىء وهذا كلام الله تبارك وتعالى . أيوقف به عند حد كما يقول به بعض من قصر عقله عن إدراك ذلك وقد قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقال الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « إن لنا القرآن لكل

حرف منه عشر حسنات ولست أعنى الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم (إن لكل حرف من القرآن ظهراً وبطنا)

ولا يخفى على كل من له أدنى إلمام أو اطلاع على الكتب السابقة وهذا الكتاب المبين لأدرك الفرق الواسع بين هذا وذاك ولعرف أن ميزته أدق وأرفع من أن يخطر ببال البشر لاشتماله على أمور كلما يتجدد فى الأزمنة يرجعون إليه فيجدون النص الصريح الشامل لما يتجدد فى هذا الزمان - إذ لو لم يكن كذلك لكان حكمه كحكم الكتب السابقة فى احتياج الناس إلى رسول جديد وكتاب جديد ليبين للناس ما اختلفوا فيه .

وهذا مستحيل عقلا ونقلا بعد قوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأيضاً لا يكون هذا بعد أن أسند عز وجل للقائمين به الرجوع إليه وإلى سنة نبيه فى كل ما يتجدد فى الأزمنة القابلة حيث قال عز من قائل (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) .

الإسناد حجة الدين

ومن مميزاته أيضاً أن وفق الله تعالى القائمين بالمحافظة عليه عمدتهم الإسناد خصوصاً وأن الحكيم العليم جل وعلا لم يجعل للكتب السابقة إسناداً لعلمه تعالى شأنه . بتغير أهلها فيها لما سيتبعها برسل آخرين وبكتب أخرى .

وأما هذا الكتاب المجيد الخالد والدين الصحيح الثابت جعل عمدة القائمين بالمحافظة عليه المدونين لأصول تبيينه . وهى السنة . الإسناد - إذ هو أى الإسناد الأساسى للتين والبنيان الخالد لهذا الكتاب والسنة اللذين هما أساس هذا الدين المحفوظ برعاية رب العالمين والإسناد هو نقل العدل المعتمد فى نقله وضبطه عن مثله . ولولا الإسناد لا راح الدين ولا جاء .

فهذا قليل من كثير من عظم القرآن الحكيم الذى تضمن علوم الأولين والآخرين وتكفل ببيانها خير تبيين من ظاهر علوم الحياة الدنيا وخبايا أسرار يوم الدين من كل ما جاء عن إخبار رب العالمين وبيان سيد المرسلين .

أما رب العالمين تبارك وتعالى فقد قال فيه عز من قائل (تبيان كل شيء) (وتفصيل كل شيء) (ما فرطنا في الكتاب من شيء) من بدء المحدثات له تبارك وتعالى إلى المعاد .

وأما سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال في التبيين (ألا وإني أعطيت القرآن ومثله معه) الحديث وفي الرواية الأخرى (أعطيت القرآن وعشرة أمثاله) الحديث يرويه أصحاب السنن والمسانيد .

الفصل الرابع

في بيان ما خص الله تعالى به علماء هذه الأمة بتدوين الدين الإسلامي للأمة المحمدية وتتطوراته على مقتضى كلام رب العالمين وبيان سيد المرسلين وأجمع عليه الصحابة والتابعون ومن تبعهم من عقلاء الأمة الإسلامية وهم خيرة علمائها بدون خلاف بينهم منهم إلى يوم الدين .

إعلم يا أخي وفقني الله وإياك ومن نور بصيرته أنه يجب على كل عاقل أن يعرف كيف وفق الله تعالى عباده للقيام بتأسيس هذا الدين الحنيف وتشييده بجميع مستلزماته مما يحتاج إليه جميع بني البشر في دينهم ودنياهم وآخرتهم من كل مستلزم موصل إلى ذلك حتى لا يعجز فيه طالب ولا يمل منه هارب وبذلك صار الحق القويم والطريق الواضح الشرع المستقيم واضحاً وجلياً حيث كان لكل موفق في ناحية من نواحي أضربه عمدته فيه الإسناد الذي لولاه لا راح الدين ولا جاء إذ به صار عمل كل عامل فيه من كل حكم شرعي جزئي أو كلي بالسند من العامل إلى من فوقه بالإسناد إلى التابعين فالصحابة فسيد العالمين فجبريل الأمين عن رب العالمين .

هكذا النتيجة في كل مسألة من مسائله دقيقة أو جليلة أو عظيمة وبهذا كان هذا الدين العظيم مغايراً في الوضع والحفظ والتدوين لجميع العاملين من السابقين من هم على قدم الأنبياء والمرسلين من آدم عليه السلام إلى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم

والمقصد الأسنى فيه والمرجع الأعلى إليه كتاب رب العالمين الذي ضمن سبحانه وتعالى حفظه وتأييده برعايته جل وعلا وتقييضه خيرة عباده الصالحين بجمعه وكتبه وضبطه وإجماعهم على صحة ذلك كما تلقوه عن سيد المرسلين عن جبريل عن رب العالمين .

فكان القرآن الكريم والتنزيل الحكيم أول مدون في أصل الدين الإسلامي وليس هذا من المبدع في شيء لأنه كتب مفرقا على يد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم - وجمع على يد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم تلاوة بمدارسته مع جبريل عليه السلام في كل شهر من أشهر رمضان مرة مرة إلا في العام الذي شاء الله تعالى انتقاله فيه من الدنيا إلى الآخرة فدارسه فيه مرتين على هـذا الوضع الموجود الآن فكان من مصداق قوله تعالى (إنا علينا جمعه وقرآنه) الآية .

ثم وفق الله تعالى بمشيئته بتقييضه له لمن شاء من خيرة عباده بتدوين السنة المطهرة أيضاً كالقرآن العزيز والذكر الحكيم .

فأول ما دون فيها سيرة حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ثم وجه الله تعالى من خيرة عباده بتنويع أغراضهم وكان من مهامها حفظ السنة المطهرة عن ظهر قلب ولا يعرف العالم فيهم ولا يمتاز عن غيره إلا بكثرة محفوظاته من هذه السنة المطهرة .

إذ القرآن الكريم كان ضروري الحفظ لكل مسلم ومسلمة من كل كبير وصغير منهم ولا فخر ولا فضل ولا ميزة بعد ذلك يفضل بها أحد عن أحد إلا بكثرة حفظه لأحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فوجه الله تعالى رغبات الناس في ذلك من الصحابة والتابعين . . .

فمنهم من كان يحفظ أحاديث العبادات ، ومنهم من كان يحفظ أحاديث المعاملات، ومنهم من كان يحفظ أحاديث التوحيد، ومنهم من كان يحفظ أحاديث الجهاد ، ومنهم من كان يحفظ أحاديث الإحسان، ومنهم من كان يحفظ أحاديث الفتن، ومنهم من كان يحفظ أحاديث السير والقصص، ومنهم من كان يحفظ أحاديث المبدإ والمعاد، ومنهم من كان يحفظ أحاديث الموت وما بعده ، ومنهم من كان يحفظ أحاديث أعاجيب الله في مكوناته، ومنهم من كان يحفظ غرائب الله عزوجل وأسرار ارتباط أسبابها بمسبباتها

حتى اشتهر كل بمروياته لكي لا يحصل الخلط والشك والريب في المرويات عن هؤلاء الخيرة الموفقين المؤدين لما حملوا به لأهلها .

وصار أمر كل واحد مشتهرا بمروياته وحفظه وضبطه وإتقانه لها كأحوال التجار في هذه الدنيا المشتهر ببيع المانيفاتورة لا يعرف أن عنده حديدا أو جلداً والمشتهر ببيع الزيت لا يعرف أن عنده ورقاً أو قماشاً .

فلو قيل لمشتر الدهن من أين جئت به؟ فيقول من بائع المانيفاتورة لا يصدق

ويعرف أنه كذاب — ولو قيل لمشترى الحبوب أو التمر من أين جئت به ؟ فقال من بائع الحديد أو الخشب لايصدق ويعرف أنه كذاب.

ويوضح لك هذا حادث أبى عبد الله البخارى حيث دخل عليه عشرة من الرجال خلطوا أحاديث أسندوها لغير ماهو مشتهر عنهم فأنكر ذلك وقال هذا شىء لانعرفه ورد كل حديث إلى راويه فعرفوه أنه من الحفاظ وشهدوا له بالفضل والعلم والحفظ والإتقان وأيضا ما حدث للامام أحمد بن حنبل ويحى بن معين رضى الله تعالى عنهما فقد قام محدث كذاب فى مسجد دمشق بالشام وأسند فى حديثه إلى الإمام أحمد بن حنبل ويحى بن معين فنظر كل لصاحبه وقال كل واحد لصاحبه أأنت تروى هذا أو هذا من مروياتك والقائم الذى يقول لايعرفهما فقال كل لصاحبه قل له من يحى ومن أحمد فقال تقر أحمد بن حنبل الإمام ذاك الورع المحدث ويحى بن معين ذاك الثبت صاحب الإسناد الحجة — فقالا له ها أنا أحمد بن حنبل وهذا يحى بن معين لانعرفهذا أصلافقال الكذوب لخزيه — كم فى الدنيامن أحمد بن حنبل ويحى بن معين.

وما حدث لعمر بن عبد العزيز وكان يحب الطير ويحب إكرامه فدخل عليه محدث كذاب وذكر حديثاً الغرض منه الحث على اقتناء الطير والولوع به وأسند بسنده إلى غير من يعرف عنه ذلك فعرفه أنه كذاب وأمر بذبح جميع الطيور التى عنده لئلا يكذب بها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومن عجيب صنع الله تعالى أن أصول الدين وفروعه قابلة التنويع من بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم وكانت هذه المرويات معروفة بأهلها حتى إذا ماأراد أحد أعداء الله تعالى ورسوله والمؤمنين والدين الإسلامى من الكافرين والمنافقين إدخال أو وضع شىء ليس منه ولم يسنده بسند صحيح كان معروفا بالبيان الذى قدمنا .

وإليك حادث الإمام مالك رضى الله تعالى عنه إمام دار التنزيل وقد حفظ ابنه رضى الله تعالى عنهما مائة ألف حديث وبعد أن سمعها له قال هذا كله مكذوب على رسول الله ومن عمل الدخالين والوضاعين فقال له أتعبتنى فيها — فقال لأجل أن تعرف كل ما جاءك بعد ذلك فهو عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولذا قد وفق الله تعالى رجالا من خيرة الأمة فى جمع ذلك المكذوب وحصره وجمعه وكتبه حتى لا يشتبه على كل طالب للحديث من السنة المطهرة — ولم يغب عنهم شىء من ذلك .

ولا تنسى أن الحجة فى هذا الدين الحنيف والمصدر الأول كتاب الله تعالى الحكيم ثم سنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم ثم إجماع الصحابة رضى الله تعالى عنهم والتابعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .

والأصل فى الجميع الإسناد على ماقدمنا لك وما هو الامن رعاية الله تبارك وتعالى لهذا الدين القويم لهذه الأمة المقابلة لجميع الأمم المخالفين وحفظه تبارك وتعالى لقانونه الأول وإيقاظه لبعض عباده فى كلّ عصر لذلك لمن عليه يعول بقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى برجال أيقظهم لذلك .

ولا تنسى حادث المأمون المبين لك الفارق بين حفظ الله تعالى لهذا الدين وبين ما أسند حفظه تبارك وتعالى من الكتب المتقدمة إلى علمائهم السابقين وهو أنه دخل يهودى فتكلم فأعجبه كلامه لفصاحته وبلاغته وعرف أن هذا لا ينشأ إلا عن التعلم والعلم فقال له أسلم فقال لا — وبلغه أنه أسلم بعد سنة فاستدعاه فقال: ماالذى حملك على الإسلام فقال إن نفسى والهوى والشيطان كانوا مانعين لى فأردت أن أقف على حقائق ذلك بالبرهان فجمعت أشياء من التوراة ملفقة وعرضتها على أهل البيعة فاشتروها بثمن عظيم واستحسنوها وأدخلت عليهم أنها وجدت فى كتاب قديم عند أبيه وأجداده .

ثم لفقت أشياء من الإنجيل وجعلتها أيضاً فى كتاب وعرضتها على القسيسين والأحبار وقلت إنه كتاب قديم عند آبائى وأجدادى فاشتروها بثمن عظيم .

ثم جمعت أشياء من القرآن ملفقة وقلت إنها فى كتاب قديم عند آبائى وأجدادى وعرضتها على الوراقين من علماء الاسلام فقبضوا على وكادوا يقتلوننى وقالوا تلغيو فى كتاب الله المحفوظ فقلت لهم حقيقة الأمر وأسلمت على أيديهم راضياً مرضياً مقتنعاً معتقداً بأن كتاب الله المحفوظ حقاً من التغيير والتبديل ـ هو القرآن ـ

فقال بعض جلساء للمأمون هذا فى كتاب الله عز وجل فقال المأمون : هات فقال الحبر مستدلا على أن الكتب السابقة كان قد أسند الله حفظها إلى الربانيين والأحبار وأن القرآن الكريم قد كفل سبحانه وتعالى حفظه بحسن رعايته وعنايته وتقييضه له من اصطفاهم من خيرة خلقه مستدلا بقوله تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من

كتاب الله وكانوا عليه شهداء) الآية وأما القرآن فقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ولا يخفى على كل ذى عقل متعقل أن حفظ الله تعالى لكتابه حفظ لجميع ما اشتمل عليه هذا الدين الحنيف أصولا وفروعا وقياساً واستنباطا ولا مرية فى شىء من ذلك كله ولا خلاف بينهم ولا تفريق ولا تشقيق .

والذى هو ظاهره الخلاف فى الفروع عند أئمة الدين — فهو ليس بخلاف — وماهو إلا جمع للتنويع فى الحكم الواحد ممن أسند الله تعالى إليه النبيين صلى الله تعالى عليه وسلم تحقيقا لعباده وتسهيلا عليهم فيما شرع لهم .

ولذا وفق الله تعالى من خيرة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين من تتبعوا جميع أحواله صلى الله تعالى عليه وسلم من أقواله — وأفعاله — وتقريراته — وإشاراته — وحركاته — وسكناته — فى كل مستلزمات البشرية ومايصدر من البشر وعنهم حالا ومآلا إلا وقد رووه بكل دقة وإتقان .

حتى ما كان من خفايا شأنه الشريف وأسراره التى تكون بينه وبين أهله .

وماذاك إلا بتوفيق ممن بيده ملكوت كل شىء حتى يؤيد لعباده دينا قويما قوى البيان منيع الحصون ليتحقق بذلك قوله جل شأنه فى آية واحدة فى الكتاب المجيد (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) فأصبح كل فرد فرد من المؤمنين المسلمين أتى بعمل جاء موافقا لبيان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ولو بطريق القياس — أو الاستنباط — فهو عن سيد العالمين — وقد رضيه الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين .

ومن هنا قد صح إجماعهم على أن الدين الإسلامى لم يخرج عن دائرة ثلاث عن أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم وأفعاله . وتقريراته — وهى مقابل الإسلام ، والايمان ، والإحسان .

ولايخفى عليك أن القياس — والاستنباط هو من بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم كما هو صريح السنة المطهرة على ماهو مقرر فى محله وسيتضح لك فى غير هذا الباب ماجاء فيهما مفصلا تفصيلا ومبينا تبيينا .

وماهذا إلا لرفع شبه بعض الجهلة الذين يظنون أن الدليل فى الدين الإسلامى — الكتاب — والسنة — والإجماع فحسب — وما القياس والاستنباط إلا من الكتاب والسنة كما عليه إجماع خيرة الأمة .

ولقائل أن يقول ماهذا الخلاف الذى هو ظاهره التعارض بين المسلمين وما أتوا به إلا المسلمين للمسلمين — نقول :

هؤلاء الذين أتوا بما هو ظاهره المخالف المعارض ماهم إلا من منشيء أولئك السابقين الذين كانوا مع حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وسماهم الله عز وجل بالمنافقين وكانوا يأتون بالأمر المخالف وكان يعرفه صلى الله تعالى عليه وسلم ولكن لايواجههم به لئلا يكون حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم مخالفا للبشرية بعلم الغيب ولمصداق قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم) وقوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولابكم) الآية .

فكان يسكت فى ذلك حتى يبين الله عز وجل على يد حضرته ذلك الأمر المخالف وغرض فاعليه ونيتهم فى ذلك ليكون حكما أصليا يسير عليه كل مؤمن حقا ومنافق وفقا إلى يوم الدين - وليكونوا من مصداق قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام) ومن قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) ومن قوله تعالى (فلتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) وفى قوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) ومن قوله تعالى (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين) ومن قوله تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) الآيات .

فهذا كله وأمثاله من الآى الكريم والذكر الحكيم منصب على كل دخيل على الإسلام والمسلمين وماهو إلا من منشيء أولئك المنافقين الذين جعلهم الله معارضين لأهل الحق من المؤمنين كما كان أسلافهم يريدون معارضة سيد العالمين واعلم أن مصدر الآيات وسبب نزولها الرد والخزى والتسفيه والتوبيخ والتقريع وكشف لحال أولئك ليكون معلوما لأهل الحق والإيمان أن كل من يدعى تلك المبادىء المخالفة فهو على قدم أولئك الذين كانوا سببا فى التبيين لحال من يأتون بعد بهذه المخالفات الخارجة عن إجماع أهل الحق والتحقيق والدين الصحيح الصريح الواضح الواحد الذى لاخلاف فيه بين أهله بصريح الكتاب والسنة ومن خالفهم فهو من سلالة

أولئك الذين أنزل الله في شأنهم قرآنا يتلى إلى يوم الدين ولايعرفه إلا العلماء العاملون ولايحيد عنه إلا كل مخالف .

ولاتحزن فقد جعل الله عز وجل لكل طالب الحق ميزانا يزن به الأشخاص فيعرف أهل الحق من أهل الضلال مصداقا لقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه (إعرف الحق تعرف أهله) أي الحق لايعرف بالرجال ولامنهم بل يعرف هو على حدته وأنت تزنه بهذا الميزان الحق فمن كان عليه فهو على الحق ومن كان ضده فهو على خلافه وهو بيان السنة الغراء من قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة . فقالوا : ماهي ؟ قال : الجماعة » الحديث يرويه أبو داود ورواية الترمذي (السواد الأعظم) ورواية البخاري « ما عليه أنا وأصحابي » ومن قوله « يد الله مع الجماعة » يرويه البخاري ومسلم ومن قوله « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » يرويه أبو داود

ولايخفى أن الحق واحد لايتجزأ وهؤلاء أرباب الفرق في الإسلام والجماعات كل يدعي أنه على الحق وليسوا من الحق في شيء .

فأنت تعرف أن كل معارض ومخالف وخارج عن إجماع المسلمين وهم السواد الأعظم عند مقابلة كل فرقة وهم المعنيون في قوله تعالى (كنتم خير أمة) وفي قوله تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وفي قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) فالمراد بالأمة السواد الأعظم من المسلمين المجمعين على الحق ولاخلاف بينهم فيه وإنما الخلاف الذي هو ظاهره بين المسلمين ما نشأ وصدر وظهر أمره إذا تتبعت أصله وجدت أنه عن هؤلاء الضالين الذين خرجوا عن إجماع المسلمين المعارضين لذلك الإجماع .

وما من مسألة أتوا بها ظنا منهم أنها معارضة للحق ماهو إلا من انطباق جهلهم وعدم فهمهم وعدم فتح الله تعالى عليهم فيها فيظن غير العالم أنها مخالفة أو أنها على غير ماعليه إجماع المسلمين .

وفي الحق والحقيقة لاخلاف ولامعارضة على مايزينا كثيرا قال تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) .

الفصل الأول

فى معرفة أسرار الكتابة والتدوين

سنة الله تعالى فى خلقه من بنى آدم أن جعل الكتابة والتدوين لهم عادة أصلية وفطرة طبيعية يعتمدون عليها فى كل الأحاديث من القديم والحديث وقد وفقهم سبحانه وتعالى لذلك لما فيه من كبير الفائدة وعظيم النعمة التى لهم وتمهيد عليهم من مستلزماتهم فى حياتهم من الأمور الدينية والدنيوية فمن حاد عنها فقد خالف سنن التكوين وغفل وضل عن الحكم العالية لله تعالى من الإرشاد والتبيين ولا يلحقه إلا الأسف والندم على ما فرط بالخسران المبين .

فالكتابة والتدوين من إرشاد الله تعالى لعباده لما لهم فى ذلك من الربط والارتباط من تبادل المنافع فى هذه الحياة التى ما جعل تعالى فيها شيئاً إلا بربط الأسباب بالمسببات وجعلها تعالى سارية فيهم بالفطرة وجرى العادات — وفى الواقع أنه تبارك وتعالى ما خلق هذه الحروف وجعلها عالما كالعوالم الأخر إلا لكبير الحكمة وعالى الأسرار فليست هى من الدوال على المراد فحسب بل هى سر من أسرار الحق جلا علا ربط بها جميع المكونات من عالمها العلوى والسفلى وما فيها من المفردات . والجزئيات والكليات فتبارك الله أحسن الخالقين وأيضاً ليعلم عباده أنه تعالى سينزل على المرسلين كتبا تجب قراءتها والعمل بما فيها . ألم تفهم أن عليهم كراما كاتبين مسجلين ما يعملون

ومن هنا كان من أهم الأمور وضعا وتأسيسا ما يتعلق بالدين وهو ما كان سببه وأصله على يد الأنبياء والمرسلين فكتبوا ما كتبوا على ما أبان لهم الحق عز وجل فى كتبهم المقدسة السماوية من أحبارهم ورهبانهم للرشد والتبيين لعباد الله تعالى المؤمنين

وإن كان الحق يعلم سبحانه وتعالى أن ما يكتب هنا ينسخ بالتغيير على يد الرسول الجديد فكان من يدخل بنفسه حشوا فى قدم الأحبار والرهبان ممن لا خلاق لهم غير النسبة الظاهرية فكانوا يغيرون ما شاؤوا بما شاؤوا لمن شاؤوا فى مقابل متاع الدنيا القليل ولينالوا الحظوة عند من يغيرون لهم ذلك بالتقرب منهم ورفعة شأنهم قال تعالى (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب

بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)

الكتاب فى الدين الإسلامى وأهله

المغايرين لجميع أرباب الأديان السابقة المحفوظين من التغيير والتبديل .

أما أهل هذا الدين الحق الحنيف الذى أقامه الله تبارك وتعالى إقامة ثابتة راسخة متأصلة قوية مثبتة فيعرف بها ومنها كل طالب للحق بمغايرته فى جميع أنواعه وأضربه لجميع الأديان المخالفة له — حتى صار بينهم كعمود المجد وذروة سنامه وهم حوله كبيوت العنكبوت أو أوهن فى نظر الطالب للحق وما وجودها الآن على ألسنة المخالفين إلا ليعرف ويتميز بها ومنها كل طالب للدين الحق الصحيح

ولا يرى هذا ويتحقق منه ويفرق بينه وبين غيره إلا كل من نور الله تعالى بصره وبصيرته وقرأ ودرى وعلم .

وأما من ضل وعمى وحار وتخبط فلم يهتد إلى شىء ينجيه ويقوده ويهديه ويكون كمن قال (لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته) ولا ينفعه ذلك لأنه مكلف بالوجوب بالبحث عن وراء ماهنالك حيث قد ركب الله تعالى فيه جميع مستلزماته البشرية من العقل والإدراك والتمييز .

ولما كان تدوين الدين الإسلامى مغايراً لجميع ما هو مسمى بينهم الآن بالأديان وكان وضعه عربياً فقيض الله تعالى له رجالا كل خدمه بناحية من مستلزماته حتى يكون للراغب فيه كل من مطلب التاريخ قديماً وحديثاً وسعوا فى ذلك سعياً حثيثاً فألفوا التآليف البارعة فى أغراض متفاوتة مفيدة نافعة — فمنهم من ألف فى أصل رواته من الحفاظ والمحدثين — والفقهاء — والمفسرين — والمتكلمين — والصوفية المتمسكين — والأدباء — والشعراء — وعلماء الهيئة والميقات — والمنجمين — والهندسة — والكيمياء — والطبيعة — والرسم والجغرافيا بأنواعها — والسيميا والسحر بأنواعه — والنحاة — واللغويين — ومن أفاض عليهم بالأسرار والفلسفة الدينية والطبيعية — والإشارات والعبارات المستفادة من كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين من جميع ما جاء به القرآن المجيد الجامع لعلوم الأولين والآخرين الذى ما فرط الله تعالى فيه من كل شىء — وقاموا أيضاً ببيان ما كان هاماً فى الدين ويقتدى فيه بأثر الصالحين

من بيان حال العلماء المحققين - والخلفاء والملوك والسلاطين - ومنهم من أتى على تراجم كل أولئك من النقاد والجراح والمعدلين ولم يزل منهم فيهم فى كل عصر من حملة هذا الدين - بدر طالع - وزهر غض يانع - وعلم ترنو إليه الأبصار وتشير إليه الأصابع بالبنان من الصدر الأول إلى هذا الوقت والآن ونسج أفاضلهم على هذا المنوال. فكان أولهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين المؤسسون بإرشاد حضرة من أنزل عليه هذا التبيين- اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن عمل بدينه إلى يوم الدين. فكان الحق عزوجل يجرى على أيدى الصحابة أصلا لما سيحدث فى الأزمنة القابلة على مقاله فكانوا يرجعون إلى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لم يبق شىء من مستحدثات الزمان إلا وقد أجرى الله تعالى العالم بها أصلا على يديه صلى الله تعالى عليه وسلم فكان مبيناً له أجلى تبيان .

ثم من بعد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أى بعد انتقاله إلى الآخرة وكانوا قد حفظوا القرآن وبيانات حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بأدق حفظ وأجمل إتقان.

فكانوا إذا عارضهم الأمر المحدث فيرجعون فيه إلى كتاب الله عز وجل وبيان سنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم عملا بقوله جل وعلا (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وكان كل له مذهب يتفق به عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى اشتهر النيف والسبعون صحابياً ذوى مذاهب . ثم استمر الأمر على ذلك بعد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم إلى أن صار الأمر إلى من بعدهم وهم التابعون .

واعلم يا أخى أنا قد قررنا لك مراراً بأن الله تعالى هو الموفق من عباده من شاء لحفظ دينه ونشأه مؤهلا كامل الاستعداد فى تكوينه لذلك .

وهو أنه سبحانه وتعالى بعد أن بين على لسان حضرة من أنزمه التبيين لعباده صلى الله تعالى عليه وسلم . وكان هذا التبيين صالحاً لكل ما يتجدد فى الأزمنة وفى كل ما يستحدث فيها وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يبين لأصحابه بالأقوال . والأفعال . والتقريرات بالتوسع فى الأحكام الفرعية التى علم الله تعالى فيها التخفيف والتسهيل

لعباده من غير حرج ولا ضيق . وكان كل ذلك من حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من الله تبارك وتعالى حيث قال عز من قائل (وما ينطق عن الهوى) وقال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال جل شأنه وتعالت عظمته (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

ومن هنا أجمع عقلاء الأمة على أن الدين الإسلامى لا يخرج عن دوائر ثلاث : أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم — وأفعاله — وتقريراته .

فمن بيانه الشريف فى الأذان مثلا ومده وتطويله بغاية الطاقة قوله لأبى سعيد الخدرى « فارفع صوتك بالنداء » ورغبة بقوله « فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا وشهد له يوم القيامة » . الحديث .

وكذا بيانه من حسان الأصوات للأذان .

وكذا كونه للإسماع وعلى منارة نقل المؤذن فى أول الأمر من بين يدى حضرته إلى باب المسجد — ثم إلى فوق المسجد — ثم إلى أعلى بيت قريب من المسجد وهو الذى أخذ منه الصحابة جواز استحداث المنارة .

وكذا أيضاً تكرره من نقل المؤذن وعلى الباب للإسماع .

وفى جعل مسجده الشريف فوق قبور المشركين وفى الحديث الصحيح المروى فى سنن أبى داود أحد الصحاح الست «مابين زمزم والحطيم تسعون نبياً موتى» الحديث.

وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « كل ما أضيف إلى مسجدى فهو مسجدى » ومن هذا أخذوا جواز الصلاة فوق القبور بالفرش الذى يصلى عليه أو طهارة الأرض.

وفى قوله « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » وقد أحاط مسجده الشريف بيته المكرم الذى أخذ منه الصحابة جواز اتخاذ القبور فى المساجد .

وفى بيان جواز الصلاة إلى قبر أو ضريح تجاه المصلى من فعله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم حيث كان يصلى والسيدة عائشة معروضة أمامه كالجنازة فى الحديث المشهور عند أصحاب السنن وهذا أبين وأدل وأظهر وهو على وجه الأرض من المقبور المدفون — وهل المصلى فى حال إحرامه للصلاة يقول : الله أكبر أم يقل القبر أكبر ؟ تباً لهم وسحقاً .

وفى بيان تقبيله الشريف الحجر الكريم بالبيت العتيق وفى الطواف حول البيت

للتبرك به، ومنه أخذ الصحابة جواز تقبيل قبره الشريف وجواز تقبيل قبور الصالحين على ما رواه الأئمة الثقات عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقد بيناه فى محله .

وفى جواز اشتهار قبور الصالحين وتميزهم عن غيرهم بالقباب من قوله الشريف « ضعوا لى على قبر صاحبكم علامة) »

وفى بيان زياراته والتبرك بآثار الصالحين وقبورهم ماحصل لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم مناماً ويقظة فى إسرائه ومعاريجه الشريفة . وفى بيانه الشريف أن القرآن العظيم ينفع الأحياء والأموات مصداق قوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) فقد بين الشفاء للأحياء الصحابى فى علاج الملدوغ أخذاً من بيانه الشريف (الشافية) والرحمة للأموات بقراءته صلى الله تعالى عليه وسلم الفاتحة على الميت فى صلاة الجنازة التى أخذ منها الصحابة ومن تبعهم قراءتها لكل شىء فكانت خير ما يتوسل به إلى الله تعالى حيث كانت جامعة عدل القرآن . ولزيادة الصحابة ومن تبعهم فى المنبر على ثلاث درجات أخذامن بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم حيث كان يخطب الناس على درجة واحدة وهى جذع النخلة ولم يشترط على الصانع للمنبر درجات معينة .

وكتجويفهم رضى الله تعالى عنهم المحراب فى الحائط حيث كان أخص مكان لحضرته ولم يغيره لا إلى ذات اليمين ولا إلى ذات الشمال بدليل حديث النخامة .

وكبيانه الشريف فى قراءة القرآن على الأموات من أهل البقيع وفى قوله « اقرأوا يس على موتاكم » وفى نفعها لجميع الحاجات وميز هذه السورة بقوله « يس لما قرئت له وماء زمزم لما شرب له » الحديث .

وفى بيانه لقراءة سورة الكهف يوم الجمعة خصوصاً لميزتها بذلك وفى ذلك حيث كان من بيانه الشريف فهى من سنة الأقوال .

وكبيانه الشريف فى الحكم الفرعى الواحد من الدين بعدة أنواع وبعدة أقوال كالقنوت مثلا — والتشهد — ورفع اليدين — ووضعهما على الصدر أو القلب أو إسدالهما — ووفق الله الأئمة رووا كل ذلك عن الصحابة ليرووا جميع أفعاله الشريفة للعباد تسهيلا لهم وتيسيرا عليهم ولا يعد هذا خلافا بين الأئمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وكيانه الشريف فى فرعيات الوضوء وهيئات الغسل والصلاة ومراتب جميع أنواع الزكاة وكيفيات صوم النفل والفرض وتيسير شرائط الحج

وكتوريث الجدة التى لم يجىء نصها فى القرآن الحكيم .

وكأنواع القصاص وأن عمر رضى الله تعالى عنه أول من خشب اليهودى الشامى فى الإسلام أخذا من فعل حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم حيث ربط أمامه فى سارية المسجد حتى استبان أمره .

وكيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فى المعاملات من البيوع وغيرها .

وكيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فى الصلاة والسلام عليه بعد الأذان حيث كان مَنّ سنة الأقوال وكتنويعه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيان كيفية الصلاة والسلام عليه التى كان مصدرها قوله تعالى (صلوا عليه) وقد فهموا رضوان الله تعالى عليهم — إرفعوا شأنه وعظموا قدره — فأوكلهم صلى الله تعالى عليه وسلم إلى من يقدر على ذلك وهو الله تعالى — فقال لهم قولوا « اللهم صل » الحديث. وقد جاء منوعا بثمانية طرق متغايرة الألفاظ على ما بيناه فى باب الأذان عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

وكيانه الشريف فى النوافل من صلاة الضحى وقبل الظهر وبعده وقبل العصر وبعد المغرب — والأوراد — والأذكار من الترغيب لقول الحق عز وجل فى الحديث القدسى (لا يزال عبدى يتقرب إلى بأزيد مما افترضته عليه) الحديث ومن صلاة الليل مصداق قوله تعالى لعباده على لسان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

وكتعليمة صلى الله تعالى عليه وسلم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم الاستنباط فى الحديث المشهور عن على رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه قال : « بينما نحن جلوس فى جنازة فى بقيع الغرقد إذ أقبل علينا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقمنا فقابلناه فجلس فجلسنا حوله » الحديث إلى أن استدل صلى الله تعالى عليه وسلم على قوله الشريف بقول الله عز وجل (فأما من أعطى واتقى) الآيات .

وكواقعة الحالف على امرأته أن لا يقربها حينا من الدهر وجاء فلم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ووجد الصحابة فسألهم عن حضرته فعرفوا سبب السؤال أنه حلف على امرأته لا يقربها حينا من الدهر فقال الصديق لا تقربها الأبد — وقال

الفاروق لاتقربها إلا بعد أربعين عاما — وقال ذو النورين عثمان بن عفان: لاتقربها إلا بعد سنة — وقال ليث بنى غالب على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم أجمعين متى حلفت؟ قال اليوم فقال اقربها غدا — فلما حضر صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبر بما حصل فقال للصديق مادليلك؟ قال قول الله تعالى (ومتعناهم إلى حين) وقال للفاروق ما دليلك؟ قال قول الله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) وقد سمعتك يارسول الله تقول أربعون عاما — وقال لعثمان مادليلك ؟ فقال قول الله تعالى (تؤتى أكلها كل حين) وقال لعلى مادليلك ؟ قال قول الله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) فسر صلى الله تعالى عليه وسلم وقال «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) . وكتعليمه صلى الله تعالى عليه وسلم الصحابة القياس فى واقعة الصحابى الذى جاء إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : إن امرأتى وضعت ولداً أسود يريد اتهامها فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم « هل لك من إبل ؟ قال نعم قال : ما ألوانها ؟ قال : حمر قال هل فيها من أورق ؟ قال نعم فقال من أتى له هذا ؟ قال لعل عرقا نزعه قال وهذا لعل عرقا نزعه » وكحديث الفقراء الذين ذهبوا إلى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وقالوا ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم فقال : أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به إن بكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تهليلة صدقة وفى بضع أحدكم صدقة قالوا يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيت إذا وضعها فى حرام فكان عليه وزر فكذلك إذا وضعها فى حلال فكان له أجر »

وفى لفت حضرته الصحابة النظر إلى ما كان عليه وضع الحروف العربية ومايستفاد منها من الأحكام فى القرآن المجيد كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لابن الزبعرا حيث قال لما أنزل الله عز وجل (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) فقال ابن الزبعرا عبد عزير وعيسى وآلهتنا تعبد ورضينا أن نكون مع عيسى فى جهنم فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم « ما أجهلك بلغة قومك » وكان رئيسا من رؤساء المشركين المعارضين عنادا فأنزل الله عز وجل (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا) الآيات .

وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن لكل حرف من القرآن ظهرا وبطنا » .

وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « سورة الإخلاص تعادل ثلث القرآن » فعلم في بيانه الشريف أن القرآن على ثلاثة أقسام ـ فاضل ـ ومفضول ـ وأفضل .

وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لكل شيء ذروة وذروة القرآن البقرة » .

وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « أفضل آية في القرآن الله لا إله إلا هو الحي القيوم » .

وهكذا كان تعليمه صلى الله تعالى عليه وسلم لهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين في جميع أنواع وأحوال وأضرب مختلف الدين من كل مستلزماته وحاجيات العباد إليه في أمور دينهم من أحكام كلية وفرعية وحياة معاشهم المادية ومعتقداتهم الدينية .

وهكذا مما جاء في بيانه الشريف بأن في بعض آيه ـ أحكم ـ وأشمل ـ وأخوف ـ وأرجى ـ وأهمها ما جاء في بيان السنة في الأحكام الشرعية من التنويع في الحكم الواحد ـ مما استفاد واستنبط وقاس عليه خيرة الصحابة والتابعين وتابع التابعين وأجمع عليها خيرة علماء المسلمين .

فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم حملة الدين بكافة مشتملاته من كلياته وجزئياته وإفراده وقد أدوه إلى من بعدهم من التابعين عملا بقول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « بلغوا عني ولو حديثاً فرب مبلغ له أوعى له من سامع » وفي قوله « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء) الحديث .

وكقوله « نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها » وقد حذرهم صلى الله تعالى عليه وسلم وغيرهم الكذب على حضرته بقوله « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » الحديث .

فكان أمرهم رضوان الله تعالى عليهم مع ما هم فيه من القيام بالجهاد لتأسيس قواعد الدين الكلية حاملين لأصوله وقوانينه الكلية والفرعية ـ حتى تلقاها عنهم خيار الأمة من التابعين .

وكان أول ما دون من هذا الأصل على يد الصحابة كتاب رب العالمين بأحرفه التي نزل بها من مختلف اللهجات التي لم تخرجه عن عربيته كما كان يقرأه صلى الله

تعالى عليه وسلم عليهم وانحصرت تلك المزايا فيما اشتهرت عن ثقاة سبعة من خيرة أفاضل التابعين .

فكانوا أصلا لذلك ومرجعاً يعول عليه بإجماع خيرة السلمين وهم القراء :

(١) أبو محمد عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي الدمشقي قاضيها التابعي الجليل الحافظ المقرىء الثقة الأمين . قرأ عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي وأبي الدرداء وأصحاب عثمان رضي الله عنهم . وعنه جماعة منهم إسماعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر وأبو عبيد مسلم ويحي بن الحارث . مولده سنة ٢١ وتوفي سنة ١١٨ ثمانية عشر ومائة .

(٢) أبو سعيد عبد الله بن كثير المكي مولى عمر بن علقمة . أصله من أبناء فارس رضي الله عنه . الإمام التابعي الفاضل القدوة الثقة الثبت الأمين قرأ على عبد الله بن السائب المخزومي وعلى مجاهد بن جبر - قوله مجاهد هو مجاهد بن جبر المكي من سادات التابعين وفضلائهم قال : قرأت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة وله تفسير اعتمده الإمام الشافعي والإمام البخاري قال النووي : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك وهو أول من دون التفسير على الأرجح وكانت وفاته سنة ١٠٣ . وقيل سنة ٩٢ اثنان وتسعون . أما سعيد بن جبير فإنه توفي سنة ٩٥ خمس وتسعين وهما على عبد الله بن العباس وعلى زيد بن ثابت رضي الله عنهم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعنه الكثير من الأئمة . ولد بمكة سنة ٤٥ خمس وأربعين وتوفي سنة ١٢٠ مائة وعشرين .

(٣) أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي رضي الله عنه الإمام التابعي الثقة الفاضل الثبت الأمين العمدة الكامل . قرأ على أبي عبد الله حبيب السلمي وزر بن جيش الأسدي وهما على عثمان وعلى وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وعنه جماعة . منهم : أبو بكر شعبة بن عياش وأبو عمر حفص بن سليمان الكوفي . مات على أحد الأقوال سنة ١٢٧ سبع وعشرين ومائة .

(٤) أبو عمرو زبان بن العلاء البصري الخزاعي المازني رضي الله عنه الإمام العمدة الثقة الذكي الثبت العالم بالقراءة والحديث واللغة قرأ على جماعة من التابعين بالحجاز والعراق منهم ابن كثير ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعطاء . وهم عن ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وعليه قرأ

الكثير من الأئمة منهم أبو زكريا يحيى بن المبارك اليزيدي ويونس والأصمعي وأبو عبيدة، ولد بمكة سنة ٦٥ خمس وستين وتوفى سنة ١٥٤ أربع وخمسين ومائة .

(٥) أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي الزكي المتورع الزاهد الإمام الثقة الثبت العابد قرأ على جعفر الصادق على أبيه محمد الباقر على أبيه زين العابدين على أبيه الحسين على أبيه على رضى الله عنهم على النبي صلى الله عليه وسلم .وقرأ حمزة أيضاً عن الأعمش ومحمد بن أبي ليلى وعمران بن الحسين ، وعنه الكثير من الأئمة ولد سنة ٨٠ ثمانين وتوفى سنة ١٥٦ ست وخمسين ومائة .

(٦) أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم مولى جعونه أصله من أصفهان إمام دار الهجرة عمر طويلا . كان إماما ثقة فاضلا عالما جليلا كاملا وكان إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك فى أعلى سبعين من التابعين منهم يزيد بن القعقاع وربيع وعبد الرحمن بن هرمز . وهم عن عبد الله بن عباس وهو على أبي بن كعب رضى الله عنهم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ عنه مالك وكان يصلى وراءه وهو أخذ عن مالك الموطأ . روى عنه مائتان وخمسون من الأئمة. منهم: أبو موسى عيسى بن ميناء ويلقب بقالون المتوفى سنة ٢٠٥ مائتان وخمسة وأبو سعيد عثمان بن سعيد المصرى الملقب بورش المتوفى سنة ١٦٧ مات صاحب الترجمة بالمدينة سنة تسع أو سبع وستين ومائة

(٧) أبو الحسن على بن حمزة النحوى المعروف بالكسائى ، الإمام المشهور فى النحو واللغة وفن القراءات ، العمدة الثقة الأمين . قرأ على حمزة وتقدم سنده وعلى عيسى بن عمر على طلحة بن أبي مصرف على النخعى على علقمة على بن مسعود رضى الله عنهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعنه أئمة منهم : أبو الحارث الليث بن خالد وأبو عمر حفص الداودى توفى سنة تسع وثمانين ومائة وعمره سبعون عاما .

تابع التابعين فى القرآن المجيد

لتعلم حفظ الله تعالى لكتابه العزيز وضبطه وإتقانه وتحرى التلقى فيه عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم عن سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم عن جبريل عن رب العالمين ولذا قال أفاضلهم :

كتاب الله أفضل كل قيل ... رواه المصطفى عن جبرائيل

عن اللوح المحيط بكل علم ... من العلم الرفيع عن الجليل

وذلك بجميع لهجاته وحروفه السبع التى نزل بها تسهيلا للهجات ولغات عباد الله

تعالى التى لم يخرج فى أصوله وفروعه عن دائرتها بالضبط والحصر والتحرى وهى أصول لهجات العرب الأصلية التى ما ترك منها شيئاً حتى يكون مصداقا لقوله تعالى (قرآنا عربياً غير ذى عوج لعلهم يتذكرون) .

فتابعوا التابعين قاموا بكل ذلك خير قيام حتى انتهت إليهم جميع الروايات فى ذلك بالأسانيد المتقدمة التى بيناها عمدة الدين وعلى غيرها لا يعول فى الآنى والأول وقد انحصر هذا الصدر والمرجع إلى أئمة فضلاء جهابذة نجباء وإليك بيانهم كالآتى :

(فالأول) الإمام نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم قرأ على سبعين من التابعين منهم يزيد بن القعقاع وشيبة بن النصاح وعبد الرحمن بن هرمز وهم قرأوا على عبد الله بن عباس وعلى أبى بن كعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وله راويان ــ الأول: قالون قرأ على نافع ،والثانى: عثمان بن يوسف بن عمرو ابن يسار الأزرق الشهير بورش قرأ على نافع .

(الثانى) الإمام عبد الله بن كثير قرأ على عبد الله بن السائب المخزومى الصحابى على أبى بن كعب ــ وقرأ أيضاً على مجاهد بن جبر ــ ودرباس بن عباس . على عبد الله بن عباس على أبى . وزيد بن ثابت . على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وله راويان ــ الأول : أحمد البزى . قرأ على عكرمة بن سليمان . على إسماعيل ابن عبد الله القسط . على شبــــل بن عباد . على عبد الله بن كثير نفسه . والثانى : محمد قنبل قرأ على أبى الحسن احمد بن محمد بن عون القواس . على أبى الإخريط وهب بن واضح . على إسماعيل بن عبد الله القسط . على شبل بن عباد . على عبد الله بن كثير نفسه .

(الثالث) الامام أبو عمرو البصرى ، قرأ على جماعة من التابعين بالحجاز والعراق منهم ابن كثير . ومجاهد ، وسعيد بن جبير . على بن عباس . على أبى بن كعب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ــ وله راويان ــ الأول : أبو عمر الدورى ــ قرأ على يحى اليزيدى . على أبى عمرو . والثانى : صالح السوسى ــ قرأ أيضاً على يحى اليزيدى . على أبى عمرو .

(الرابع) الامام عبد الله بن عامر . قرأ على المغيرة بن أبى شهاب . على عثمان ابن عفان . وعلى أبى الدرداء . على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ــ وله راويان . الأول:

هشام بن عمار ـ قرأ على عراك بن خالد المروزى ـ قرأ على يحي بن الحارث الزمارى على عبد الله بن عامر . الثـانى : عبد الله بن ذكوان ـ قرأ على أيوب بن تميم التميمى على يحي بن الحارث الزمارى ـ على بن عامر

(الخامس) الامام عاصم بن أبى النجود ـ قرأ على أبى عبد الله بن حبيب السلمى وزر بن حبيش . على عثمان . وعلى . وعبـد الله بن مسعود . وعلى ـ أبى . وزيد على النبى صلى الله عليه وسلم ـ وله راويان : الأول : أبو بكر شعبة ـ قرأ على عاصم الثانى : جعفر ـ قرأ على عاصم أيضاً .

(السادس) الإمام حمزة : قرأ على جعفر الصادق ـ على أبيه محمد الباقر ـ على أبيه زين العابدين ـ على أبيه الحسين ـ على أبيه على بن أبى طالب ـ وقرأ أيضا على الأعمش . وعلى يحي بن وثاب ـ على علقمة ـ على بن مسعود ـ وقرأ أيضا ـ على محمد بن أبى ليلى ـ على أبى ليلى ـ على أبى المنهال ـ على سعيد بن جبير ـ على عبد الله بن عباس ـ على أبى بن كعب ـ وقرأ أيضا على حجران بن أعين ـ على أبى الأسود الدؤلى ـ على عثمان ـ وعلى ، وقرأ عثمان ـ وعلى ـ وابن مسعود ـ وأبى ـ على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ وله راويان ـ الأول : خلف . والثانى : خلاد ـ وكلاهما قرأ على سليم وهو قرأ على حمزة الإمام .

(السابع) على الكسائى ، قرأ على حمزة الزيات ، وتقدم سنده وقرأ أيضا على عيسى بن عمر ـ على طلحة بن مصرف ـ على النخعى ـ على علقمة ـ على بن مسعود ـ على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ـ وله روايان ـ الأول : الليث أبو الحارث الثانى : أبو عمر الدورى وكلاهما قرأ على الإمام الكسائى وقرأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على جبريل الآخذ عن اللوح المحفوظ ـ عن رب العالمين جل جلاله

هـذا ما أجمع عليه خيار علماء الأمة الإسلامية وهم عقلاؤها سلفا وخلفاً وقديماً وحديثا على أن هؤلاء السادة الأخيار رضى الله تعالى عنهم هم أصول جميع القراءات التى رويت عن سيد العالمين بالإسناد كما علمت الذى جعله الله أساسا لهذا الدين الخالد ومن غيره وإلى غير هؤلاء لا يعول على قراءة كل قارىء وهؤلاء قد أهلهم الحق عز وجل ونشأهم على أن يكونوا حملة لدينه شراحا لتبيينه الذين هم من مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)

وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة منْ يجدد لها أمر دينها » . فهذا شأن الله تعالى فى عباده الموفقين لذلك.

وإن كنت ترى الآن فى الظاهر والغالب والكثير أنه لم يقدم على تعليم علم القراءات إلا كل من أوجد الله تعالى فيه صوتا حسنا ليبين الله عز وجل لعباده أن القرآن الكريم حمال ذو وجوه وليعلم السامع الذى قصر عقله ــ وأقعد عن تعلم ذلك فما يختلج فى نظره أو فكره أو عقله بأن ما علمه من بعض اللغة العربية مغاير لما وصل إليه فظن أنه لحن تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ــ وماهو إلا لنقص تعليمه وعجز إدراكه وقصر عقله وعدم إحاطة اطلاعه .

إذ مرجع جميع أصول اللغة العربية إليه ــ أى إلى القرآن الكريم لا القرآن يرجع للغة العربية . ولا يعول فى نظر العقلاء إلا عليه .

لأن أصول اللغة أنواع وفروع ــ ولذا ترى الأفاضل قسمها إلى خمسة أقسام على رأى بعضهم ــ صحيح ــ وأصح ــ وغريب ــ وشاذ ــ وشاذ الشاذ ــ

ومن هنا تعلم أنه لم يدخل فى ميدان تفسير القرآن الكريم إلا كل من أحاط بهذه اللغة الكريمة التى جعلها تبارك وتعالى أفضل جميع مختلف لغات البشر حتى من السريانية ــ لغة الملائكة ــ ومن (الحرفية) التى هى لغة بعض الجن ــ وأيضاً يكون قد أحاط بالسنة المطهرة التى قيض الله تعالى لها رجالا مخصوصين بتدوينها وحفظها وضبطها ــ ولذا أجمع أفاضل خيار عقلاء علماء الأمة الإسلامية فى الاستدلال على أن مستحدثات الزمان أصلها يرجع فيه إلى ما أدرجه الله عز وجل فى الكمال فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) .

وذلك على أن الدين الإسلامى ينحصر فى أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم ــ وأفعاله ــ وتقريراته ــ وهى محصورة بالعدد ــ ومستحدثات الكون لا تنحصر ودخول ما لا ينحصر تحت المنحصر محال .

إذن وجب أن يكون فى الدين الإسلامى أمور كلية تندرج تحتها هذه الجزئيات وكل من لم يكن كذلك أى محيطاً باللغة العربية بأنواعها السابقة والكتاب العزيز وأسباب نزول آيه والمواطن التى نزلت فيها كل آية أو سورة وبيان السنة

المطهرة ويدعى أن له تفسيرا — فهو عالة على غيره ناقل منه وعنه — غير خارج عن إجماع المسلمين خاضعا لكل ما دون تحت الإجماع كما هو شأن المبشرين فى قوله تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب).

ابتداء تدوين السنة

كان ابتداء تدوين السنة المحمدية فى الزمن والعصر الذى كان فيه ابتداء تدوين القرآن الكريم وحصل فيها الترقى والتدريج بالتلقى والاتقان والتحرى والضبط كما حصل فى القرآن.

وكان أول مادون منها السيرة النبوية ثم موطأ الإمام مالك بن أنس — ثم مسند الإمام أبى حنيفة وهو المعروف عند أهل الحديث بالدرجة الأولى والأصل الأصيل — ثم مسند الإمام الشافعى — ثم مسند الإمام أحمد بن حنبل رضوان الله تعالى عليهم أجمعين — ثم البخارى — ومسلم — اللذان عدا من الطبقة الأولى لالتزامهما ذكر الصحيح فقط فى كتابيهما —

ثم أبى داود السجستانى وصحيح الترمذى والنسائى — وابن ماجه — وابن حبان — والدارقطنى — والدارمى — وهلم جرا من الثمانية عشر كتابا التى تعد أصولا للسنة باعتبار تفرق أصحابها فى الأمصار والأقطار..

وقد جعلها أهل هذا الشأن على خمس طبقات:

فالطبقة الأولى: منحصرة بالاستقراء فى ثلاثة كتب — الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم قال الشافعى: — أصح كتاب بعد كتاب الله موطأ مالك — واتفق أهل الحديث على أن جميع ما فيه صحيح. وقدروا عن مالك بغير واسطة أكثر من ألف رجل

الطبقة الثانية: كتب لم تبلغ مبلغ الموطأ والصحيحين ولكنها تليها فى الثقة والعدالة والحفظ والتبحر — كان مصنفوها معروفين بذلك ولم يرضوا فيها بالتساهل فيما اشترطوا على أنفسهم فتلقاها من بعدهم بالقبول واعتنى بها المحدثون والفقهاء طبقة بعد طبقة كسنن أبى داود — وجامع الترمذى — ومجتبى النسائى. وكاد مسند الإمام أحمد بن حنبل يكون من جملة هاته الطبقة. فإن الإمام أحمد بن حنبل جعله أصلا يعرف به الصحيح والسقيم — قال ماليس فيه فلا تقبلوه.

الطبقة الثالثة: مسانيد وجوامع ومصنفات صنفت قبل البخارى ومسلم وفى

زمانهما وبعدهما جمعت بين الصحيح والحسن وغيرهما — كمسند أبي علي — ومصنف عبد الرزاق — ومصنف أبي بكر بن أبي شيبة — ومسند عبد الله بن حميد — والطيالسي — والبيهقي — والطحاوي — والطبراني — وكان قصدهم جمع ما وجدوه

الطبقة الرابعة: كتب قصد مصنفوها جمع ما لم يوجد في الطبقتين الأولتين وكانت في الجامع والمسانيد المختلفة كابن حبان — وكامل بن عدي — وكتب الخطيب — وأبو نعيم — والجوزقاني — وابن عساكر — وابن النجار — والديلمي — وكاد مسند الخوارزمي — يكون من هذه الطبقة.

الطبقة الخامسة: وهي ما اشتهر على ألسنة الفقهاء — والصوفية — والمؤرخين — ونحوهم — وليس له أصل في هذه الطبقات الأربع

واعلم أن الطبقة الأولى والثانية عليهما اعتماد المحدثين وحول حماهما مرتعهم ومسرحهم. وأما الثالثة فلا يباشرها للعمل عليها والقول بها إلا النحارير الجهابذة الذين يحفظون أسماء الرجال وعلل الأحاديث — نعم ربما يؤخذ منها المتابعات والشواهد وقد جعل الله لكل شيء قدرا.

وأما الرابعة: فالاشتغال بجمعها أو الاستنباط منها نوع تعمق من المتأخرين — وإن شئت الحق فطوائف المبتدعين — من الرافضة — والمعتزلة — وغيرهم يتمكنون بأدنى عناية أن يلخصوا منها شواهد مذاهبهم — فالانتصار بها غير صحيح في معارك العلماء في الحديث — اهـ

والحاصل أن الموطأ والكتب الخمسة بعده هي الأسوة الحسنة في فن الحديث في القديم والحديث وشهرة مؤلفيها غنية عن التعريف والبيان والتوصيف — متصلة السند حماها حول إلى يومنا هذا.

والحمد لله سندي يتصل بكل واحد منها إلى مؤلفيها إلى من رووا عنهم إلى سيد العالمين

(١) الموطأ — للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذي قدمنا أنه قد رواه عنه الألف رجل بدون واسطة. مولده بالمدينة المنورة سنة ٩٣ وتوفي سنة ١٧٩

(٢) صحيح البخاري — لأبي عبد الله محمد بن أبي حسن إسماعيل الجعفي البخاري. مولده سنة ١٩٤ ومات سنة ٢٥٦.

(٣) صحيح مسلم — لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري مولده سنة ٢٠٦ وتوفي سنة ٢١٦

(٤) سنن أبي داود - لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني مولده سنة ٢٠٢ وتوفي سنة ٢٧٥

(٥) الجامع - لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي مولده سنة ٢٠٩ وتوفي سنة ٢٧٩

(٦) المجتبى - وهي السنن الصغرى - لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي مولده سنة ٢١٥ توفي سنة ٣٠٣ - رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

وهكذا دونت وحفظت أفراد كل طبقة من المحدثين الذين قدمنا وغيرهم - اقتصرنا هنا خشية الإطالة .

واعلم أنه لم يزل الحديث النبوي والإسلام غض طري والدين محكم الأساس قوي أشرف العلوم وأجلها الذي لدى الصحابة والتابعين وأتباعهم خلفا بعد سلف لا يشرف بينهم أحد بعد حفظ التنزيل وهو القرآن إلا بقدر ما يحفظ منه، ولا يعظم في النفوس إلا بحسب ما سمع من الحديث عنه فتوفرت الرغبات فيه وانقطعت الهمم على تعلمه حتى رحلوا المراحل ذوات العدد وأفنوا الأموال والعدد وقطعوا الفيافي في طلبه وجابوا البلاد شرقا وغربا بسببه وكان اعتمادهم أولا على الحفظ والضبط في القلوب والخواطر غير ملتفتين إلى ما يكتبونه ولا معولين على ما يسطرونه وذلك لسرعة حفظهم وسيلان أذهانهم.

حتى رتبوا درجات الحافظين ممن اشتهر منهم بالمحدث ، والحافظ ، والحجة ، والحاكم . فلما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار وكثرت الفتوحات ومات معظم الصحابة وتفرق أصحابهم وأتباعهم وقل الضبط واتسع الخرق وكاد الباطل أن يلتبس بالحق احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة فمارسوا الدفاتر وسايروا المحابر وأجالوا في نظم قلائده أفكارهم وأنفقوا في تحصيله أعمارهم واستغرقوا لتقييده ليلهم ونهارهم فأبرزوا تصانيف كثرت صنوفها ودونوا دواوين ظهرت شفوفها فاتخذها العالمون قدوة ونصبها العالمون قبلة فجزاهم الله سبحانه وتعالى عن سعيهم الحميد أحسن ما جزى به علماء أمة وأحبار ملة وكان أول من أمر بتدوين الحديث وجمعه بالكتابة والحصن عليه هو عمر بن عبد العزيز رحمة الله تعالى عليه خوف الدراسة كما في الموطأ رواية محمد بن الحسن -

أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء .

وأخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أهل الآفاق انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه .

وعلقه البخارى فى صحيحه فيستفاد منه كما قال الحافظ ابن حجر ابتداء تدوين الحديث النبوى — وقال الهروى فى ذم الكلام ولم تكن الصحابة ولا التابعون يكتبون الأحاديث إنما كانوا يؤدونها حفظا ويأخذونها لفظا إلا كتاب الصدقات والشيء اليسير الذى يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء حتى خيف عليه الدروس وأسرع فى العلماء الموت أمر عمر بن عبد العزيز أبى بكر بن محمد فيما كتب إليه أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه .

وقال فى مقدمة الفتح وأول من جمع فى ذلك: الربيع بن صبيح، وسعيد بن أبى عروبة وغيرهما . وكانوا يصنفون كل باب على حدة إلى أن انتهى الأمر إلى كبار الطبقة الثالثة

وكان قد صنف فى الطبقة الأولى الإمام مالك بن أنس الموطأ فى المدينة، وعبد الملك ابن جريج بمكة ، وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام ، وسفيان الثورى بالكوفة ، وحماد بن سلمة بن دينار بالبصرة . ثم تلاهم كثير من الأئمة فى التصنيف كل على حسب ماسنح له وانتهى إليه علمه .

فمنهم من رتب على المسانيد كالإمام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وأحمد بن منيع ، وأبى خيثمة ، والحسن بن سفيان ، وأبى بكر بن البزار وغيرهم .

ومنهم من رتب على العلل بأن يجمع فى كل متن طرقه واختلاف الرواية فيه بحيث يتضح إرسال ما يكون متصلا أو وقف ما يكون مرفوعا أو غير ذلك .

ومنهم من رتب على الأبواب الفقهية وغيرها ونوعه أنواعا وجمع ما ورد فى كل نوع وفى كل حكم إثباتا ونفيا فبابا فبابا بحيث يتميز مايدخل فى الصوم مثلا عما يتعلق بالصلاة وأهل هذه الطريقة منهم من تقيد بالصحيح كالشيخين وغيرهما، ومنهم من لم يتقيد بذلك كباقى الكتب الستة .

وكان أول من صنف فى الصحيح محمد بن إسماعيل البخارى أسكنه الله تعالى فى بحبوحة جنانه بفضله البارى —

ومنهم المقتصر على الأحاديث المتضمنة للترغيب والترهيب

ومنهم من حذف الإسناد واقتصر على المتن فقط — كالبغوى فى مصابيحه — واللؤلؤى فى مشكاته — وبالجملة فقد كثرت فى هذا الشأن التصانيف وانتشرت فى أنواعه وفنونه التآليف واتسعت دائرة الرواية فى المشارق والمغارب واستنارت مناهج السنة لكل طالب

ولما كان أمر الصحيحين مشتهرا بين الناس وتوجهت رغبات الناس إليهما والتف طلاب السنة عليهما وفق الله تعالى الحميدى فى الجمع بينهما ليسهل على كل طالب تناولهما خصوصا فى الزمن الذى كانت لم تظهر فيه المطابع وهو أول مجموع جمع فى السنة

ثم جاء من بعده رزين بن معاوية العبدرى وقد نسج على منواله بالجمع بين كتب السنة الستة التى هى الطبقة الأولى والثانية وقد أجمع العقلاء على أنها جمعت من الصحيح ما يحتاج إليه الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم وكان الاشتغال بهم والرجوع إليهم والأخذ منهم وعمدة أحكام الدين عليهم بيد أن كل كتاب على حدته وكان يصعب على طلاب الحديث اقتنائهم . فجمعهم فى كتاب واحد وجاء فيه بأحاديث مناسبة لكل باب أزيد مما فى الكتب الستة —

واشتهر أمره بين العلماء بجامع رزين معروف لدى المحدثين وغايته . جمع متفرق وتقريب متطلب . وتيسير متعسر . فجزاه الله تعالى خيرا .

ثم جاء من بعده ابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٠٦ هجرى فرتبه وحذف مكرره وبين أحاديث الكتب الستة والتى لم تكن منها — بقوله (هذه أحاديث وجدتها فى جامع رزين ولم أجدها فى الأصول) — وبتوفيقه تعالى لشرحى لهذا الجامع العظيم قد أسندت هذه الأحاديث إلى مخرجيها . إذ أنه كان — رحمه الله تعالى — فى عزمه عمل — والنية لم تمكنه فجزاه الله خير الجزاء — ولله الحمد والفضل إلى بهو إليه السند المتصل على دون فيه

ثم جاء من بعده مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى اللغوى مؤلف القاموس صهر ملك اليمن الناصر بن الأشرف الذى كلفه بجمع ما فى السنة مما زاد على جامع الأصول وقد جمعها فى كتاب سماه تسهيل طريق الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول . وهو فى أربع مجلدات .

فجزاهم الله تعالى على ما أنعم عليهم من خدمة الكتاب العزيز والسنة المطهرة خير ما يجازى به عامل حسن صنع عمله . إنه على ذلك قدير وللإجابة خير متفضل وقدير .

الفصل السادس

(فى بدء تدوين أمور الدين الثلاث الإسلام والإيمان والإحسان)

اعلم يا أخى وفقنى الله وإياك وهدانى وهداك بنور الهداية والرشد إلى معرفة الحق الصريح الواضح المستقيم

أن الحق سبحانه وتعالى الذى تكفل بحفظ أصول وفروع هذا الدين المتين المبين قد قيض له رجالا اختارهم من خيرة خلقه أهلهم لذلك وجعل تكوينهم مشتملا عليه فنشأوا بالفطرة راغبين فيه وجعل سبحانه وتعالى فى كل ناحية من نواحيه جماعة مستفيضة يستحيل تواطؤهم على الكذب فيما اتفقوا فيه وأجمعوا عليه حتى صارت بإجماعهم الحجة وإليهم فى كل الأمور من تلك الناحية المحجة .

فكان مصداق قوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) .

فنى الوقت الذى اشتهر فيه رجال لخدمة القرآن العظيم ورجال للسنة المطهرة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان فى العصر الذى حدث عنه الصادق المصدوق فى قوله « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث .

اشتهر أيضا رجال لبيان مااشتمل عليه أمورهذا الدين الحنيف الثلاثة التى لم يخرج التشريع الإسلامى عن دائرتها - وهى الإسلام - والإيمان - والإحسان - التى عرفها الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا التعريف حين سأله جبريل عليه السلام فى الحديث المشهور وسؤاله عليه السلام لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم - عن الإسلام - والإيمان - والإحسان .

ثم قال صلى الله تعالى عليه وسلم « هذا جبريل جاء ليعلمكم أمور دينكم » فأمور الدين الإسلامى لم تخرج عن هذه الثلاثة كما أن التشريع أيضا فيما أجمع عليه عقلاء هذه الأمة أنه لم يخرج عن هذه الأمور الثلاثة السالفة الذكر وهى أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم - وأفعاله - وتقريراته - فسبحان المنعم المتفضل على هذه الأمة بنعمه التى لا تحصى وفضله الذى لا يستقصى بأن أوجد منهم أحبارا ربانيين عبادا نساكين ذوى أذهان يقظة وهم نافذوا البصيرة به تعالى قادرون على ما عهد إليهم فأوضحوا العبارة وأناروا الإشارة رضى الله تعالى عنهم أجمعين فقد وفق لكل ناحية من هذه المبادىء الثلاثة رجال من خيار هذه الأمة كل قام بما وفق لأجله .

فأول أمور الدين (الإسلام) وهو أحد الثلاثة فقد وفق سبحانه وتعالى رجالا من الصحابة أبانوا الفقه فيه بكافة ما اشتمل عليه الكتاب العزيز والتبيين الكريم حتى اشتهر أمر الفقهاء في عصر الصحابة إلى سبعين مذهبا ثم من بعدهم انحصر الأمر وجمع العلم واستقر الرأى واتفق الأمر على سبعة من خيرة الفقهاء التابعين وهم :

(١) أبو عبد الله عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من سادات التابعين وأعلامهم وفضلائهم رضى الله تعالى عنه توفى سنة ٩٨ ثمان وتسعين على الأصح .

(٢) أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى رضى الله تعالى عنهم من سادات التابعين وأعلامهم وصالحيهم توفى سنة ٩٤ أربع وتسعين على الأصح .

(٣) أبو محمد القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهم من سادات التابعين وفضلائهم وأعلامهم توفى سنة ١٠١ مائة وواحد على أحد الأقوال .

(٤) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن القرشى المدنى سيد التابعين من الطراز الأول جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع رضى الله عنه توفى سنة ٩٤ أربع وتسعين على أحد الأقوال .

(٥) أبو أيوب ويقال أبو عبد الرحمن وأبو عبد الله سليمان بن يسار من أكابر التابعين وساداتهم وعلمائهم رضى الله تعالى عنهم توفى سنة ١٠٧ مائة وسبعة على الأصح .

(٦) خارجة بن زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنهم . التابعى الجليل القدر فضلا وعلما وعملا ووالده من أكابر الصحابة وصدورهم توفى سنة ٩٩ تسع وتسعين على الأصح .

(٧) أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن مغيرة القرشى المخزومى رضى الله تعالى عنه من سادات التابعين وفضلائهم سمى راهب قريش توفى سنة ٩٤ أربع وتسعين

وقد نظم بعضهم أسماءهم فقال :

ألا كل من لا يقتدى بأئمة فقسمته ضيزى عن الحق خارجه

فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجه

الأئمة الأربعة

ثم كان الأمر على ما قدمنا من فضل الله العظيم على عباده المؤمنين بأن جمعت جميع روايات الصحابة والتابعين من المتقدمة أسماؤهم حتى انتهت إلى أربعة من خيرة

هذه الأمة المكرمة المشهورين بالأربعة الأئمة المجتهدين الذين هم من خيرة عصور هذه الأمة المبينة في قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم «خير القرون» الحديث .

وقد أجمع علماء الأمة الإسلامية أنهم من مصداق قوله تعالى (وأولى الأمر) الذين ينتهى إليهم الاستنباط من الكتاب والسنة والإجماع والذين هم المرجع الأول والحجة الأولى في دين الله تعالى وقد أناروا الطريق فى ذلك لكل من كان على قدمهم من خيرة هذه الأمة ممن توجد فيه أهلية للقياس والاستنباط فى أصول الدين من فروعه وأحكامه وأجمع خيار الأمة بأنهم قد رووا جميع ما صدر عن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم - من الأقوال - والأفعال - والتقريرات - فى جميع الأمور الدينية الشرعية الفرعية وكل واحد منهم قد جمع ما وفقه الله إليه من بياناته الشريفة فى هذا الدين الحنيف السمح السهل للتخفيف على جميع كل من يرغب التقرب إلى الله ممن يقتدون بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وصار الأمر على ذلك وأطبق خيار علماء الأمة على ذلك وكان جميع ما وفقوا فيه بالحصر من بياناته الشريفة المتنوعة فى الحكم الواحد للتيسير كما قدمنا وليس هو خلافا بينهم ولا ما يسمى برائحة الخلاف . إذ الجميع على الحق الصريح الواضح والحق واحد لا خلاف فيه بين أهله وما الخلاف إلا قد نشأ عن المخالفين لأهل الإجماع ممن ينتسبون إلى الإسلام اسما ويظن كل جاهل بهم أنهم من أئمة المسلمين ولم يدر أنهم لأهل الحق مخالفون فقد شوهوا الإسلام والمسلمين بنسبتهم إليه وإليهم ؛ لأنه يظن كل جاهل بهم أنه يوجد خلاف بين المسلمين ومن إطباق جهله يقول هؤلاء الأئمة الأربعة يوجد بينهم الخلاف .

وكيف يتصور عاقل أنهم يكونون أئمة للمسلمين وأنهم على الحق وانتهت إليهم جميع أحكام الدين من أصل وفرع ويوجد الخلاف بينهم - وهل الحق فيه خلاف ؟ - وكيف يكون حقا والخلاف فيه ؟ - إذاً لا ثقة بحكم ولا بقائله ولا المنقول عنه ويكون قد التبس الحق بالباطل - والمحكم بالمتشابه — وهذا باطل ألبتة .

ومن يفهم أن كل دخيل على الإسلام والمسلمين ممن ينتسبون إليه وإليهم على حق فهو مخطىء ومن هؤلاء الذين أحدثوا الخلاف فى الفرعيات حتى شككوا البسطاء من المسلمين بنسبتهم هذه خصوصاً إذا كان لهم أشياع ومشايعون ممن على مبادئهم من الضالين مع العلم بأنهم لأهل الحق وأتباعه معروفون وأنهم فى نظرهم مخالفون هم

ومن تبعهم من الفرق المخالفة حيث قال سيد العالمين «من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه» الحديث يرويه أبي داود .

فمن مهام بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يوجد بين المسلمين أقوام يظن الناس فيهم أنهم على الحق والصواب وهم مخطئون مرقوا من الدين كما مرق السهم من الرمية فمثل هؤلاء شوشوا على البسطاء من المسلمين حتى ظن الكثير منهم فى تعدد معان احتمالات الآيات أو الأحاديث أنها خلاف فى الآراء جهلا منه ومنهم بأن هذه آراء مختلفة — ولكنها معانى مشتملة محتملة .

فقد عرفت أن كل من يفهم أن هذا يسمى خلافا فهو جاهل بأمور دينه قاصر عن إدراك أصوله وتبيينه ولعجزه وقصر همته عن إدراك ذلك يقول بخلاف الأئمة .

وما جاء أحد من بعدهم وادعى هذه الدعوى إلا كان ما ادعاه مندرجا تحت مادونوه واشتمل عليه جميع مااستنبطوه ولم يترك منهم الأوائل للأواخر شيئا بتوفيق الحق عز وجل، وأما ما يرى من ظاهر التغاير فى الحكم الواحد بين الأئمة فليس بخلاف ؛ لأن الغرض من بيانه الشريف تأدية الحكم على أى وجه يراد تيسيراً للعبد .

ولذا كان إجماع خيار الأمة على أن هؤلاء الأربعة هم الذين أحاطوا بالكتاب والسنة ولم يشذ منهم أحد فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا.

ولست أدرى من ينكر على هؤلاء الأئمة الكرام ومتابعيهم من خيرة أهل الأنام هل هو مخبول فى عقله أو مطعون فى نسبه وأصله لأنه ما تعلم العلم وتربى وترعرع إلا فى حضانتهم ونشأ على موائد كرمهم — ثم بعد أن بلغ نكص على عاقبيه وأنكر نعم ربه عليه وكان عاقا لوالديه .

فكيف ينكر متابعة من هم من خيرة خير القرون المجزوم لهم بالعدالة والاتقان عادلا عنهم إلا من وجدوا فى أفسد وأسوء قرون أهل الزمان من جاءوا بعد الألف أو من أسس لهم هذه المفاسد بعد الثمانمائة سنة — أفلا يعقلون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يسمعون ؟ صدق الله العظيم حيث قال (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) الآية

وهاهو قول ولى الدين بن خلدون وقف التقليد فى الأمصار عند الأئمة الأربعة — أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر من تشعب الاصطلاحات فى العلوم — ولما عاق عن الوصول

إلى رتبة الاجتهاد ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه

وصرحوا بالعجز والإعواز ورد الناس إلى تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة كل بما اختص بهمن المقلدين ـ وحظروا أن يتداول تقليد من سواهم لما فيه من التلاعب ـ ولم يبق إلا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب مقلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية ـ ولا محصول للفقه اليوم غير هذا ـ ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور التقليد وهم :

(١) أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى التابعى رضى الله تعالى عنه الإمام قدوة العلماء الأعلام وشيخ مشايخ الإسلام العالم الجليل القدر الشهير الذكر المتفق على جلالته وفضله وعلمه ترجمته واسعة أفردت بالتأليف مولده سنة ٨٠ وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ وله بعد المسند ـ المخارج ـ رواها أبو يوسف عنه وله آراء جمة فى جميع أضرب الدين أخذها عنه أصحابه ومتابعوه كأبى يوسف ـ ومحمد ـ وزفر بن الهذيل ـ وغيرهم ـ حتى دون عنه جميع أصول فقه مذهب الحنفية التى انتهت بالجامع الكبير الذى شرحه العلامة السرخسى وانتشر مذهبه بالكوفة والشام والعراق وما وراء النهرين والروم وغيرها وأتباعه كثيرون جدا من كل من وفقه الله بمتابعته .

(٢) مالك بن أنس بن مالك الأصبحى إمام دار الهجرة رضى الله تعالى عنه الوارث لحديث رسول الله الناشر فى أمته الأحكام والفصول العالم الذى انتشر علمه فى الأمصار واشتهر فضله فى الأقطار ضربت له أكباد الإبل وارتحل الناس إليه من كل فج كان مولده سنة ٩٣ وتوفى سنة ١٧٩ وله بعد الموطأ المدونة وله رسالة فى الوعظ ورسالة فى الرد على القدرية وكتاب فى النجوم وتفسير غريب القرآن وأخباره كثيرة ومن المدونة أسست أصول مذهب المالكية — وكان معاصرا للإمام أبى حنيفة وكلا منهم أخذ عن الآخر وكل شهد لصاحبه بالفضل والعلم وانتشر مذهبه بالحجاز والبصرة وما والاها وبإفريقيا والمغرب والأندلس ومصر، وأتباعه كثيرون جدا من كل من وفقه الله تعالى لمتابعة مذهبه .

(٣) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المطلبى رضى الله تعالى عنه الإمام البعيد الصيت والذكر الجليل القدر علامة الدنيا بلا نزاع الحافظ الحجة النظار المتفق على جلالته وفضله وعلمه وشهرته فى أقطار الأرض تغنى عن التعريف به وترجمته واسعة

أفردت بالتأليف. مولده بغزة سنة ١٥٠ وتوفى بمصر سنة ٢٠٤ وله بعد المسند كتاب الأم – وكتاب فى أحكام القرآن – والسنن واختلاف الحديث – وكتاب السبق والرمى الذى لم يسبقه إليه أحد – والأشربة – وفضائل قريش . وأدب القاضى – والمواريث ، وهو تلميذ الإمام مالك وروى عنه خلق كثيرون منهم الإمام أحمد بن حنبل قال الفضل بن زياد سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول هذا الذى ترون كله أو عامته من الشافعى وقال المزنى: سمعت الشافعى يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر .وله أتباع كثيرون جدا من كل من وفقهم الله تعالى لمتابعة مذهبه وانتشر مذهبه انتشار مذهب أبى حنيفة ، ومن دعائه : اللهم يالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير ، وهو مشهور بين العلماء بالإجابة وأصل فقه مذهبه الأم .

(٤) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل البغدادى رضى الله عنه الإمام الثقة الثبت الأمين الحافظ الحجة النظار المتفق على جلالته وورعه وعلمه كان من علية أئمة الحديث ترجمته عالية ذكرت مفردة ومضافة. ولد سنة ١٦٤ وتوفى ببغداد سنة ٢٤١ – وله غير المسند كتاب فى الناسخ والمنسوخ – وكتاب فى الرد على من ادعى التناقض فى القرآن – وكتاب فى التفسير – وكتاب فى التاريخ – وكتاب فى فضائل الصحابة وكتاب فى المناسك – وكتاب فى الزهد – وكتاب فى الصلاة ومنها تأسست أصول كتب مذهب الحنابلة – وهو تلميذ الشافعى وانتشر مذهبه انتشارا عظيما من بلاد الشام وغيرها . وقد روى عنه البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم .

فهؤلاء الأربعة الأعلام انتهت إليهم أئمة الدين الإسلامى ووقف التقليد عندهم فى سائر الأقطار والأمصار إلى هذا الوقت والأوان وقال فى كتاب حجة الله البالغة – اعلم أن الله تعالى نشأ بعد عصر الصحابة نشأ (أى جماعة) من حملة العلم . إنجازا لما وعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حيث قال « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له » فأخذوا عمن اجتمعوا معه منهم صفة آداب قضاء الحاجة – والوضوء ، والغسل . والصلاة . والحج . والنكاح . البيوع . وسائر مايعرض ويكثر وقوعه من مستلزمات الناس فى أمور دينهم ودنياهم . وسألوا عن المسائل واجتهدوا فى ذلك كله حتى صاروا كبراء قوم ووسد إليهم الأمر ونسجوا على منوال شيوخهم ولم يألوا فى تتبع الإيماءات والاقتضاءات فقضوا – وأفتوا – ورووا – وعلموا فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا .

وقد جمعهم بعض الأفاضل فى بيتين من الشعر . تاريخ ميلادهم ومماتهم وكم عاش كل فى الدنيا رضى الله تعالى عنهم فقال :

تاريخ نعمان يكن سيف سطا * ومالك فى قطع جوف ضبطا
والشافعى . حـين ببرند * وأحمد . بسبق . أمر جعد
فاحسب على ترتيب هذا الشعر * حياتهم فمماتهم فالعمر اهـ

هؤلاء الأئمة الأعلام الذين وفقهم الله تعالى بالقيام بشرح جميع ماجاء فى الكتاب والسنة فى معنى الإسلام وهو أحد الأمور التى سأل عنها جبريل عليه السلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى جمع من الصحابة على معنى أمور الدين وهو الإسلام والإيمان والإحسان

الثانى الإيمان وهو أصل معرفة التوحيد

ثم وفق الله تعالى أئمة فضلاء فى نفس عصر الصحابة والتابعين وتابع التابعين بالقيام بجمع بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يتعلق بمعنى الإيمان وهو معرفة الله تعالى بالقدر الممكن للبشر مما يجب له تعالى ويستحيل عليه عز وجل ، ويجوز فى حقه تبارك وتعالى وهو القدر الممكن للبشر . لا المعرفة التى بالكنه أى بالحقيقة وهى لا تمكن لبشر ولا لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وقولنا ولا لحضرته لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم أعرف العارفين بالله تعالى عقلا ونقلا وقد قدمنا ذلك بأجلى بيان .

وعلى هذا قام هؤلاء الأئمة الأفاضل بتدوين ما جاء فى الكتاب العزيز وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم من قوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) من واجب صفة الوجود له تعالى وما بعدها من الصفات الواجبات له تعالى واستحالة كل نقص منها سواء أكان من صفات الذات له جل وعلا أم صفات الأفعال إذ كل منها له أثره فى الخارج الذى يدل عليه وإشراق أسرار أسمائه سبحانه وتعالى (أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) الآية قال العارف :

له فى كل شىء آية * تدل على أنه الواحد

وخاصة أبان سبحانه وتعالى بأن له أسماء ذات وأسماء صفات وأسماء أفعال قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ومن هنا تعرف أن أسماء الذات لا تتناهى وأسماء الصفات وأسماء الأفعال كذلك . لأن ذات الحق عز وجل لا تتناهى فأسماؤه سبحانه

كذلك وكذا الصفات لا تتناهى فأسماؤها كذلك وأفعاله تبارك وتعالى لا تتناهى فكذلك أسماؤها لا تتناهى . وبينوا كل ما يستحيل عليه تبارك وتعالى من المثلية كما قال تعالى (ليس كمثله شيء) ومن الجسمية والمكان والزمان والحركة والصعود والنزول وقد أجاد منهم من ألف كتبا فى رد المتشابه إلى المحكم فى القرآن المجيد. وقد أجادوا فيما حصروه من أربع كلمات لا يسأل بها عن الحق سبحانه تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا وهى (أين ومتى وكيف وما .) لا يسأل بها إلا عن الحوادث وقد بينوا من كل ما أراد سبحانه من عباده لعباده فقال : إن سألت عن صفاته فقد قال لك: قل هو الله أحد وإن سألت عن فعله فقال لك فعال لما يريد وإن سألت عن ذاته فقال لك : ليس كمثله شيء وإن سألت عن كلامه فقال لك : إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون وبينوا لنا أن الجائز فى حقه سبحانه فعل كل ممكن أو تركه.

ولذا أيضا أبانوا لنا معرفة الرسل المرسلين لعباد الله تعالى فيما يجب لهم وما يجوز عليهم وما يستحيل عليهم ولا يكون رسولا إلا بعد أن يعطى من الله تعالى درجة النبوة والنبوة كانت للأمم الماضية كالولى فى هذه الأمة وكذلك أبانوا لنا السمعيات التى وردت فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة التى يجب الإيمان بها بالغيب كالموت وعوارضه وما يحصل بعده ومن سؤال القبر وبعده إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار إلى النفخة الأولى ثم النفخة الثانية ثم البعث ثم الحشر ثم الميزان ثم الصراط وهو جسر ممتد على جهنم كالكوبرى ثم الكوثر ثم الجنة والجنة وما ورد فيها والحور والولدان والنعيم المقيم مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المسلمين إن شاء الله هؤلاء هم أئمة علماء التوحيد الذين وفقهم الله تعالى بالقيام بهذا الأمر الثانى من أمور الدين الذى جاء فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة الذى أمر الله تعالى عباده أن يعتقدوه ويؤمنوا به ومن لم يؤمن به فهو كافر بصريح الكتاب والسنة وهذه فى الأمور الغيبية التى أمرنا الله اعتقاد وجودها وإن لم نرها كالرسل والكتب والملائكة والجن واليوم الآخر وهى الأمور التى قال فيها على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه (لو كشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا) .

وقد قدمنا كلامه حين سئل هل رأيت ربك ؟ فقال : كيف أعبد ربا لم أره ومن المعلوم أن الله لا يرى بالأبصار ولكن يرى بقوة الإيمان ونور اليقين .

وقد قاموا رضى الله تعالى عنهم بالرد على شبه المبطلين والضالين والمضللين فى كل ما أوردوه فى مثل ذات رب العالمين أو صفاته جل وعلا أو أفعاله وكذا الرسل عليهم الصلاة والسلام وفى أمور الآخرة كقولهم فى خالقهم سبحانه وتعالى وقولهم :

إن الصلاح واجب عليه زور ما عليه واجب

وقد جمع بعض الأفاضل ما كفرت به الفلاسفة فى قوله .

ثلاثة كفر الفلاسفة العدى ° إذ أنكروها وهى حق مثبتة

علم بجزئى حدوث عوالم وحشر الأجساد إذ هى ميتة

وكان عمدتهم بعد الكتاب والسنة الدليل العقلى الذى قدمه سبحانه وتعالى على الدليل النقلى كما قدمناه فى معرفة الله تبارك وتعالى حيث قال عز من قائل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « الأول الذى ليس قبله شىء والآخر الذى ليس بعده شىء والظاهر ليس فوقه شىء والباطن الذى ليس تحته شىء وهو بكل شىء عليم » فأخذ هؤلاء الأخبار من البيان الشريف دليلا عقليا وهو قولهم : الله موجود قبل كل موجود ومن كان موجودا قبل كل موجود كان منزها عن الحد والجهة . وفى كان منزها عن الحد والجهة كان غير متناه بالذات . وهكذا كان أمرهم رضى الله تبارك وتعالى عنهم ونفعنا بهم وبعلومهم أجمعين .

تدوين الأمر الثالث

من أمور الدين التى أمر سبحانه وتعالى عباده بها

ولما كان أمر الله عز وجل لعباده على لسان خاتم الأنبياء المرسلين بما يقربهم إليه ويدلهم عليه فدلهم على مقام الإحسان الذى هو الجامع لمقام الإسلام والإيمان أى لا يكون موصوفا به ولا يتحقق فيه إلا كل من كان مؤمنا عارفا لربه عاملا بأوامره مجتنبا لنواهيه فإن كل من تحقق فيه معنى الإيمان والإسلام وأخلص فيهما وجد نفسه فى مقام الإحسان الذى قال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهذا هو سنة الله تعالى فى خلقه من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا يسمون بالنبيين والربانيين والأحبار والقسيسين والرهبان . وفى الأمة المحمدية ليسمون بالصوفية وذلك لانطباق وصف أهل الإحسان عليهم وأول وصف هؤلاء الزهد فى الدنيا والإقلال منها بقدر الضرورة لا غير وهذه أولى مراتبه إذ كانوا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين هم المرجع الأعلى فى الاخلاص لله تعالى رب العالمين ومن على شاكلتهم من جعل الله تعالى الدنيا فى أيديهم لا فى قلوبهم .

وفى نفس العصر والزمن الذى وفق الله رجالا لتدوين الإيمان والإسلام وفق رجالا دونوا معنى الإحسان عن الصحابة عن سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم إذ حضرته الذى أسند الله تعالى إليه البيان والتبيين لعباده فقاموا به خير قيام فجزاهم الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير ما يجازى به عاملا عن عمله وكان تدوينهم لذلك كتدوين جميع ما تقدم من الإسلام والإيمان بمبادئه العشرة المجموعة فى قولهم :

إن مبادىء كل فن عشره * الحد والموضوع ثم الثمره الخ

فراجعه فى كتب الصوفية وواضعه الصوفية إن لم يكونوا هم فمن هم فقد جمعوا فيه أفعاله الشريفة من حيث التبتل إلى الله تعالى الذى أمر سبحانه عباده المخلصين على لسان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من قوله تعالى (إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) ومن قوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) ومن قوله تعالى (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن) الآيات وهكذا من كل ما كان يعمله صلى الله تعالى عليه وسلم من التقرب إلى الله تعالى من كل ما شرعه لعباده من أنواع طاعته مما بينه وحث العباد على العمل به مع قيامهم بالجهاد فى الأعداء والجهاد فى مستلزماتهم فى الحياة الدنيا كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم لسيدنا على ولسيدنا حنظلة رضى الله تعالى عنهما وقد سألاه فقال «ولكن ساعة وساعة» وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم «إن أعدل الصيام عند الله صيام أخى داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وكان لا يفر إذا لاقى» إذ الصوم أول دافع لأعظم حجاب من الحجب التسعة عشر التى على ابن آدم لاشتماله على الصبر الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن الكريم النيف وسبعين آية التى من جملتها قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وفى الحديث القدسى (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به) وهذا مع عمل العامل فى عمله لينال هذا الجزاء العظيم ويقطع نفسه إلى الصوم خاصة فقط بل يباشر كما خلق لأجله عملا بقوله تعالى (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) والهجر الجميل هو الذى لا أذية معه وهذه الآية هى أحد الصنع الجميل الذى ذكر الله عز وجل فى ثلاث مواضع فى كتابه العزيز هذه وفى قوله تعالى (فاصفح الصفح الجميل) وهو الذى لا عتاب فيه والصبر الجميل فى قوله تعالى (فصبر جميل) وهو الذى لا شكاية معه والصوفية خير قائمين بكل ذلك على ما بيناه فى موضعه .

ومع هذا فقد جمعوا كل ما كان من أعماله الشريفة المقربة للوصلة إلى الله تعالى من الصلاة والصوم وقيام الليل وقراءة القرآن والفكر والذكر على الدوام مراقبا لله تعالى فى جميع الأحوال والجد وجهاد النفس بالقيام فى الأسحار كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » والجهاد الأصغر هو الجهاد ضد الأعداء والجهاد الأكبر هو جهاد النفس وكبحها عن حظوظ شهواتها مع جده فى تحصيل نصيبه من الدنيا كما قال تعالى (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) الآية

فالصوفية هم خير من قام بتدوين معنى الإحسان الذى هو أحد أمور الدين الثلاثة التى بينها صلى الله تعالى عليه وسلم لجميع المسلمين بالإجابة الواضحة من الذى لا ينطق عن الهوى . فقد عرفت أن التابعين هم الذين نقلوا عن الصحابة الذين كانوا يتأسون فى الأعمال بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ويسمون بالتخلق بخلقه العظيم وقد قالت السيدة عائشة أم المؤمنين فى الحديث المشهور « كان خلقه القرآن » أى بجميع ما جاء فى القرآن فالصحابة أسوة لمن بعدهم . وقام بعد عهد الصحابة طوائف من علماء الأمة بتحقيق هذه العلوم وتدوينها خلفا عن سلف فى كل قرن على حسب ما تقتضى الحاجة فكلما كان قيام العلماء بواجبهم فى ذلك أكثر كان أمر الدين أقوى وسعادة المسلمين أوفر فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا

الفصل السابع

فى حكمة وجود الله تعالى الكتب السماوية لعباده المرسلين وللخلق أجمعين

غير خاف على كل عاقل أن الله تبارك وتعالى لم يرسل رسولا لإرشاد عباده ودعوتهم إلى معرفته تعالى والعمل بأوامره والاجتناب لنواهيه إلا بكتاب سماوى ليكون قانونا لبنى البشر المرسل إليهم من لدن آدم عليه السلام إلى سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم ـ

غير أن المشهور عن كتاب آدم (سفر آدم) عليه السلام . والسفر هو الكتاب والمشهور أن له صحفا قبل السفر .

ومن مقتضيات حكمة الله تعالى العالية أن جعل العمل بهذا الكتاب مدة حياة الرسول المنزل عليه هذا الكتاب وبعده بزمن حتى يظهر التغيير والتبديل من المحرفين له الذين يزعمون أنهم علماء وأنهم أتباع الرسل فى قليل من عرض الدنيا فيحرفون الكثير من الأحكام الشرعية لهم فيرسل الله تعالى رسولا آخر بكتاب آخر بأحكام شرعية أخرى قد تكون ناسخة لبعض الأحكام الشرعية السابقة تتناسب مع الحاضرين .

وهذا فى فروع الأحكام الشرعية وأما الأصول التى أساسها معرفة الله تعالى والإيمان به وبأنبيائه ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر . فهذا أصل من أصول دين الله تعالى الحق الواحد — الذى دأب عليه جميع الأنبياء والمرسلين ولم يحد أحد منهم عن هذا المبدإ والأصل .

إذ شرائع الله تعالى لعباده — أصلها واحد — ولم تحصل المخالفة والمفارقة من الأمم السابقة إلا بالخروج عن هؤلاء الصالحين من الأنبياء والمرسلين الداعين للخير ولتلك المبادىء التى قدمنا ذكرها لك آنفا من المخالفة .

واعلم أن الحق جل وعلا لم يرسل رسولا لاحقا لرسول سابق إلا وجميع ما فى الكتاب السابق من الأصول مندرج فى الكتاب اللاحق . وذلك ليكون الكتاب الجديد مشتملا على الأصول التى قدمنا والفروع العملية وقصص السابقين من مؤمنهم وكافرهم لعظة الحاضرين بأحوال الماضين — والأحكام الجديدة التى تتناسب مع المرسل إليهم فيكون بذلك كل كتاب سماوى مشتمل على ثلاثة أقسام — معرفة الله تعالى — والأحكام التى يتعاملون بها فيما بينهم وبين الله تعالى — والقصص . وهو عظة الحاضرين بأحوال الماضين لعلهم يتأسون بالخير ويجتنبون الشر .

والحكمة فى جعل الله تعالى كتبه على ثلاثة أقسام لما فيه من الإشارة إلى لفت الله تعالى عباده النظر فى مكوناته ؛ إذ الوجود كله عبارة عن عبد ورب والنسبة بينهما قسم ثالث — كعابد — ومعبود — والنسبة بينهما — العبودية — وخالق — ومخلوق — والنسبة بينهما — الخلق — ورازق — ومرزوق — والنسبة بينهما — الرزق — وهكذا فى كل مكون لله تعالى .

وقدمنا أن هذه الكتب وما فيها من الأحكام بعد مضى زمن الأنبياء والمرسلين كان يحصل فيها التحريف والتغيير والتبديل . ولم يثبت فيها كتاب واحد على أصله

حسب نزوله على رسوله . وبهذا التحريف كانوا يعارضون الأنبياء والمرسلين لكفرهم وعنادهم حيث أخبرنا جل وعلا في خير كتاب خالد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بما عملوه في كتبهم وتغييرهم للنعوت التي جاءت بها فقال عز من قائل (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) الآيات وقال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة) الآية وكان اليهود والنصارى أحيانا يجتمعون في الضلالة ويردون على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بزعمهم الفاسد وعقيدتهم الزائغة المضادة للأنبياء والمرسلين فأنزل الله عز وجل (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم) الآية وقال تعالى لما لعنت يهود خيبر نصارى نجران وأنكرت دينهم ولعنت نصارى نجران يهود خيبر وأنكرت دينهم في مجلس النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) الآية ولما كان قد دعاهم صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الله عز وجل حذرهم نقمته فقالوا : ما تخوفنا به يا محمد لا نصدقه ؟ نحن أبناء الله وأحباؤه فأنزل الله عز وجل (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم) الآية .

واعلم أن الله تبارك وتعالى لم يحفظ هذه الكتب السابقة من ذلك التغيير والتبديل إلا لحكمتين أولاهما – لإرسال الرسول ليبين للناس ما اختلفوا فيه من التغيير والتبديل في السابق ثانيهما – تجديد عهد الدعوة إلى الله تعالى لصدق وعده بذلك (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ومن إلزامه تعالى الحجة لعباده فكان يرسل الرسول بلسان قومه قال تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) الآية ومن جميل صنعه عز وجل لعباده أن جعل ذكر الرسول السابق وسيرته متصلة بمجيء الرسول اللاحق لتكون دائرة اتصال في البلاغ والإرشاد والدلالة على الله تعالى وتعرفهم به عز وجل ويكونوا على ذكر من تلك الحكمة الدائمة قال تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) .

فهكذا كانت سنة الله عز وجل فى عباده المرسلين للمؤمنين بهم وكان دينهم واحد وهو الإسلام على ما بيناه لك بالدليل وهذه حكمة إرسال الله تعالى الرسل مبينا فى هذا الكتاب العزيز إلى أن أراد سبحانه وتعالى إرسال آخر نبى رسول ـ بكتاب هو آخر الكتب السماوية جامع لجميع ما جاء فى جميع كتب الأنبياء والمرسلين . من سفر آدم عليه السلام إلى إنجيل عيسى عليه السلام وكان عددهم مائة وعشرين كتابا على ماقرره العلامة القرطبى وقيل مائة وأربعة عشر على ما قرره غيره من المفسرين بما فيها الصحف خمسون على شيث وثلاثون على إدريس وعشرون على إبراهيم ولاخلاف فى هذابين علماء المسلمين . واختلفوا فى عشرة فقيل أنزلت على آدم وقيل على موسى قبل التوراة والتوراة أيضا على موسى جمع جميع ما فى الكتب المتقدمة والزبور على داود والإنجيل على عيسى والفرقان على محمد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين . وقيل مائة وأربعة صحف شيث ستون وصحف إبراهيم ثلاثون وصحف موسى قبل التوراة عشرة والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وقيل خمسون على شيث وثلاثون على إدريس وثلاثون على إبراهيم وعشرة على موسى قبل التوراة . قال شارحه والحق عدم حصرهم فى عدد معين . والمجمع عليه أن معانى الكتب مجموعة فى القرآن ومعانى القرآن مجموعة فى الفاتحة لاشتمالها على الثلاثة معانى أيضاً . والثلاثة ترجع إلى مقصد واحد وهو توحيد الحق عز وجل . وانفراده بالوحدانية . وهى مجموعة فى البسملة ومعانى البسملة مجموعة فى بائها ـ زاد بعضهم ومعانى الباء فى نقطتها . أى فى ذلك إشارة إلى الوحدة ـ فهو الواحد الذى لا نظير له قاله الخطيب ـ

وما عرف ذلك كله إلا من بيان السنة المطهرة . على ما ورد فى ضبط عدد الأنبياء والمرسلين وهى روايات مختلفة .

ففى رواية ذكرها ابن حبان فى صحيحه أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . وأن الرسل ثلثمائة وثلاثة عشر — وفى حديث رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند ضعيف أن عدد الأنبياء مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفا . وأن الرسل ثلثمائة وثلاثة عشر أو خمسة عشر .

ومما ورد فى عددهم . فى حديث رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند ضعيف أن عدد الأنبياء مائتا ألف وأربعة وعشرون . وأن الرسل منهم . ثلثمائة وخمسة عشر . ومما ورد فى عددهم أيضا فى حديث رواه أبو يعلى فى مسنده بسند ضعيف أن عدد

الأنبياء ثمانية آلاف . ولا تنافى بين هذه الروايات على تقدير صحتها فى الواقع . لأن مفهوم المخالفة إنما يعتبر إذا لم يرد بما يدل على أنه غير مراد . وقد دلت رواية الزيادة على أن رواية النقص لا يعتبر مفهومها . ذكره العلامة ابن عبد الحق فى شرح البسملة. وقال البيضاوى فى تفسير قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) الآية . أنه قيل عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . والمذكور قصتهم أشخاص معدودة .

وذكر الإمام السبكى فى تفسير هذه الآية أن حديث أبى ذر الدال على كونهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . منهم رسل ثلثمائة وثلاثة عشر وفى تحفة ابن حجر وقد صح خبر أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . وخبر أن عدد الرسل . ثلثمائة وخمسة عشر . وأما الحديث المشتمل على عددهما ففى سنده ضعف . وفى آخر مختلط لكنه الخبر بتعدده فصار حسنا لغيره وهو حجة . ومما يقويه تكرر رواية أحمد له فى مسنده . وقد قرر أن ما فيه من الضعيف فى مرتبة الحسن هذا وقد قال صاحب مقاصد المقاصد . القرآن قاض بأن عددهم لا ينحصر فيما جاء به حديث أبى ذر لأنه خبر آحاد لا يعارض المتواتر. فإنه وإن اشتمل على جميع الشرائط لا يفيد إلا ظنا . فالأولى أن يوكل إلى علمه تبارك وتعالى وقد قال عز من قائل (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) الآية

ولا يخفى أن كل رسول من هؤلاء كان له كتاب جمع صحفه وصحف من قبله أو كتاب من كان قبله من الرسل وقد بين ذلك سبحانه وتعالى فى رده على المنكرين على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم .

فقال تعالى (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) الآية فدل على أنه ما من نبى ولا رسول إلا وكانت له صحف كما قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) الآية

ومن أقوى الدلائل على أن القرآن الكريم جمع ما فيها . قول العزيز الحكيم (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) وإن كان نفس لفظ قرآن كاف فى أنه هو الجامع لجميع ما فى الكتب السماوية السابقة إذ القرء معناه الجمع على ما بيناه لك فى معنى تسمية الله عز وجل له قرآنا ولا تنسى أن الله تعالى جعله بجميع لغات العرب قديما وحديثا وإليك ما اعترضوا به على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم

من قومهم إن فى القرآن ما ليس من كلام العرب كقوله تعالى (يستهزئون وقسورة وكبارا وعجاب) فقال لهم صلى الله تعالى عليه وسلم من هنا أكبر الناس سنا فقالوا فلان فدعوه فجاء وسلم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال اجلس فجلس قال له قم فقام ثم قال له اجلس فجلس قال له قم فقام فقال الرجل للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أتستهزىء بى يا ابن قسورة العرب وأنا رجل كبارا إن هذا لشىء عجاب وإليك ما ورد فى حادث عمر بن الخطاب: قال: سعيد بن المسيب: بينما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه على المنبر قال : يأيها الناس ، ما تقولون فى قول الله عز وجل : (أو يأخذهم على تخوف) فسكت الناس ، فقال شيخ من بنى هذيل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين ، التخوف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان ما فعل دينك ؟ قال : تخوفته ، أى تنقصته ، فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشعارهم ؟ قال قال شاعرنا أبو كبير الهذلى يصف ناقة تنقص السير سنامها بعد تمكه واكتنازه :

. تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن .

فقال عمر : يا أيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم وليس هذا فحسب بل فيه جميع لغات بنى البشر فى جميع مختلف طبقاتهم وأوطانهم وتعرب وكان ضمن استعمال العرب فى لغاتهم كما لا يخفى على من له أدنى اطلاع على كلام المفسرين والسنة . وكان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك محيط بجميع لغات العالم كما قال تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) وحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم مرسل لجميع بنى البشر كما قال عز وجل (وما أرسلناك إلا كافة للناس) فبالضرورة يكون عالما بجميع لهجاتهم وألفاظهم كما لا يخفى على من له أدنى اطلاع على السنة المطهرة ولولا الاطالة لجئتك بالكثير منها ما يرويه البخارى ومسلم وغيرهما (بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل علينا رجل ثائر الرأس نسمع دوى صوته ولا نفقه ما يقول فإذا هو سأل عن الصلاة والصوم والصدقة) وفى مرض بلال جاءه صلى الله تعالى عليه وسلم يزوره فخاطبه بلغة الحبشة فقال يا بلال كم بدردم قال نعم يا رسول الله فقال (أرنيها) فمسح على بطنه فبرئت فى الحال ومعنى كم يعنى بطنك وبدردم يعنى توجعك وهكذا من هذا القبيل كثير اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه

الباب السادس

فيما يتعلق بالأذان الشرعى

والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الأذان وسورة الكهف وغيرها والاستدلال على مشروعيتها فى الكتاب والسنة والإجماع

اعلم أنه لا يخفى على كل ذى عقل متعقل أن الله تعالى بين لعباده أن موجوداته على حالتين وهى عامة فى جميع خلقه وخاصة ببنى البشر الذين هم محل نظره الكريم من خلقه . ورحمة منه تعالى بهم لم يتركهم هملا بل أرسل لهم رسلا مبشرين ومنذرين بقوانين سماوية من اتبعهما وعمل بها كان من المهتدين ومن خالفهما ولم يعمل بها كان من المغضوب عليهم والضالين .

فوفق أهل الهداية للإيمان بهم والعمل على الطريق المستقيم قال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) . وهؤلاء يسمون بالمؤمنين المسلمين أتباع الرسل المكرمين .

ومن لم يؤمن بهم يسمون بالكافرين الضالين قال تعالى (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) ولما كان سبحانه هو الفعال لما يريد قال تعالى (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وعلى هذا فإذا رغب كل من النوعين على مقتضى تكوينه فإنه يعطيه رغبته ويمكنه منها قال تعالى (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) فكان ذلك لحكم عالية تقصر العقول البشرية عن إدراكها قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ولما كان الشأن ذلك جعل للهداية رسلا تترى على وتيرة واحدة فى العقيدة وإن اختلفت بعض الأحكام الشرعية عن بعض لمناسبة استطاعة قيام الناس بها وكذلك كان لمعارضى هؤلاء وأتباعهم رسلا للشر قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) وقال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) الآية ولما كان الدين الإسلامى هو دين الله الذى ارتضاه دينا لجميع الأنبياء والمرسلين ومن على قدمهم من الخلق أجمعين كما هو صريح الآيات فى

الكتاب العزيز قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه) الآية وقال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) وقال تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقال تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) الآيات وقد حفظ تعالى كتابه من التغيير والتبديل قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى برجال قاموا بجميع أضربه من كل نواحيه فكان مصداقا لقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

فوفق سبحانه وتعالى رجالا لذلك وهم عقلاء الأمة وخيارها علماؤها وهم من يسمون بأهل الإجماع قائمون على الحق فى كل عصر إلى يوم القيامة فكانوا من مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) فهم المعنيون فى قوله تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ومن المعلوم أن استنباطهم لم يكن إلا من الكتاب المحفوظ برعاية العزيز الحكيم خصوصا لعلمه تعالى أن الصراع مستمر بين أهل الحق وأهل الضلال إلى يوم القيامة فلفت أنظارهم إلى استحكام الأدلة القاطعة لحجج الضالين وإدحاض براهين المبطلين فى قوله تعالى (وإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

ولما كان شأن الضالين والخارجين عن إجماع أهل الحق المعارضين لهم فى الأقوال والأفعال فى جميع أحكام الدين وخاصة فى مستحدثات الزمان التى شاءها الله تعالى لعباده بأن لا تظهر إلا فى أزمنة مخصوصة على أيدى أناس مخصوصين وجعلها داخلة فى كتابه المبين الذى ضمنه تعالى (تبيان كل شىء) (تفصيل كل شىء) (مافرطنا فى الكتاب من شىء) فشأن معارضى الأنبياء المرسلين من المنافقين المندرجين فى المسلمين اسما مع أنهم يخالفونهم عقيدة فاتباعهم على قدمهم فى كل زمان بل هم من ضئضئهم فلا حظ لهم فيه إلا المخالفة وأصلها الحسد :

كل العداوة قد ترجى إزالتها   إلا عداوة من عاداك عن حسد

فتراهم يظهرون فى كل عصر بتلك المخالفة خصوصا إذا أتيحت لهم الفرص بذلك وهاهو قد تطاولت أعناق أقوام فى هذا الزمان فسد أهله وكادبهم يطفو الباطل على الحق واشرأبت أعناقهم إلى الضلال وأهله من تلك الفرق الضالة الخارجة عن إجماع

المسلمين خصوصا ممن ينسبون أنفسهم إلى العلم وأهله وهم لا يعرفون من العلم شيئا وقد جرئوا على التدخل فى أحكام الدين الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير — هؤلاء الذين لهم اتصالات بأعداء الذين يسعون بالتفرقة والتشقيق بين المسلمين بتشكيك ضعفاء الإيمان من البرآء من المؤمنين فى عقائدهم وما هم عليه من الفطرة . وليس هذا فحسب بل فى الأحكام الدينية الثابتة بالكتاب والسنة وأجمع عليها علماء المسلمين قديما وحديثا وليس لديهم من البرهان بتلك المخالفة ما يصدعون به لا عقلا ولا نقلا .

فهم على مبادىء من قال الله تعالى فيهم (وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) وقد اتصلوا بوزير الأوقاف لينفذ لهم تلك الأغراض الخاطئة

نهارا جهارا بحكم سلطة وظيفته شيئا فشيئا وساداتنا العلماء لم يرفعوا لذلك رأسا لإشراب قلوبهم حب الدنيا ولم ينطقوا ببنت شفة اللهم إلا همسا . أو فى نفوسهم . منكرا لا يرضيك . وقد قال لى أكبر كبار الهيئة اسكت يا شيخ عبدربه خلينا نأكل عيش (فهاهو الأذان الشرعى) . المطولة ألفاظه . بحكم الكتاب والسنة . يريدون فيه مخالفة الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين لهذه الأدلة الصريحة الواضحة ويقتضبونه وينكرون الصلاة على سيد العالمين بعد الأذان . وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة . وغيرها . كالاحتفال بالمولد . والمحمل . مما ينكره كل من قصر عقله عن إدراك أصولها من الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين عليها (لفت نظر)

وكلامنا الآن فى الأذان . والصلاة والسلام بعده . وسورة الكهف يوم الجمعة . وقد كتب الكثير من خيرة الأمة على صفحات الجرائد ينكرون بشاعة الأذان المقطوم حيث كان مجردا عن النغم مزعجة ألفاظه فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرا .

غير أنهم لم يتعرضوا لحكم الصلاة والسلام بعد الأذان . ولا سورة الكهف ولا أدلة استحداثها . ولا أدلة التطويل في الأذان . ولا إظهار أدلة إجماع المسلمين . ولا بيان جهل كل من قال لم تكن فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين . فنشكرهم على ذلك وإن كان هذا هو واجب علماء الأمة الذين أناطهم الحق عز وجل بالبيان للناس كالأمراء فى المسئولية عند الله تعالى .

فهذا رد عليهم قد بينا فيه كل ما جاء فى الكتاب العزيز بهذا الشأن والسنة المطهرة ووجه إجماع عقلاء المسلمين على ذلك فنسأل الله تعالى أن ينفع به أهل الحق وأن

يهدى به المنحرفين عن الحق إلى طريق مستقيم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فنقول هل دين الإسلام الدين الحق الصريح الواضح الذى أجمع على فروعه والاستنباط منه عقلاء الأمة الإسلامية سلفا وخلفا فيه خلاف ؟ أم الخلاف نشأ من المعارضين المخالفين لذلك وقد خرجوا به على هذا الاجماع الذى هو الحجة الثالثة فى الدين بصريح كلام رب العالمين.

على أن أهل الحق ماذكروا آراء المخالفين للاجماع فى كتب الدين الصريح إلا لمعرفتها والرد عليها وإبطال حجج المارقين الملحدين وما فائدة الأدلة والبراهين ومعرفتها إلا لدفع مثل هؤلاء المخالفين ؟

عجبا فكيف بعالم كبير المنصب يحابى هؤلاء المأجورين من أعداء الدين والمسلمين. ويسمى هذا الالحاد والخروج عن إجماع المسلمين بالمسائل الخلافية ؟

فكأنه يعتقد أن دينه الحق فيه خلاف ويعارض قول رب العالمين فى قوله تعالى. (ذلك الدين القيم) (ذلك الدين الحق) (فماذا بعد الحق إلا الضلال) .

يظن الغمر منهم أن ما هو مدون فى بطون الكتب من المذاهب الأربعة فى الأحكام الفرعية فيه خلاف . وما هو بخلاف وليس من الخلاف فى شىء بل هو بيان لنشر جميع ما أتى به سيد العالمين إذ أن الله تعالى أمره بذلك تخفيفا على عباده وتيسيرا للعاملين منهم فى جميع أحكام الدين . إذ أنهم لو أجمعوا على الأخذ فى البيان الحكم واحد فرعى عن سيد العالمين لما وصل لعباد الله تعالى هذا التسهيل والتيسير من جميع أنواع التنويع ولولا ذلك لعجز الواقف عند هذا الحكم الواحد الذى انعقد الإجماع عليه ولم يتحقق مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «لم أنس ولكن أنسى لأسن» والسنة جاءت ببيان كل ذلك وتواتر فيها التنويع فى الأحكام الفرعية كجبره صلى الله تعالى عليه وسلم للصلاة . وكوضع اليدين على الصدر من حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم. تارة . وفوق السرة . وأخرى . تحت السرة . وأحيانا على الجنب الأيسر . وأخرى. إرسالهما . وكرفع اليدين من القيام من الركوع وعند الهوى . فقد أتى الأئمة بكل ذلك وكل واحد منهم صح عنده الحديث بحالة غير الأخرى . وكالسجود للسهو والافتتاح للصلاة . فمن مثل هذه الأشياء المدونة فى كتب المذاهب الأربعة .

ظن الجهول بأصول دينه أن هذا خلاف وما هو بخلاف وإن لم يكن ذلك لما حصل إجماعهم على الأصول فى الدين ، فمن نظر إلى الانتقال فى البيان الشريف ظن أنه

منافر للأول فقال فى المذاهب خلاف ومن نظر إلى حقيقة الأمر وهو الأدب بين يدى الله تعالى أو إكمال الصورة وجد أن لا خلاف .

وإن تشأ فقل هو تحقيق لما عليه أهل الحق وأنهم قد قاموا بما أسند إليهم من تفصيل جميع بياناته صلى الله تعالى عليه وسلم من جزئيات الأحكام وبيان الحكمة فيها وعلى هذا لا يسمى خلافا بينهم . وإنما الخلاف لمن يخرج عنهم وعن إجماعهم وهم أهل الشقاق والتفريق بين جماعات المسلمين بذلك على ذلك قوله الشريف « جئت بالحنيفية السمحة »

هذا ما هو المسمى بالخلاف فى الكتاب العزيز قال تعالى (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا) الآية وقال تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين) الآية وقال تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) الآية وقال تعالى (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) الآية وقال تعالى (فلو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم) الآية وقال تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) الآية وقال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) الآية وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) الآية وقال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) الآية فالحمد لله الذى أبان لعباده أن جعل حالهم عنده تعالى على نوعين — أهل الحق — وأهل الضلالة — حيث قال تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) الآية .

وقد أبان جل شأنه فى ذلك حال المعتصمين به جل وعلا (أولئك هم المؤمنون حقا) الآية وقال تعالى فى شأن عباده المتفرقين من أنواع الفرق والضلالات الخارجين عن الجماعة المعتصمين بحبل الله جميعاً الغير متفرقين والزائغين عن طريق الحق المستقيم (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) الآية .

وإنا نرى ما فى هذه الطوائف والفرق الزائغة قولهم لبعض الناس لا تعتقد فى شىء من نبى أو ولى من الأموات أنهم يكرمونك فى شىء من قضاء الحاجات وأن الطلب منهم ودعاءهم ونداءهم شرك وإشراك لأنه دعاء لغير الله وهو مخالف للدين الصحيح لعلمه وعقيدته الزائغة أن هذا له عمل غير الله ويفرقون بينه وبين الله تعالى وقد جهلوا أنه مصدر من مصادر الحق عز وجل الذى يظهر به آياته فى هذه الحياة الدنيا .

مع أن بنى البشر المخلوقين على هذه المشاهدات المحجوبين بها جبلهم الله تعالى على الالتماس منها لجميع حاجاتهم مع اعتقادهم بأن الله تعالى هو الخالق لها والخالق عندها حاجاتهم وقد وجههم سبحانه وتعالى لذلك إذ يقول جل شأنه (واسألوا الله من فضله) الآية أى مما قربه إليكم وجعله بين أيديكم اهـ البيضاوى والعلماء من المؤمنين يعتقدون ذلك والعامة الأميون يعتقدون أنه طاهر مقرب حى أحيا من حياة الدنيا يصح منه وعنده الطلب مع اعتقادهم بأنه مخلوق لله تعالى والله يعطى عنده الإجابة تحقيقاً لقوله جل شأنه فى الحديث القدسى (ولئن سألنى لأعطينه) الحديث فهذه عقيدة المؤمنين وأما عقيدة الزائغين فإنهم يعتقدون أنه غير الله تعالى ويفرقون بينه وبين الله تعالى فى العمل ويعتقدون أن له عملا يؤديه عنده حتى ينهوا الناس عند ذلك ويوجهوهم إلى الله عز وجل فمن أمعن النظر وجدهم هم المشركون الزائغون عن الحق والحقيقة أو لم يفقهوا نداء سيدنا موسى عليه السلام للحجر وضربه إياه بالعصى ونسبته إليه الجرى بثوبه وهو يجرى خلفه ويقول « ثوبى ياحجر ثوبى ياحجر ثوبى ياحجر » الحديث. فعقيدة المؤمنين حق على ما جاء به صريح الكتاب العزيز والسنة المطهرة إذ يقولون ويعتقدون ويعلمون ويعملون بقوله تعالى (قل كل من عند الله) الآية .

وقد بسطنا الكلام ووفينا المقام فى غير هذا الموضع فراجعه .

فقد عرفت أن فرقة أهل الحق واحدة وأن فرقة أهل الضلال واحدة فهم على المقابلة والمماثلة ولا يضاد أهل الحق إلا أهل الضلال .

وأما ما هو مدون فى كتب أهل الحق من آراء أهل الضلال ممن نسبوا أنفسهم إلى الإسلام والمسلمين والعلم والعلماء ما ذاك إلا لمعرفة أسباب انشقاقهم عن جماعة المسلمين. وبيان اعتقاداتهم. وكيفية زيغهم. ووجهة نظرهم فى ذلك كله وأيضا لمعرفة كيف يضل بالقرآن الذى هو نور للمؤمنين وبالأخص الاحتراز عن آرائهم وأهمها معرفة الرد عليهم.

فليس بين أهل الحق خلاف وإنما الخلاف ناشىء عن من يشاققهم حسداً واستكباراً وحباً للظهور بالمخالفة والظهور بذكاء إبليس اللعين إذ هو الموحى إليهم تلك المخالفة والشقاق. ولذا لا يصدق كلامهم إلا كل من قصر عقله عن فهم أصول الدين وتكون فيه رائحة هؤلاء المتشيعين لتلك المبادىء الخاطئة وفيه الاستعداد الإلهى لذلك فنسأل الله العفو والعافية.

فرحماك يارب رحماك نسألك بحق عظمتك وبما أظهرته من آياتك فى أرضك وسمائك وبحق من أرشدنا لذلك ودلنا على معرفتك وهداك أن تحول حالنا وحال المسلمين

عامة والعلماء وأولى الأمر خاصة إلى ما تحبه وترضاه حتى يصفو الدين من شبهاتهم إنك على كل شىء قدير .

وقد قررنا كثيرا أن الذاهب إلى المخلوق فإنما يذهب لنعمة الله تعالى التى أظهرها فيه دون غيره من خلقه تبارك وتعالى فأنت ترى أن الذاهب إلى ذى الصوت الحسن ذاهب إلى المخلوق أم إلى نعمة الله تعالى التى أنعم بها عليه دون غيره فكذلك الذاهب إلى العبد الصالح وإلى العالم وإلى الولى وإلى غيرهم فهو كذلك وهؤلاء الذين طمس الله تعالى بصائرهم غفلوا عن نعمة الله تعالى فى عباده ولم ينظروا إلى قوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) الآية ولا إلى قوله عز وجل (واسألوا الله من فضله) على ما قرره العلامة البيضاوى هل فضله الذى عنده أو مما قربه إليكم وجعله بين أيديكم فنسأل الله تعالى الهداية والتوفيق لما يرضيه إنه خير مسؤل وأكرم مأمول .

الفصل الأول

وفيه حصر شبه الضالين فى الأذان والصلاة والسلام بعده وسورة الكهف

جرت عادتنا فى جميع مؤلفاتنا أن نبدأ بالنفى أولا والاستهجان بذكره ثم نأتى بالمثبت الصحيح اقتداء بالحق سبحانه وتعالى حيث قال جل ذكره (فاعلم أنه لا إله إلا الله) وكذا فى جميع أوامره تعالى لعباده وكان هذا ديدن الأفاضل السادة المتقين السابقين يقدمون النفى أولا

الأذان المقتضب يسمونه بالشرعى

يدعون أن الأذان المقتضب الذى لم يرد لا فى الكتاب العزيز ولا فى السنة المطهرة هو الشرعى والحق أنه ليس من الشرع فى شىء والشرع برىء منه وعنه كما سيتضح لك

دليلهم عليه

أولا: — يقولون الأذان . حديث والتلحين بالترنيم فى ألفاظ الحديث بالنغمات حرام.

ثانيا: — الأذان مجزوم يعنون به المقطوم المقتضب. يعنى لا مد ولا يطول فيه فى نظرهم القاصر الذى لم يصل إلى وجه من وجوه إجماع علماء المسلمين على جواز التطويل بالترنيم فيه.

ثالثا : — قولهم هذا هو أذان بلال الذى كان يلقيه بين يدى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم والصحابة.

ما أفظع هذا القول وما أقبحه هل رأى أحد منهم ذلك أو رأى من رأى ذلك أوأخذ له شريطا مسجلا فنقول لهم: الأذان حكم شرعى من أحكام الدين جاء بيانه فى كتاب رب العالمين وشرح هيئته وكيفيته سيد المرسلين ودأب على هذا خيار علماء المسلمين فى كل عصر وجيل من أهل الحق المستقيم.

والصلاة والسلام بعد الأذان

يقولون: إن الصلاة والسلام بعد الأذان لم تكن فى زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم . بل إنها محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة الخ

ما أجهلهم بأحكام دينهم وأوضاعها وأسبابها وأساليبها وتطوراتها فى كل محدث لقد جهلوا أن من البدع ما هو واجب على ما ستضح لك فى محو شبههم الواهية وقطع أدلتهم الفاسدة.

وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة

يقولون : إن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة من البدع التى لم تكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين . وأن قارئها يشوش على المصلين . وينكرون تعيين قراءة هذه السورة بالذات ويقولون: القرآن كله واحد وكيف تقرأ هذه السورة يوم الجمعة دون غيرها بل من شاء أن يقرأ فليقرأ من القرآن ما يشاء .

ما أجهلهم ببيان سنة نبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم على ما سنوضحه إن شاء الله تعالى، ثم إنكارهم ومعارضتهم الحق الصريح الواضح ليس قاصرا على الأذان والصلاة على رسول الله بعده وسورة الكهف يوم الجمعة بل ضلوا أولا فى معرفة خالقهم جل وعلا. وفى معرفة الحوادث والمحدثات له تعالى حتى ضلوا فى معرفة أول محدث له تعالى وهو مثبت فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة وما هو إلا أن شأنهم المخالفة والمعارضة لجميع ما أجمع عليه علماء الإسلام قديما وحديثا : كإنكارهم تجويف المحراب فى الحائط الذى جاء صريحا فى الكتاب العزيز فى أربعة مواضع وهو أخص مكان للإمام وهذا قد فعله الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وأجمع على ذلك علماء المسلمين

وإنكارهم تطويل المنبر على ثلاث درجات الذى فعله الصحابة من سنة سيد العالمين،

وأجمع عليه علماء المسلمين : وإنكارهم المنارة . وهي قد فعلها الصحابة من عهد سيد العالمين وإنكارهم الذكر أمام الجنائز . وهو صريح القرآن والسنة المطهرة وأجمع عليه علماء المسلمين وإنكارهم لقبور الصالحين في المساجد . وقد جاء القرآن العزيز به. وقد بنى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مسجده فوق قبور المشركين . وجهلهم بالحديث الصحيح المروى عند أبي داود « ما بين زمزم والحطيم تسعون نبيا موتى » ولما أراد ابن سعود في هذه الأيام أن يخرج ماء زمزم إلى خارج الحرم حفر فوجد قبر نبي عند الحفر وأراد أن يدلي بالمواسير من فم البئر وكل ما أوصلوها إلى الماء يشغلون الماكينة عليها فلم تخرج شيئا فيرجعون إلى الماسورة والماء فيجدون بينها وبين الماء مترا فيوصلونها بأخرى وهكذا حتى عجزوا وعدلوا . وإنكارهم الأذان الأول يوم الجمعة على المنارة وإنكارهم الحديث المناسب عقب الخطبة يوم الجمعة وإنكارهم زخرفة المساجد وهم يحبونها في بيوتهم وإنكارهم المحمل ، والموالد : والأذكار والتمايل فيها والنشيد لها : والزينات . والذبح لأصحاب الموالد والنذور . والصور والتماثيل من الحلوى . وإنكارهم دعاء نصف شعبان . وضم الصلاة بشخص واحد مجهر لإسماع الحاضرين والتبليغ خلف الإمام . والمبادرة قبل الفجر . ويوم الجمعة . والصلاة والسلام على رسول الله إلا بالابراهيمية . ودلائل الخيرات . والعتاقات . وحرما . وهنيئا . وتقبل الله ، ومن ماء زمزم . وشفيتم . وإنكارهم قراءة القرآن في المآتم . وعلى القبور وعدم وصول ثواب القرآن للميت . وعدم التداوي بالقرآن واعتقادهم في الميت بأنه عدم ولا يحس كعقيدة اليهود والنصارى . وقولهم إن صلاة التراويح ثمان ركعات وهل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلى تراويح؟

وقد دعمنا بتوفيق الله الرد عليهم في كل مسألة خالفوا فيها إجماع المسلمين بالآيات والأحاديث ولم نترك فيها قولة لقائل مع تبيين شبههم الواهية وأدلتهم الخاوية .

ومن العجب العجاب أنك إذا جئتهم بالآية التي أرشد الله فيها عباده في الأزمنة المستقبلة للعمل بها فيما عند مستحدثات الزمان يقولون إنها لم تكن في زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يفعلها الصحابة.

وإذا جئتهم بما فعله الصحابة يقولون لم يفعله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم .

وإذا جئتهم بما فعله الخلفاء الراشدون كفعل سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه من إخراجه المؤذن فوق المسجد الذي استنبطه من فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

وإخراجه صلى الله تعالى عليه وسلم المؤذن على الباب حيث كان سقف المسجد وحيطانه التي هي من جزوع النخل لا تتحمل المؤذن عليها ولما جدده عمر رضى الله تعالى عنه بالبناء والاتساع ثم جدده عثمان أيضا بالبناء والاتساع وصار يتحمل المؤذن وغيره وكان قد كثر المسلمون أضعاف أضعاف ما كانوا صعد المؤذن فوقه ليعلم النائي والداني.

وقد بنى معاوية رضى الله تعالى عنهم أجمعين المنارة على هذا المبدأ في الشام ومصر في مسجد عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم.

في مثل هذا الحكم والبيان يقولون إذا اجتمعت معنا سنة النبي والصحابي نعمل بسنة النبي لا بسنة الصحابي . وغاب عن أذهانهم أن الصحابي هو المبين لسنة النبي ولذا قال « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين » الحديث . وهل الصحابي جاء بالسنة من تلقاء نفسه مع أن رسول الله يأمرنا باتباعهم ما أضعف عقولهم وما أحط تفكيرهم وقصر أطلاعهم.

مصدر الأذان المقتضب

لا يخفى على كل عاقل أن مبدأ هذا الأذان الشنيع المقتضب صادر عن مبدإ المخالفين لإجماع المسلمين الذين لا شأن لهم إلا مخالفة ما أجمع عليه علماء المسلمين من عقائد وأحكام وتشريعات وبيانات سيد المرسلين حسدا واستكبارا وجموحا وإعراضا عن الحق ولذا كانوا على مبدإ المخالف المنتقد المعترض الأول من قديم في عصر حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بانكارهم على أذان المسلمين (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) ولذا كان أسلافهم ومن هم على شاكلتهم يريدون الضرر بالمسلمين والدس والكيد لهم بالتفرقة والتشقيق حتى أنزل الله في أصل أعمالهم الآية قوله تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) ثم استمر الأمر مكتوبا بين جوانحهم ولم يتبع إلا ممن كان على هذه المخالفات الضارة ولكنهم لم يستطيعوا الظهور به لوجود أهل الحق البارزين وقد استمر الأمر على ذلك إلى أن ظهر ابن تيمية الذي لم يوجهه الله تعالى إلا لحب الاستطلاع على كتب المخالفين ويظهر بها غرائب في نظر الضالين من زخارف الأقوال التي لا يستحسنها إلا كل من كان على قدم إبليس اللعين ومنها أخذ يظهر بهذه المخالفة وكلما قصد وجهه وظهر بأمر مخالف زجروه في السجون

ثم يظهر أتباعه أنه تاب فيخرج ويشترط عليه أن لا يقيم فى تلك البلد ثم يرحل إلى أخرى فيظهر أمرا آخر بالمخالفة فيودع السجون وهكذا حتى قضى حياته سجينا ومات فى السجن وكان معه ابن قيم الجوزية الذى لم يخرج من السجن إلا بعد موت شيخه وأظهر توبته . قال فى طبقات الحنابلة . اجتمع ابن قيم الجوزية . بالعماد بن كثير. فقال ابن قيم الجوزية : لابن كثير تكرهنى لأنى أشعرى . فقال ابن كثير : لو كنت كلك شعرا ما صدقك أحد من المسلمين أنك أشعرى لأنك تلميذ ابن تيمية . اه منه .

وكان قد نقل عن ابن تيمية الكثيرون من تلاميذ هذه الآراء المنكرة والمخالفات الفاسدة الضالة المضلة ولازالت تتوارث عنهم إلى أن صدع بها ابن عبد الوهاب بالشام فطورد ورحل بها إلى جهة ظهور قرن الشيطان إلى أن كان من آخر أمره ما هو مدون فى التاريخ

ثم إن أول من صدع به فى مصر قريبا جمعية الشيخ محمود خطاب السبكى التى هى أول جمعية بمصر بعد الماسونية على شاكلة جمعية العروة الوثقى ثم نحا نحوه الشيخ محمد حامد الفقى الداعية للوهابية فى مصر . ثم نحى نحوهم جمعية إخوان المسلمين فى مصر

ولما لم يجدوا حاكما شرعيا يضرب على أيديهم كالأول السابقين نشروا الفساد وعمموه بين ضعفاء الإيمان ويغررونهم بحملهم لشهادة عالية من الأزهر فيظنوا العامة أنهم علماء خصوصا من يظهر فيهم بتملقه ونفاقه بالمناصب العالية فى الدولة . فيكون هذا المركز الذى هو سبب فى إلقائه فى جهنم فوق تضليلاته . طامة كبرى على العلم والعلماء والمسلمين . والله يعلم أن العلم برىء منهم وعنهم إذ العالم العامل من عقل ودرى قال تعالى (وما يعقلها إلا العالمون) وعنه عليه الصلاة والسلام أين تلى هذه الآية فقال (العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه)

الفصل الثانى

فى بيان معنى الأذان لغة وشرعا على ما قرره أفاضل الأئمة

قال العلامة ابن حجر فى شرحه فتح البارى على البخارى جزء ثانى ص ٥١ طبع ميرى فى كتاب — الأذان :

الأذان لغة: الإعلام . قال الله تعالى (وأذان من الله ورسوله) واشتقاقه من الأذن بفتحتين وهو الاستماع . وشرعا ، الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة —

قال القرطبي وغيره: الأذان على قلة ألفاظه مشتمل على مسائل العقيدة لأنه بدأ بالأكبرية وهي تتضمن وجود الله تعالى وكماله ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشرك ثم باثبات الرسالة لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ثم دعى إلى الطاعة المخصوصة عقب الشهادة بالرسالة لأنها لا تعرف إلا من جهة الرسول ثم دعى إلى الفلاح وهو البقاء الدائم وفيه الإشارة إلى المعاد ، ثم أعاد ما أعاد توكيدا ، ويحصل من الأذان الإعلام بدخول الوقت والدعاء إلى الجماعة وإظهار شعائر الإسلام ، والحكمة في اختيار القول له دون الفعل سهولة القول وتيسره لكل أحد في كل زمان ومكان ، واختلف أيها أفضل ؟ الأذان أو الإقامة، والإمامة إن علم من نفسه القيام بحقوق الإمامة فهي أفضل وإلا فالأذان . وفي كلام الشافعي ما يومئ إليه ، واختلف أيضا في الجمع بينهما ، فقيل: يكره ، وفي البيهقي من حديث جابر مرفوعا النهي عن ذلك لكن سنده ضعيف ، وصح عن عمر رضي الله عنه لو أطيق الأذان مع الخلافة لأذنت . رواه سعيد بن منصور وغيره ، وقيل : هو خلاف الأولى ، وقيل : يستحب وصححه النووي ، وقال في صفحة ٥٢ منه، والحكمة في إعلام الناس به على غير لسانه صلى الله تعالى عليه وسلم التنويه بقدره والرفع لذكره بلسان غيره ليكون أقوى لأمره وأفخم لشأنه .

أول ألفاظ الأذان في بدء الاسلام

قال العلامة ابن حجر في شرحه على البخاري جزء ٢ صـ ٥٣ منه . إن مبدأ الأذان لما كان عن مشورة أوقعها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه حتى استقر برؤيا بعضهم فأقره . كان ذلك بالمندوبات أشبه . ثم لما واظب على تقريره ولم ينقل أنه تركه ولا أمر بتركه ولا رخص في تركه . كان ذلك بالواجبات أشبه اهـ منه

ثم فرضت الجمعة والأذان لها بمكة ولم تقم بها لحكمة . إما لفقد العدد . أو لأن شعارها الإظهار وكان صلى الله تعالى عليه وسلم بها مستخفيا . فلعلها فرضت ثم نزلت الآية كالوضوء للصلاة . فرض أولا بمكة مع الصلاة ونزلت آيته بالمدينة اهـ

وقال في صفحة ٥٥ منه ، — فائدة — كان اللفظ الذي ينادي به بلال قبل نزول هذه الألفاظ للصلاة . قوله : الصلاة جامعة . أخرجه ابن سعد في الطبقات من مراسيل سعيد بن المسيب . ولا يخفى عليك أن المراسيل أقوى إسنادا ، وظن بعضهم أن بلالا حينئذ إنما أمر بالأذان المعهود فذكر مناسبة اختصاص بلال بذلك دون غيره . لكونه

لما عذب ليرجع عن الاسلام فيقول : أحد . أحد . فجوزى بولاية الأذان المشتملة على التوحيد فى ابتدائه وانتهائه . وهى مناسبة حسنة . باختصاص بلال بالأذان اهـ منه

الفصل الثالث

فيما جاء فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة من ألفاظ الأذان وبدء التشريع له

اعلم وفقنى الله تعالى وإياك أن لفظ الأذان والنداء جاء فى القرآن المجيد فى ستة مواضع. وكلها بمعنى الندا أو الإعلام . فى سورة الجمعة قال تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة). سورة الحج (وأذن فى الناس بالحج) . سورة يوسف (فأذن مؤذن) سورة التوبة (وأذان من الله ورسوله) : سورة الأعراف (فأذن مؤذن بينهم) سورة المائدة (وإذا ناديتم إلى الصلاة) .

فهذه هى المواضع التى ذكر الحق عزوجل فيها الأذان فى كتابه العزيز وبينه لعباده أنه بمعنى النداء خصوصا لما افتتحه تعالى فى المواضع كلها بالنداء واختتمه بالنداء ومن المقرر عقلا ونقلا أن النداء لاحد له . خصوصا لما رغب فى التطويل به الشرع الشريف . صلى الله تعالى عليه وسلم ، أخرج البخارى وغيره من أصحاب الصحاح والمسانيد عن ابن عمر رضى الله عنهما كان يقول : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها فتكلموا يوما فى ذلك فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى وقال بعضهم بل بوقا مثل قرن اليهود فقال عمر أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يا بلال قم ناد بالصلاة ، وأخرج ابن خزيمة وابن حبان وأبو داود أن عبدالله بن زيد بن عبد ربه رأى شخصا قال له أتريد أن أسمعك أذان المسلمين للصلاة؟ قال نعم فعلى ربوة ثم نادى بالأذان ثم قال هل سمعت؟ قلت نعم قال قم فناد مثل ما سمعت فعلوت الربوة وناديت به ثم استيقظت فجئت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبرته فقال قم إلى بلال وألق عليه ما رأيت فإنه أندى منك صوتا وترجم له أبو داود فى بدء الأذان

وأخرج عبد الرزاق بن عمر وأبو داود فى مراسيله أن عمر رأى الأذان مثل ما رأى عبد الله بن زيد فكتمه فلما سمع الصوت خرج يجر رداءه حتى أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رأيت مثل الذى رأى فقال له عليه الصلاة والسلام سبقك الوحى وكان قد أوحى إليه صلى الله عليه وسلم قبل الجمع لأن الصحابة لما تفرقوا مهتدين بأمر

الإعلام للصلاة فقد رأى نحو العشرين صحابيا الأذان وقد صح ذلك على ما ذكره ابن حجر في شرحه على ما ذكره في البخاري اهـ منه.

ألفاظ الأذان

أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال أمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة.

قال العلامة ابن حجر في شرحه على البخاري ثبت لفظ هذه الترجمة في حديث لابن عمر مرفوعا أخرجه أبو داود في مسنده فقال فيه مثنى مثنى وهو عند أبي داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره من هذا الوجه لكن بلفظ مرتين مرتين وقال أي يأتي بألفاظه شفعا قال الزين بن المنير . وحديث الأذان بأنه شفع يفسره قوله مثنى مثنى أي مرتين مرتين وذلك يقتضي أن تستوي جميع ألفاظه في ذلك ولكن لم يختلف في أن كلمة التوحيد التي في آخره مفردة وأما من قال بالتربيع في الشهادتين فالأصح في صورته أن يشهد بالوحدانية ثنتين ثم بالرسالة ثنتين ثم يرجع فيشهد كذلك فهو وإن كان في العدد مربعا فهو في الصورة مثنى ، والله أعلم .

وقال هذا الحديث حجة على من زعم أن الإقامة مثنى مثل الأذان وأجاب بعض الحنفية بدعوى النسخ وأن إفراد الإقامة كان أولا ثم نسخ بحديث أبي محذورة وعورض بأن في بعض طرق حديث أبي محذورة المحسنة التربيع والترجيع فكان يلزمهم أن يقولوا به وقال : الحكمة في تثنية الأذان وإفراد الإقامة أن الأذان لإعلام الغائبين فيكرر ليكون أوصل إليهم بخلاف الإقامة فإنها للحاضرين وأن الإعلام المختص بالأذان لا يشاركه فيه غيره من الجهر بالتكبير والتلاوة مثلا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن زيد ابن عبد ربه ألقه على بلال فإنه أندى صوتا منك أي أقعد في المد والإطالة والإسماع ليعم الصوت ويطول أمد التأذين فيكثر الجمع اهـ منه جـ ٢ صـ ٥٨ بأسفلها

هذا ما عليه أهل التحقيق من التطويل المأخوذ من الكتاب والسنة على ما علمت.

التطويل

وهو رفع الصوت بالنداء

أخذ هذا من بيان الحق عز وجل وبيان سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم

الذى أسند إليه التبيين فى الحديث المروى عند البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت فى غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له به يوم القيامة قال أبو سعيد سمعته من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

ورواه ابن خزيمة وغيره « فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شىء إلا ويشهد له به يوم القيامة »

هذا هو أصل الحكم الشرعى فى دين الله تعالى للمسلمين فى الأذان — فأين قولهم فى الأذان المقتضب أنه شرعى هل له أية صلة تمت به إلى الشرع . فيا أخى إذا كان تعليم الله تعالى لعباده للأذان هكذا وبيان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم هو كذا . فمن أين لهم الأذان المقتضب وفى أى شرع وفى أى دين إلا دين المخالفة لاجماع المسلمين والنداء فى نظر ذوى العقول السليمة بعد تبيين الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه لا حد له فى التطويل لأن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم قد رغب المؤذن فى ذلك وبشره بذكر ما يترتب على التطويل بمد صوته ليوسع دائرة الشهداء له يوم القيامة بذلك فقال « فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا ويشهد له به يوم القيامة » الحديث

وبالنظر السليم هل يعد مؤذنا مناديا معلما معلنا من يقول : الله أكبر — أو من يقول : اللـــــــــه أكبر . أو من يقول : يا محمد . أو من يقول : يا محمد . فلا شك أن المطول هو الموافق لبيان السنة والكتاب ولذا أجمع عليه عقلاء الأمة الإسلامية سلفا وخلفا جيلا بعد جيل خصوصا لما استنبطوه من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لعبد الله بن زيد الذى سبق الصحابة فى تبليغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رؤياه (قم إلى بلال وألق عليه ما رأيت فإنه أندى منك صوتا) ففهموا أن الأذان لا يكون إلا من ندى الصوت المطرب المترنم الذى هو شأن أنداء الأصوات لأخذهم بعاطفة القلوب ومشاعر الإدراك إذ من المقرر عقلا ونقلا أن ندى الصوت لا يسمعه إلا أن يترنم ويتطرب ويتوسع ليجلب ويستميل قلوب السامعين له خصوصا فيما إذا كان الشرع أباح ذلك وبين أنه . لا حد له . وإلا فلا معنى لاختياره صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا من بين جهورى الصوت واختصاصه بأنداء الأصوات كبلال ؟ وابن أم مكتوم ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو محذورة الذى اختاره صلى الله تعالى عليه وسلم حين عاب على

بلال فى تقصيره الأذان من بين عشرين صحابيا .

فلست أدرى من أين لهؤلاء المخالفين هذه الطريقة الخبيثة المقتضبة المقطومة المزعجة التى لم يعرف لها فى أصل الدين دليل كما علمت — إلا من طريق المخالفين الذين لا شأن لهم إلا مخالفة الاجماع .

ومن أخبث الأمور وأنكر الألفاظ أنهم يسمونه بالأذان الشرعى ومن إطباقهم فى الجهالة لم يعرف عنه من الشرع شىء إلا عن هؤلاء المخالفين الخارجين عن إجماع المسلمين من زمن قريب ولم ينتشر إلا لكثرة فساد أهل الزمان واستعداد نفوسهم لقبول الشر وإعراضهم عن الخير وأهله . قال تعالى : (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) .

الفصل الرابع

فى الرد عليهم فى قولهم إن الأذان حديث واللحن فى الحديث بالنغمات والترنيم حرام وفى قولهم إن الأذان مجزوم

نقول: إن حديث الأذان هو حديث تعليم للأمة الإسلامية لأصل تشريع هذا الحكم الدينى فلا بد وأن يكون له أصل فى الكتاب والسنة وهو المعروف بالإعلام بلفظ مخصوص فى وقت مخصوص كما قدمنا وحيث كان إعلاما لا يقع فى العقل السليم إلا موسعا فيه على ما استفيد من بيان الحق عز وجل له بالنداء : وبيان سيد العالمين أيضا: بالنداء . والنداء لا حد له .

فهو حديث لبيان الحكم وأصل التشريع . ولا يخفى أن استعمال ألفاظه بالنداء المشروع فقد رفعه وأوصله المؤذن إلى حد النداء والإعلام لا حديث تلاوة وهذا وجه تقرير فقهاء المذاهب الأربعة وإجماعهم على جوازه على ما سيتضح لك . وأما هؤلاء الخارجون عن إجماع المسلمين فقد اتخذوا طريقة المخالفة عادة لهم ويدعون فى مثل هذا الأذان المقطوم أنه الشرعى . ويقولون : إنه حديث وهم لم يتفقوا مع إجماع المسلمين فى شىء منه . لأنهم لا يقرأونه تلاوة كالكتاب والسنة . حتى يتفق مع دعواهم بأنه حديث . والحديث سنة يتلى كالقرآن لا تغير فى ألفاظه على قاعدة القراء وفنهم . ومن المعلوم أن القرآن يتغنى به كما جاء فى السنة فما المانع من أن يتغنى بالأذان الذى جاء للإعلام؟

والنداء وهم لا يفقهون أنه نداء جاء لتعليمهم كيفية النداء للصلاة والنداء لا حد له فتراهم مقصرين عن فهم إجماع المسلمين وعن ما يفهم من بيان سنة سيد المرسلين وهذا شأن الضالين لا يهتدون إلى الحق ولا إلى طريق مستقيم .

ومن أعجب ما تسمع منهم وعنهم أنهم يقولون إن هذا أى المقطوم هو أذان بلال والسلف هل رأى أحد منهم ذلك أو سمع به كلا — وإنما الأذان حكم شرعي يعرف أصله من الكتاب والسنة كباقي الأحكام الشرعية . .

وقولهم إن اللحن فى الحديث بالترنيم والتغيير فى ألفاظ الحديث بالنغمات حرام نقول لهم : إن الترنيم والتطريب هو سنة عن سيد العالمين وقد جهل أصله الضالون وفطن لمصدرها ومعناها من نور الله تعالى بصائرهم من عقلاء المسلمين . وما ذاك إلا أخذا من اختيار حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم المؤذنين من ذوى الأصوات الحسنة وبالحرى أن يكون شأنهم وطبيعتهم الترنيم والتطريب . وإلا لو كان بمجرد حكاية الألفاظ كما فهمه المخالف لكان أولى بالنداء به أول مخبر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برؤياه الأذان وهو عبد الله بن زيد . ولا يخفى أن إعجاب حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بمثل هذا وسماعه لقول أبى موسى (لحبرته لك تحبيرا) أى لا جتهدت وتكلفت لك تحسينه وسماعه صلى الله تعالى عليه وسلم للمؤذنين المترنمين من أقوى الدلائل على ما نقول وها هم أئمة المسلمين أصحاب المذاهب الأربعة على ما تقرر فى كتاب الفقه للمذاهب الأربعة التزام وزارة الأوقاف فى حكم التغنى والترنيم فى الأذان قال فى صـ ٢٣٤ الحنفية . قالوا : التغنى بالأذان حسن إلا إذا أدى إلى تغيير الكلمات بزيادة حركة أو حرف فإنه يحرم فعله ولا يحل سماعه — المالكية . قالوا يكره التطريب فى الأذان لمنافاته الخشوع إلا إذا تفاحش عرفا فإنه يحرم — الشافعية . قالوا : التغنى هو الانتقال من نغم إلى نغم آخر والسنة أن يستمر المؤذن فى أذانه على نغم واحد . الحنابلة — قالوا : التغنى هو الإطراب بالأذان اهـ

وقال فى صـ ٢٣٨ منها ما زاد بعض الخلف عقب الأذان وقبله أمورا منها الصلاة على النبى صلى الله عليه تعالى وسلم عقبه ، ومنها التسابيح والاستغاثات قبله بالليل ونحو ذلك وهى بدع مستحسنة لأنه لم ترد فى السنة ما يمنعها وعموم النصوص يقتضيها .

الشافعية والحنابلة قالوا : إن الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عقب الأذان سنة اهـ وقد أجمع فقهاء الأمة شراح المذاهب الأربعة على أن التلحين والتطريب والترنيم ليس

بحرام لأنه خرج عن كونه حديثا إلى حد الاعلام . أى خرج عن كونه حديثا يتلى كالقرآن بالفن والمد المعلوم فى قراءة الكتاب والسنة إلى حد الاعلام والنداء . وقال الزبير بن بكار: يصف أذان أبى محذورة : كان أبو محذورة أحسن الناس صوتا وأذانا وقد أقسم بعض شعراء قريش بنغمات أذانه فقال: أما ورب الكعبة المستورة * وما تلى محمد من سورة والنغمات من أبى محذورة * لأفعلن فعلة مذكورة لهذا كان إجماع المسلمين على ذلك .

قولهم إن الأذان مجزوم وبعضهم يقول موقوف يعنون به المقطوم المقتضب .

هذا من تمام انغماسهم فى الجهل وتعمقهم فيه وإن تشأ فقل لشدة بعدهم عن معرفة شيء من علوم القرآن ولو بقراءة حفص الشيء لابد له من كل قارىء حتى فهموا معنى المجزوم الموقوف، المقطوم ، ولم يقل بها غيرهم . إذ معنى المجزوم الممدود بالمد اللازم أو العارض للسكون . يعنى أن كل لفظ من ألفاظ الأذان يوقف عليه فى النهاية بالسكون . ونهايته أربعة عشر حركة . كما هو مقرر فى محله: لا كما فهم الأغبياء من أن معناه المقتضب المقطوم: فلست أدرى كيف يفهمون أو يجهرون بما لا يعقلون : أو لم يسألوا أهل الذكر عن أذان الحرمين قبل ظهور الوهابين المخالفين وما كان عليه . وهى سلسلة متتابعة إلى أذان بلال رضى الله تعالى عنه فيكونون قد اقتدوا بأول جامع للسنة إمام دار التنزيل مالك رضى الله تعالى عنه الذى كان يقدم عمل أهل المدينة على الحديث الصحيح . ولكن ماذا تصنع فى المخالف الذى يصدع بها بدون دليل ولا وجه شرعى لا من النقل ولا من العقل — وما أجرأهم على الله يقولون غير مبالين بحرمة ولا إثم وقد قال تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقال تعالى (ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا) حسبنا الله ونعم الوكيل فى أقوام يجرأون على دين الله بحكم السلطة والتنفيذ . فنسأل الله تعالى أن يتولى جزاءهم (إن الله بصير بالعباد) .

ولا يخفى على ذوى البصائر أن الله تعالى وضع قوانين لأحكام شرعه الشريف وخص تعالى بها من أناط به التبيين صلى الله تعالى عليه وسلم ببيان الصفات والهيئات وجعلها قوانين تتبع كالقرآن فى أحكامه المحدودة وبالتلاوة أيضا لا تكون إلا على نهج القوانين الموضوعة لذلك بالفن والمد والوقف ومن لم يتلقها ويرعها عند أداء القرآن والسنة فهو آثم .

وهاهو ابن كثير أحدالقراء االتزم فى التلقى قصر المنفصل ، أجاز مد لفظ الجلالة فى تكبيرة الاحرام إلى أربع عشرة حركة والمد عند القراء أطوله ست حركات كحى على الصلاة وحى على الفلاح .

ثم إن ساداتنا العلماء رضى الله تعالى عنهم أجازوا التلحين فيه بدون إثم لأنه خرج عن كونه حديثا إلى الإعلام بالصلاة وفى غيره لا يجوز وقد خصصوا أيضا أن يكون المؤذن حسن الصوت لاختياره صلى الله تعالى عليه وسلم مؤذنيه الأربعة من ذوى الأصوات الحسنة خصوصا ما أخرجه الدارمى . وأبو الشيخ باسناد متصل بأبى محذورة المتقدم

الفصل الخامس

فى إنكارهم الصلاة والسلام على رسول الله بعد الأذان

دعواهم أن الصلاة والسلام على رسول الله بدعة سيئة كما كتب عالمهم فى رسالة الاعتصام دليلهم : — أنها لم تكن فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا النداء ولا الصحابة ولا التابعين بل ولا فى السلف الصالح أجمعين . وقد قال الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) هل بعد هذه الآية الكريمة يحدثون فى دين الله ما ليس منه وقد قال الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث الصحيح (من أحدث فى ديننا هذا ما ليس منه فهو رد) الحديث والحديث الآخر (إن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) هذه هى أدلتهم التى لا يعقلون لها معنى ولم يشموا لها رائحة علم .

الرد عليهم

نقول : إن الحق عز وجل جعل بيان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بياناً شاملا لكل الموجودات الواردة فى القرآن الكريم من المبدأ للمعاد . فما ترك شيئاً مما يحتاج إليه بنو البشر من أمور الدنيا والدين والآخرة إلا وقد أوضحه بأجلى بيان . كيف لا — وقد ألزمه سبحانه وتعالى التبيين فى محكم كلامه حيث قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) الآية (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) الآية وقد قال عز من قائل (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فقد أبان لنا صلى الله

تعالى عليه وسلم بموجب هذه الآية مما جاء فى سنة الأقوال من قوله الشريف (إذ سمعتم المؤذن يقول فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على) فلأى شىء قال هنا عقب الأذان ثم صلوا على ؟ وذلك لما علم من أسرار الوحى بأن الصلاة والسلام على حضرته ستزاد بعد الأذان فقال مبيناً ذلك للسامعين كما يحكون الأذان يحكون الصلاة والسلام أيضاً . ومنها أخذ الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه أنها سنة أى من سنة أقواله الشريفة من هذا البيان . وبين أيضاً رضى الله تعالى عنه لما فيه من سماع الناس الصلاة والسلام على حضرته فيصلون عليه اللهم صل وسلم وبارك عليه . وها هو العلامة الألوسى الذى هو آخر مفسر للقرآن الكريم الجامع من أقوال وكلام أفاضل الأمة المتقدمين ، يقول عند هذه الآية والمؤذن داخل تحت هذا العموم من قوله تعالى (صلوا عليه) وأما قولهم الوارد فى الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم . الصيغة الإبراهيمية لاغير . فهذا من انطباق جهلهم وعدم اطلاعهم .

فيقول : لما أنزل الله عز وجل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فهم من كان من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بفهم بالإشارة فقالوا عرفنا السلام فكيف نصلى عليك يارسول الله لأنهم فهموا أن معنى قوله تعالى (صلوا عليه) أى عظموا قدره وارفعوا شأنه فقالوا : كيف نصلى عليك يا رسول الله فأحالهم إلى من بيده ذلك سبحانه وتعالى فقال (قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد وبارك على محمد وآل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد) يقولون هذه الواردة فقط .

نقول لهم : هذا الحديث حديث وارد بيَّنانى طرق وبألفاظ متعددة ومنها أخذ أفاضل الأمة جوازاً لتنويع فى الصلاة والسلام على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كل بقدر ما يفتح الله تعالى عليه وبقدر حبه فيه اللهم صل وسلم عليه هذا وقد عصمه الله تعالى من الغواية والزليل بذلك على ذلك قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) وعلى هذا قد أجمع الأئمة المجتهدون الموفقون برعاية الله تعالى لهم . على أن التبيين أعم من أن ينص بالدليل الصريح أو يرشد إلى ما فيه القياس . وقد قام صلوات الله تعالى عليه وسلامه عليه ببيان كل ذلك حتى قال (أوتيت القرآن ومثله معه) وفى رواية أخرى (وعشرة أمثاله) أى من البيان .

الرد عليهم فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) . لا يخفى أن بيان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم قد تضمن الكليات التى قال فيها تعالى (أكملت لكم دينكم) والجزئيات المندرجة تحت كل كلى من هذه الكليات مثل قوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين) الآية فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة) الحديث وفى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) الآية فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الزمان (ثم صلوا على) ولا تخفى هذه الإشارة من حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الزمان أى وقوعها بعد الأذان إلا على عمى البصر غلف القلوب ، وكما قال تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) الآية فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم (كل ما أضيف إلى مسجدى فهو مسجدى) وغير ذلك كثير من بيانه الشريف عند مستحدثات الزمان التى لاتنحصر من أقوال وأفعال بنى آدم . التى يعقلها العالمون وينكرها كل من قصر عقله عن إدراكها .

ولذا أجمع علماء الأمة الإسلامية من عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وعلى رأسهم أول جامع لأحكام الدين الإمام أبى حنيفة ثم فى عهده ووليه الإمام مالك ثم فى عهده ووليه الإمام الشافعى ، ثم فى عهده ووليه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين . ومن بعدهم عقلاء الأمة الإسلامية إلى وقتنا هذا وهم علماؤها .

على أن الدين الإسلامى ينحصر فى ثلاثة أشياء فى أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم وأفعاله ، وتقريراته ، وهذه محصورة بالعدد . وحوادث الكون لا تنحصر ، ودخول ما لا ينحصر . تحت المنحصر . محال — إذن وجب أن يكون فى الشريعة المحمدية أمور كلية تندرج تحتها الجزئيات . والجزئيات هى التى لم تكن موجودة عند الإخبار عن الكليات . وهى المستحدثات التى تكون على مبادىء الكليات لتقاس عليها (أى ليقاس كل حكم على أصله) ولا يجوز فى العقل السليم وقوعها فى غير أزمنتها قبل الأوان الذى شاء الله تعالى أن لا يقع من بنى البشر إلا فيه . وهؤلاء الجهال بأمور دينهم يقولون لم يفعلها النبى ولا الصحابة ولا التابعين وهم لم ينظروا فى أصول دينهم ولم يفطنوا إلى ما خص الله تعالى به عباده فى كل عصر بمزايا لم يختص بها غيرهم فقل لهم ها هو القرآن المجيد لم يقم الصحابة فيه بنقط حروف

المصحف . بل الذى وضعه إنما هم التابعون . والتابعون لم يضعوا الشكل بل وضعه تابعوا التابعين . وتابع التابعين لم يضعوا له المواقف . بل وضعه تابع تابع التابعين. وغير ذلك مما يسمى الآن بعلوم القرآن وكل ذلك بينه سيد الأنام - وكعمل المدارس لتعليم القرآن وغيرها من مختلف العلوم وقد جاء الأمر بها فى الكتاب العزيز وبيان السنة المطهرة من الجزئيات المندرجة تحت الكليات على ما قدمنا . وكقسائم الزواج . ووجود الوعاظ فى المديريات والمراكز والبلاد وعقود الملاك والتجارة والإيجارة واستحداث المحاكم والجنايات والشركات والجمعيات وغير ذلك مما جاء به القرآن وبينته السنة .

ولا يخفى على ذو العقول الزكية والبصائر النيرة ما لفت الله تعالى عباده إلى النظر فيه بقوله تعالى (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) الآية ومن المخلوق ابن آدم الذى أكمل الله تعالى خلقه فى بطن أمه وقال الله تعالى فيه (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقد أنزله كاملا مشتملا على هذا الكمال بكافة استعدادات مستلزماته فى الحياة من الأعمال وقد قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) والذى عليه تقرير المحققين أن العمل داخل فى تكوين العبد فيكون بعد أن ينزل من بطن أمه العمل داخل فيه بالقوة ولا يظهر منه وعليه إلا بعد أن تأتى الأزمنة التى شاء الله تعالى أن يظهر عمله فيها . فمنها تعلم أن مستحدثات الزمان لا تقع ولا يظهر عملها إلا فى الأزمنة التى شاء الله تعالى وقوعها فيها وإلا لكان زواج المولود حين نزوله من بطن أمه أمراً واجباً وهذا محال . وعلى هذا كان بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم لجميع الأحكام الشرعية التى لم يتحقق وقوعها إلا فى الأزمنة التى شاء الله وقوعها فيها . أمراً مستلفتاً أنظار العقلاء لسنن الله تعالى فى جميع مكوناته التى شاء إبداعها فى أزمنتها المقدرة خصوصاً وقد أبان عز وجل لعباده كثيراً من هذه الأحكام فقد أخبر سبحانه وتعال عن أشياء مقدماً ولم تقع إلا بعد أزمنة طويلة ليعلم عباده كيف يكون وقوع المستحدثات فى الأزمنة الآتية التى لا بد لها من الوقوع فيها كقوله تعالى للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) الآية وفى بدء الإسلام الوضوء الذى لم يفرض إلا بعد فرضية الصلاة بسنين . وكفتح مكة الذى أخبر الله سبحانه وتعالى عنه ولم تفتح إلا بعد سنين وكالأذان للجمعة ولم تقم الجمعة ولم ينفذ الأذان لها إلا بعد سنين . ومثل ذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى) الحديث للبخارى وكقوله (ثم صلوا على) الحديث . الذى أخذ منه الفقهاء دليل الجواز فى الصلاة والسلام

عليه بعد الأذان . فهذا كله من الجزئيات المندرجة تحت الكليات فى الحكم الشامل لها

مثال — يقرب لهم معنى (أكملت لكم دينكم)

هذا هو مثل تقريبى للعقول التى قصرت عن فهم الكلى والكلية . والجزئى والجزئية التى بينها أفاضل الأمة فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وقد تنزلت فى معناه لدرجة يفهمها العوام من الناس إذ قالوا لا يكون لشىء كليا إلا إذا كان كاملا ولا يكون كاملا إلا إذا كان مشتملا على جزئيات — كمن ذهب ليشترى ثوبا فلا يشتريه إلا إذا كان مشتملا على القدر الذى يكفيه . وبعد شرائه يقال له كامل بالقوة لاشتماله على كل جزئياته . فإذا جاء الزمن الذى شاء الله تعالى أن يفصله فيه عليه فتظهر الجزئيات المندرجة تحت هذا الكلى من أكمام وبدن . وأجناب وجيوب . وسراجه . وخياطه . ووضع كل جزء فى محله أزمنة وبعد هذه الأزمنة التى ظهر فيها كل جزء يكون الثوب كليا كاملا بالفعل وأيضا من جزئياته أزراره وعراويه فلو نقص زر واحد منها أو عروة واحدة لا يقال له كامل إلا إذا كان مشتملا على هذه الجزئيات التى لا يتم كماله إلا بها قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فكيف بهذا الدين الحنيف الذى جعله الله تعالى خاتم الأديان جميعا وكتابه خاتم الكتب جميعا ورسوله خاتم الرسل جميعا . لا تكون قضاياه ومسائله وقواعده مشتملة على جميع ما يحدثه بنو البشر فى جميع الأزمنة . وما من حادثة ولا جزئية يحدثها بنو البشر فى جميع أزمنتهم ما بقيت الدنيا إلا وكان أصل التنزيل يشملها حتى يكون أصلا لكل ما يحدث حتى يرجع إليه فيه ويرد به عليه — وإلا لبطل الرد إليه فى قوله تعالى (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وفى قوله تعالى (فلو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) وهذا معنى قول العقلاء إن القرآن صالح لكل زمان وجيل . شامل حكمه لكل ما يحدثونه فى أزمنتهم — وإلا لاحتاج الناس إلى كتاب جديد ورسول جديد ليبين لهم ما اختلفوا فيه . كما هى حكمة إرسال الله تعالى الرسل لعباده — وهذا محال بعد قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) (وتفصيل كل شىء) (تبيانا لكل شىء) وقوله تعالى فى سيد العالمين (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولقول من لا ينطق عن الهوى صلى الله تعالى عليه وسلم (أنا العاقب الذى لا نبى بعدى) الحديث يرويه البخارى ومسلم .

فقد عرفت معنى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) لاشتمال أحكامه على الكليات والجزئيات وهذا وجه إجماع علماء المسلمين على جواز عمل المحدثات التى لها أصل فى الدين والثواب لفاعلها عليها من رب العالمين .

وقد عرفت أيضا أن وجه تمسكهم بها جحود ومخالفة لاجماع المسلمين فقد دخلوا تحت الوعيد فى قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وفى قوله تعالى والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) وإن تشأ فقل هم من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من فارق الجماعة قيد شبر » وفى رواية « قيد شعرة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » .

الفصل السادس

فى الرد على قولهم لم تكن فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

نقول إن هؤلاء الضالين الذين يعترضون إجماع المسلمين فى كل شىء — يجهلون سنة الله تعالى فى خلقه من جميع المكونات التى هى آثار الصفات له تعالى والتشريعات التى بينها سبحانه لعباده لكى يسيروا عليها ويعرفوه تعالى بها ومنها .

أليس من آثار صفاته تعالى وجود أفراد الموجودات التى قال تعالى فيها (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وأفعال عباده التى ربطها تعالى حتى فى العزم على الفعل مطلقا لا يكون إلا بمشيئته فقال تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) وقد بين تعالى المفروضات على عباده وأناطهم التكاليف بها ورغبهم فى فعل الخير مطلقا ونهاهم عن المحرمات وحذرهم القرب من الشبهات . وقد أرشد إلى ذلك كله وبين هيئته وصفته وكيفيته من ألزمه الله تعالى بالتبيين والبيان وهو حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم . وذلك لمن شاء الله تعالى توفيقه للعمل به لكل من رزق التوفيق فى كل زمان ما بقيت الدنيا مع اليسار والتيسير لكل عامل — وهل بعد ذلك كله يقول كل مكابر حائد عن الحق لم تكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم . أولم يكفهم أنه أصل التشريع ومبين الأحكام لكل عامل . وبين صلى الله تعالى عليه وسلم الحسن

منه وأمر بالسير عليه وماليس بالحسن أمر بعدم السير عليه — وإلا لو عمل بجزئيات الأحكام مع كونه محالا على ما قدمنا لما وجدت الأشخاص الذين يطيقون العمل بكل ذلك ولا الأزمان التى تسع كل فى ذلك ولما كان معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) أو يلزم عليه عدم علم منزل القرآن بمستحدثات عباده فى الأزمان حتى يبين لهم رسوله ما يرجعون إليه من النص أو الإرشاد إلى ما فيه القياس . كما فى الحديث الروى عند البخارى «عن أبى هريرة أن أعرابيا أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال والذى نفس بيده لا أزيد على هذا فلما ولى قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا »قال شارحه ولم يذكر التطوعات فى هذا الحديث وغيره مع أن ترك السنن نقص فى الدين . بل تركها تهاونا ورغبة عنها فسق لأن أصحاب هذه القصص كانوا حديثى عهد بالإسلام فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم فى تلك الحالة لئلا يثقل عليهم ذلك فيملون فإذا انشرحت صدورهم للفهم منه والحرص على ثواب المندوبات سهلت عليهم اهـ ومثل هذا كثير فى بيان الكتاب والسنة .

أو لم يردع هؤلاء ويكفهم بيان الله تعالى لهم وبيان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل هذا — وإن تشأ فقل البيان من حضرته سنة والعمل به واجب . فكأنه عمله صلى الله تعالى عليه وسلم . وسنة الأقوال هى سنة الأفعال هى سنة التقريرات وإنكار مثل هؤلاء لما جاء من الدين مخالف لما ظهر من بيان سيد المرسلين إذ لولاه لما عرف الناس أصل التشريع وحكمة التبيين .

الفصل السابع

فى الرد عليهم فى قولهم لم يعمله الصحابة ولا التابعون ولا تابع التابعين

يقولون: إن الصحابة لم يفعلوا شيئا من ذلك دليلهم أنه لم يرد فى السنة عنهم أنهم فعلوا الصلاة بعد الأذان ولا سورة الكهف ولا المولد ولا الاحتفال بالكسوة الشريفة (المحمل) ولا الذكر أمام الجنائز وغير ذلك مما هو معروف عنهم فى إنكارهم المستحدثات من الجزئيات الدينية الشرعية المندرجة فى الكليات أى الأحكام الشرعية العامة التى لم يخص الله تعالى بها أشخاصا دون أشخاص ولا زمانا دون زمان .

نقول بتوفيقه تعالى إن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . قد خصهم الله تعالى بأشياء لم يختص بها غيرهم من المسلمين .

منها صحبتهم ورؤيتهم لسيد العالمين وأن الله تعالى جعلهم خلقا مخصوصين يعز بهم نبيه ويؤيد بهم قواعد دينه وينصرهم على كافة الخلق أجمعين . كيف وقد وصفهم تعالى فى التوراة والإنجيل قبل أن يخلقوا قال تعالى فى آخر سورة الفتح (محمد رسول الله والذين معه) الآيات وكفاهم بهذا شرفا .

ومنها أن الله تعالى جعلهم أقوياء فى كل شىء حتى فى الذكاء فحفظوا أصول هذا الدين الحنيف الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى فطنوا لجميع أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم وإشاراته وحركاته وسكناته وضحكه وتبسماته وأفعاله وتقريراته وهى ما تسمى بالكليات الكاملة الدينية .

ومنها قيامهم بتأسيس ذلك وتوطيد أحكامه والحيطة فى الأخذ به والحرص عليه

ومنها قيامهم بنشر قواعد الكليات من الدين فى جميع أنحاء الكرة الأرضية بكافة طرق الوسائل لذلك بالفعل والقول — ولقد صدق البخارى فى قوله وكانوا أحرص شىء إلى الخير

ثم خص الله تعالى من بعدهم وهم المسمون بالتابعين بضبط ذلك وتدوينه وحفظه مع قيامهم على قدم سابقيهم بالحروب وهو الجهاد

ثم خص تعالى من بعد التابعين بحفظ وفهم ما دونه لهم سابقوهم والتدبر فى معانيه واستنباط ما اشتمل عليه وتطبيقه على ما أحدث فى زمنهم وهم أيضا على قدم سابقيهم فى الأقوال والأفعال وكانوا على رغبات شتى فى كل ما يحتاج إليه نواحى وأضرب هذا الدين من كل مستلزمات حفظه وتأييده ومراعات الوسائل فى كل ما يعين على فهم معانيه .

ثم وجه سبحانه وتعالى من بعدهم بما هو أوسع من ذلك على فهم وإدراك وتأويلات السابقين . وهكذا فى كل عصر وجيل حتى صار الدين الحنيف محكما من كل الوجوه مع معرفة مكانة ومركز ودرجة ومقام ورتبة كل من قام بشىء من خدمة هذا الدين الحنيف

ولا يخفى عليك أن الضلال المعارض للحق كان من زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وهم المنافقون الذين على قدم الكافرين فنشأ من أسلافهم وعلى مبادئهم الخوارج عن إجماع المسلمين فهم يقومون بكل أمر يخالف طريقة أهل الحق ويعارضون .

القائمين به فى كل عصر غير أنهم لم يظهروا إلا فى مواطن الضعف من أهل الحق. كما هى سنة لله تعالى فى خلقه قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ومن هنا تعرف أن أهل الحق والضلال متنازعان فى الدنيا فأهل الحق أهل الإجماع وهم السواد الأعظم من المسلمين ؟ وأهل الضلال هم جماعة الفرق الضالين الذين يعترضون كل أمر حسن فى الدين . فتراهم يتلمسون الشبه الواهية التى يضللون بها ضعفاء الايمان. من المسلمين كقولهم هذا لم يفعل فى زمن النبى ولا الصحابة ولا التابعين .

فما أجهلهم بسنن دينهم وسنن خالقهم فى موجوداته التى ما كانت إلا على بيان الكتاب والسنة وما أقصر عقولهم حيث لم يفطنوا إلى استحداث الحق عز وجل. فى مكوناته وتنزلات أحكام دينه التى جاءت صالحة لازمة لكل زمان وجيل ومكانة سيد العالمين الذى أرشد إلى كل ما يلزم من التبيين . على أن كل ما يحدث فى الزمان من الأشخاص أرشدهم إلى مصدره حيث يرجعون إليه فيجدونه كاملا غير محتاجين. بعده إلى تبيين ولا إرشاد.

إذ لو قام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بكل شىء من الجزئيات المندرجة تحت الكليات التشريعية فى الدين الاسلامى لترتب على ذلك أمور كثيرة .

منها عدم اختصاص الحق عز وجل بالمزايا التى يختص بها من يشاء من عباده من خاصة خلقه فى كل زمان وجيل ، ولا انحصر الفيض الإلهى فى زمن واحد مخصوص. لا يتعداه إلى غيره من خلقه ، ولكان فضل الله قاصرا ضيقا منتهيا بالشخص والزمان. وهذا محال عقلا ونقلا

ومنها ما يكون الدين الاسلامى فيه رجعيا ليس صالحا لكل زمان لعدم اشتمال أحكامه لكل ما يتجدد فى الأزمنة والأشخاص وهذا باطل بالعقل والنقل .

ومنها أن يكون الكتاب العزيز غير جامع لمستحدثات الكون قاصرا على زمان دون زمان ولم يجد الناس فى أحكامه مخرجا لما اختلفوا فيه كما هى حكمة إرسال الله سبحانه وتعالى الرسل والكتب السماوية ولا لزم عليه احتياج الناس إلى كتاب جديد ورسول جديد ليبين لهم ما اختلفوا فيه وهذا باطل أيضا بالعقل والنقل .

ومنها بطلان صحة الرد إلى الكتاب العزيز فى قوله تعالى (فان تنازعتم فى شىء. فردوه إلى الله والرسول) الآية وأيضا فى قوله تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى

أولى الأمر منهم) الآية — فهذه الآيات القرآنية التى أرشد الله تعالى بها عباده إلى كل ما يظهره لهم من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعته التى لا تتوقف على زمان دون زمان ولا خلق دون خلق ولا على أشخاص دون أشخاص

فانهم يرجعون فى كل محدث منها إلى الكتاب العزيز والسنة المطهرة . فما كان مشتملا عليه علموا أنه من المعنى المراد للحق عز وجل فيجزمون أنه من الدين بمكان . غير أنه لما جاء الزمان الذى شاء الله تعالى فيه أن يظهره على أيدى من شاء من خلقه بما شاء من حكم وآيات وأحكام تصلح لهم فى زمنهم وجاء القرآن شاملا لها وبيان سيد العالمين مصرحا ومرشدا إليها

عمل الصحابة فى هذا الدين الحنيف

اعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قد قاموا ببيان وعمل وإرشاد جميع عباد الله لأحكام الدين ولولا هم ما عرف منه شىء مع قيامهم بالاعباء الثقال وأشدها وأقساها من تأسيس هذه الكليات فى الدين الخالدة ما بقت الدنيا .

من تحمل الأحكام الشرعية وتبليغها لمن بعدهم عملا بقول الصادق المصدوق (بلغوا عنى فرب مبلغ له أوعى من سامع) الحديث وفى رواية (بلغوا عنى ولو آية) الحديث ومن مهام الأمور التى قاموا بها تنفيذ أوامر من خصه الله تعالى بالتبيين وجعله قدوة للبشرية أجمعين من نقل أقواله وأفعاله وتقريراته وأوصافه وحركاته وسكناته لينطبق الاقتداء بحضرته فى كل شىء . اللهم صل وسلم وبارك عليه .

وفى مقدمة هذه المهام الجهاد الذى هو أشغل شاغل عن النظر فى جزئيات الأحكام وإن كان ثبت فى صحيح السنة رجوعهم إلى الكتاب والسنة وردهم الأحكام إليهما وتعليلهم لأسرار أوضاعها . ومع هذا لم يدخروا وسعا فى الجهاد لتعميم الدعوة ونشر جميع الأحكام وبسط أوامر الله تعالى لعباده لجميع بنى البشر المأخوذة من كتابه العزيز وسنة نبيه المطهرة وكان هـذا شغلهم الشاغل ليلا ونهارا طول حياتهم حتى حقق الله بهم وعلى أيديهم قوله تعالى (ويكون الدين كله لله) وقوله تعالى (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) وقوله تعالى (وإنا له لحافظون)

ثم أنشأ الله تعالى خلفا آخرين قاموا على قدمهم خير عاملين وآخرين معهم مبصرين فى معنى ما نقل إليهم من أحكام الدين بالكتاب والسنة وهكذا حتى قبض الله تعالى

لهذا الدين الحنيف رجالا من جميع مستلزمات أضربه فقام كل بما خلق لأجله حتى أصبح كل ضرب من طرقه سهلا واضحا حصينا صريحا لا يضل فيه ولا يحيد عنه إلا كل من أشقاه الله وأعمى بصيرته . قال تعالى فى شأن القرآن وتاليه (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين) .

أبعد هذا يقال لكل حكم مستحدث جاء الكتاب العزيز والسنة المطهرة بأصله بدعة وهو الأمر الكلى الذى لم يكن فى زمن الصحابة ؟ ومن روى لنا أصله وفرعه إلا الصحابة وهل الصحابة كانت تخفى عليهم هذه الفروع الدينية الشرعية حتى يقال لم تكن فى زمنهم وهل جاء زمنها الذى تحدث فيه حتى يقال إنهم لم يفعلوها .

وكيف يعقل هذا مع السابق الصحيح عنهم أنهم كانوا يرجعون فى أحكامهم الدينية لكتاب الله وسنة رسوله .

فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين هم الذين رووا لنا هذا الدين الحنيف غضا طريا كما أنزل . ولم يكن لديهم من الوقت ما يسع جميع الأحكام الدينية من كلياتها وجزئياتها . فضلا عن عدم مجىء الأزمنة التى يشاء الله تعالى لها أن تحدث فيه .

فهم الذين رووا لنا الآذان بمعنى النداء ، وهم الذين رووا لنا من بيانه الشريف أن النداء لاحد له ، وهم الذين رووا لنا اختيار المؤذنين أندياء الأصوات . وهم الذين رووا أن الأذان بالنغمات على ماقدمنا - حتى أقسم شاعرهم بنغمات أبى محذورة فى البيتين السابق ذكرهما .

وهم الذين رووا لنا معنى قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وأن المراد من صلوا عليه ، عظموا قدره — وارفعوا شأنه .

ولما كان البشر لا يستطيعون ذلك رفع شأن ذلك إلى من بيده ملكوت كل شىء بقوله (قولوا اللهم صل على محمد) الحديث وكما أوجب ذلك سبحانه وتعالى على المؤمنين — أوجبه على المؤذنين على ما قرره العلامة الألوسى فى تفسيره — فراجعه . عند قوله تعالى (صلوا عليه) .

وهم الذين رووا لنا قراءة سورة الكهف فى يوم الجمعة وتخصيصها بالقراءة فى هذا اليوم المخصوص للقارىء والمقروءة له فأجازها أفاضل الأمة لذلك ولفت نظر العباد لقراءتها فى هذا اليوم المخصوص لنيل هذه الخصوصية التى تفضل الله تعالى بها على عباده .

وهم الذين رووا لنا عن الصادق المصدوق أيضا (ما اجتمع قوم على ذكر الله تعالى إلا ونزلت عليهم الملائكة وغشيتهم الرحمة) الحديث ولم يخص به الشارع الشريف زمانا ولا مكانا . فأجازها أفاضل الأمة أمام الجائز لأنهم يرجون رحمة الله تعالى للأموات وتشملهم تلك النعم الإلهية التى جعلها لعباده الذاكرين . وهم الذين رووا لنا عن الصادق المصدوق أن بلالا كان يؤذن للناس بغلس ليوقظ نائمهم وينبه غافلهم . وابن أم مكتوم كان يؤذن للصبح . فأخذها أفاضل الأمة بالمبادرة قبل أذان الصبح وقبل أذان يوم الجمعة بالجواز .

وهم الذين رووا لنا عن الصادق المصدوق صلوات الله تعالى وسلامه عليه (إن لله ملائكة فى الأرض يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا حلقة تداعوا إليها) الحديث للبخارى فأخذها أفاضل الأمة الذين خصهم الله تعالى بتبيان القسم الثالث من الدين وهو (الاحسان) وهم السادة الصوفية رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . فجعلوا ذكرهم حلقات.

وهم الذين رووا لنا عن الصادق المصدوق (إذا مررتم بالمفردين) الحديث فقد شبه صلى الله تعالى عليه وسلم الذاكرين بالطير المفرد . ولا يغرد الطير فى نظر السليم إلا متمايلا . فأخذها السادة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مسلكا وديدنا وعادة لهم . خصوصا لما فيه من حمل القلب على التعلق بالمذكور ولما فيه من جمع الهمة وشحن العزائم لعلك قد استترت من معنى قولهم هذا لم يفعله الصحابة وظهرت لك الحقائق ولاحت لك بروق الهداية وعرفت الحق الصريح من الضلالة والغواية.

الفصل الثامن

فى البدعة والحدث والمحدثات

لا يخفى على ذوى البصائر النيرة والعقول الراجحة أن الله سبحانه وتعالى علم عباده وألهمهم التوفيق وأرشدهم إلى أن مكوناته لا تقع دفعة واحدة بل لا بد من استحداثها شيئا فشيئا وأنها لا تقع إلا فى أزمنة مخصوصة يشاؤها هو بمقتضى حكمته العالية وقوعها فيها ومثل هذا كثير على ما بينه فى كتابه العزيز . وقد قدمنا طرفا منه فى ردنا عليهم فى

معنى قوله تعالى (أكملت لكم دينكم) وهنا نزيد الأمر وضوحا إن شاء الله تعالى .
قال تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وقد قلنا مرارا أن هؤلاء على قدم الضالين السابقين الذين كانوا سببا فى نزول هذه الآى حتى بنى عليها أمر كل مخالف . فكما كان أسلافهم ينكرون على نزول الآى فهؤلاء ينكرون ظهور الأحكام.

وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى أن المحدثات واقعة لا محالة حيث (يحدثون ويحدث لكم) الحديث — وقال أيضا (إياكم ومحدثات الأمور) الحديث . وقال أيضا: (إن خير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها) الحديث وقال أيضا (إن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة) الحديث . فقد بين صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الأحاديث وغيرها أن المحدثات واقعة لا محالة . على مقتضى بيان الحق عز وجل فى كتابه العزيز فى الآية المتقدمة . ولما كانت المحدثات منها ماله أصل فى الدين . بين صلى الله تعالى عليه وسلم أنه من الدين فقال (من أحدث فى ديننا هذا ما ليس منه فهو رد) الحديث وفى أخرى (فهو خداج) الحديث وبين أيضا صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها) الحديث ومن هذه الأحاديث التى فصل فيها صلى الله تعالى عليه وسلم بين البدعة الحسنة والبدعة السيئة إذ ربما فهم قصار العقول من قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) الآية على العموم فبين من أسند الله تعالى إليه التبيين صلى الله تعالى عليه وسلم الفرق بين البدعة الحسنة والبدعة السيئة خصوصا بعد أن امتدح الله تعالى البدعة وامتدح العاملين بها فى كتابه العزيز قال تعالى (رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) الآية

فمن هذا كله ذهب أفاضل الأمة وعلماؤها إلى تقسيم البدعة إلى خمسة أقسام منها ماهو واجب العمل به . كتعلم الأدلة لرد المبطلين وقطع شبه المضلين . وتعلم الفنون والصناعات . والآلات الحربية وغيرها . ومنها ما هو مندوب كالتوسع فى هذا والبسط فيه . ومنها ما هو مباح كالتبسط فى والمأكل والمشرب والملبس والأثاث والزينة . ماعدا ما حرم الله تعالى : كالحرير والذهب للرجال . والخمر والميسر . ومنها ما هو مكروه . كالتوسع فيما تقدم . ومنها ما هو حرام . وهو البدعة السيئة التى لا أصل لها فى الدين وعليه جاء تفسير كل بدعة ضلالة . أى التى لا أصل لها فى الدين . أما التى لها أصل فى الدين فهى من الدين خارجة عن الضلالة والعمل بها

معنى تعليم الله تعالى عباده استحداث الأمور

منها: ما وعد الله سبحانه وتعالى النصر لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وإتمامه لدينه وإظهاره وإكماله فى كل ما يحتاج إليه بنو البشر دينا ودنيا وأخرى فى جميع أنحاء المستعمر من الأرض، وقد تم ذلك بكلياته المشتملة على جزئياته والقواعد الدنيوية التى أسسها صلى الله تعالى عليه وسلم على يد الصحابة ثم وليهم التابعون ومن تبعهم وأيضا الأخروية التى وعد سبحانه وتعالى بها على لسان أشرف خلقه صلى الله تعالى عليه وسلم بتحقيقها (وعد الله لا يخلف الله وعده) (ومن أوفى بعهده من الله) ومنها . فرضه تعالى على عباده الصلاة بمكة ولم يفرض الوضوء لها إلا بالمدينة بعد الهجرة بسنتين —

ومنها : إخباره تعالى عباده فتح مكة . ولم تفتح إلا بعد أربع سنين

ومنها : ما أمر الله تعالى به عباده من النداء ليوم الجمعة بمكة — ولم يفرض تنفيذها ولا القيام بها ولا استكمال شروطها إلا بعد الهجرة بسنتين.

ومنها : إحداث صلاة التراويح فى زمن عمر رضى الله تعالى عنه وقال بعد أن جمعهم على قارىء واحد (نعمت البدعة هذه) وما أخذها رضى الله تعالى عنه إلا من صلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهم ليالى ثم انقطع عنهم رحمة بهم.

ومنها : بناؤه رضى الله تعالى عنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإبداعه فيه والزيادة عليه عملا بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم (ما أضيف إلى مسجدى فهو مسجدى) الحديث

ومنها: إحداث عثمان رضى الله تعالى عنه الأذان الأول يوم الجمعة على الزوراء الذى أخذه من فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من إخراج المؤذن من بين يدى حضرته إلى الباب عند كثرة المسلمين وكثرة الصفق فى أيديهم.

ومنها: إحداثه رضى الله عنه بناء فوق المسجد مرتفعا بعد أن بناه وجعله يتحمل المؤذن فوقه الذى أخذه من تخصيص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المكان المرتفع للأذان حيث كان يؤذن فوق بيت أم هانىء وهو أعلى بيت بجوار المسجد.

ومنها — ستائر المنبر الذى أخذه من فعل عمر رضى الله عنه على ما رواه ابن سعد

ومنها : إحداث معاوية رضى الله تعالى عنه زيادة المنبر ست درجات مضافة إلى ثلاث فصارت تسعا . وقد أخذه من فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من انتقاله من الجذع وهو درجة واحدة إلى المنبر الذى صنع من ثلاث درجات ولم يشترط صلى الله تعالى عليه وسلم على الصانع تحديد الدرجات فتبين أن ارتفاع المنبر على أحوال منها كثرة الناس وسعة المسجد .

ومنها : إحداثه رضى الله تعالى عنه تجويف المحراب فى الحائط الذى أخذه من التزام حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم مكانا مخصوصا فى المسجد يصلى فيه ولم يغيره خصوصا لما أم الصديق الناس فى مكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قد تأخر حضرته للصلح بين قوم وجاء والصديق فى المحراب فى الصلاة وصفق الناس فتأخر الصديق وتقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (الحديث) وأنهم رضوان الله تعالى عليهم لم يغيروا المكان بعد انتقاله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .

ومنها . أنه صح قول المفسرين للقرآن الكريم . أن المحراب المذكور فى الكتاب العزيز فى أربعة مواضع لاغير ـ موضعين فى آل عمران ، وفى مريم موضع . وفى ص موضع على أن المحراب هو أخص مكان للإمام . ولم يعرف هذا من ذلك الحين إلا بتجويفه فى الحائط ليكون أدعى وأبين أنه هو المكان الخاص بالإمام .

ومنها : إحداثه رضى الله تعالى عنه المنارة المعروفة الآن بالمأذنة ـ أخذا من عمله صلى الله تعالى عليه وسلم وجعله الأذان فى أعلا مكان .

عود إلى بدء

فأنت ترى أن علماء المسلمين مجمعون على أنه ما من أمر يكون الأصل فيه بيان رب العالمين أو سنة سيد المرسلين خصوصا إذا كان فيه ذكر لله تعالى أو تعظيم لشعائره أو رفع لشأن نبيه أو نفع للفقراء من المسلمين إلا ويستحسنونه لأنه يتناوله كلام رب العالمين أو سنة سيد المرسلين . وإن كان محدثا لما فيه من مرضاة الحق عز وجل وأمرهم بالسير عليه . لما عساه أن يكون مقربا بالله تعالى ويرضى به عنه .

فهولاء الخوارج على إجماع المسلمين يعترضون وينكرون على أهل الحق والتحقيق ويضلون ويضللون ضعفاء الإيمان من البرءاء من المسلمين بقولهم . هذه لم تكن فى زمن النبى ولا الصحابة ولا التابعين ـ فلاحظ لهم ولا رغبة لهم إلا المخالفة لإجماع المسلمين ليعرفوا .

فهم الفرق الضالة الذين حدث عنهم الصادق المصدوق فى حديثه الذى قدمناه سابقا فهم الفرق الخارجة عن دائرة السواد الأعظم من المسلمين - فأنت تراهم يدعون الإيمان والإسلام ويخالفون إجماع المسلمين - وهم السواد الأعظم الذى بينه سيد العالمين والجماعة التى حث على اتباعهم وعدم مخالفتهم .

وقال « من فارق الجماعة قيد شعرة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » الحديث وياليتهم يجمعون على تلك المخالفة بل كل فرقة منهم تخالف عن الأخرى . وقد جعلهم الله كذلك - ليعلم المؤمن أنهم الفرق الضالة لا الجماعة ، وهم السواد الأعظم من المسلمين فأنت ترى منهم من ينتحل طريقة من الطرق المخالفة لإجماع المسلمين ويقولون نحن نعمل بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » الحديث وإذا جئتهم بما قدمنا من عمل الخلفاء الراشدين وأجمع عليه علماء المسلمين يقولون نعمل بسنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم - كالأذان يوم الجمعة ، كالمنبر ، كالصلاة والسلام على رسول الله بعد الأذان ، كتجويف القبلة فى الحائط - وغيرها مما خالفوا فيه المسلمين - وتراهم يعملون بصلاة التراويح ويقولون إذا اجتمعت سنة النبى وسنة الخلفاء الراشدين نعمل بسنة النبى . ولا نعمل بسنة الخلفاء وهل سنة الخلفاء الراشدين تغاير سنة النبى . أو جاءوا بها من عند أنفسهم ؟

ولذا يقول قائلهم المتسلل فى الدين كاللص فى سرقته وهو يدخل على أتباعه المضللين - إذا اجتمع معنا قول العلماء الحاضرين وقول العلماء السابقين بأيهما نأخذ - يقول له المضللون . نأخذ بقول السابقين - يقول لهم وإذا اجتمع معنا قول السابقين والأئمة المجتهدين - بأيهما نأخذ - يقولون له بالأئمة المجتهدين - وإذا اجتمع معنا قول المجتهدين والصحابة - بأيهما نأخذ - يقولون له - بقول الصحابة - يقول لهم - وإذا اجتمع معنا قول الصحابة وقول رسول الله - بأيهما نأخذ - يقولون بقول رسول الله - فيقول لهم : ها هو الكتاب والسنة بين أيدينا نعمل بهما ولا داعى لأقوال غيرهما .

والضال الأكبر الأجرأ يقول لهم وإذا اجتمع معنا سنة رسول الله وكتاب الله بأيهما نأخذ - يقولون له بكتاب الله - يقول لهم ها هو القرآن بين أيدينا جعله الله عربيا واضحا يفهمه العربجى المار فى الشارع . فهم من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « ألا يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يقول مالنا ولسنة رسول الله ها هو القرآن بين أيدينا نعمل به ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » الحديث - وإذا جئتهم بما يقطع

رقابهم وحججهم الواهية . بالبراهين الساطعة الواضحة عمدوا إلى شبهة أخرى من الأوهام التي يوحيها شياطينهم ـ فهم من مصداق قوله تعالى (شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون)

أو ليس هؤلاء على مبدأ من أراد من أسلافهم أن يتأول آية الزكاة ويمتنع إخراجها حتى قاتلهم الصديق رضى الله تعالى عنه . ولكن بقى منهم من نشأ من هؤلاء على تلك المبادىء الخاطئة المؤولة لكتاب الله تعالى ولسنة نبيه تأويلا بالهوى

فارجع إلى حكمة الحكيم الخبير بمصالح عباده الذين خلقهم على المقابلة والمماثلة حتى يتميز الخبيث من الطيب . والحق من الضلال والمؤول بالباطل . والخارج عن الجماعة من الموافق لهم والمهتدى بالقرآن والضال عنه.

ومن أعجب ما ترى أنك تلزم الضال منهم بالحجة والبرهان حتى تقطع منه كل شبهة وتريه الحق الصريح الواضح حتى يخيل لك أنه كاد يهتدى . ويهتدى . ولكنه لا يزال متمسكا بالباطل الذي لا يستطيع أن يصدع به في مواجهة الحق . فهم من مصداق قوله تعالى (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) الآية أو من مصداق قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) الآية وأما أهل الحق والإجماع الذين وفقهم جل شأنه قال فيهم (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

الفصل التاسع

في مبدأ الصلاة والسلام على رسول الله بعد الأذان وكيف تطور الأمر فيه؟

اعلم وفقنى الله تعالى وإياك إلى الحق وإلى طريق مستقيم ـ أنه لما كان شأن سيد العالمين أرفع الخلق فقد لفت الله سبحانه وتعالى النظر إلى ذلك في الكثير من آياته الكريمة ثم أمر عباده أن لا يسيئوا إلى حضرته في شيء فقال تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) ثم أوجب عليهم دوام استمرار الصلاة والسلام عليه كما هو المتبادر

من قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) قال العلامة الألوسى أى عظموا شأنه وارفعوا من قدره بقدر طاقتكم البشرية . ولما علموا أن طاقتهم البشرية لا تستطيع أن تؤدى القدر اللائق لحضرته قالوا : كيف نصلى عليك ؟ قال لهم : ارفعوا ذلك إلى من أمر به الحق عز وجل (قولوا) «اللهم صل على محمد» روايات الحديث ثم بين الله تعالى لهم أن كل من لم يحمل ذلك فقد آذاه . ومن آذاه . فقد آذى الله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا)

ثم لما كانت الصلاة والسلام عليه خاصة بحضرته لايشاركه فيها غيره كما هو صريح القرآن . وقد طلب الصحابة البيان من حضرته . أدخل فى بيانه النبيين وأزواجه وذريته وعليه قال الكبير من أفاضل الأمة أن الصلاة والسلام على غيره لا يجوز إلا تبعا له من آل البيت والصحابة والعلماء العاملين والأولياء والصالحين . وأما البعض الآخر فقد أجازها مستدلا بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم «صلوا على آل فلان» وقد صلى صلى الله تعالى عليه وسلم على أبى بكر ، وعمر ، وعثمان وعلى — ولتعلم أيها الطالب الكريم أن الله تعالى قد أخبر الله عباده بأنه يوجد بعد الصحابة من يقوم بتبيين ما فى الكتاب العزيز بما هو أنسب لعباده فى أزمنتهم بقوله تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ثم ذم سبحانه وتعالى من أسند إليهم البيان من التوراة ولم يفطنوا له بقوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين) ثم إن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأصحابه يوما (هل تدرون من أقوى الخلق إيمانا قالوا الملائكة قال وأجدر قالوا المرسلون قال وأجدر قالوا بالله يارسول الله حدثنا من هم قال ناس من أمتى يأتون فى آخر الزمان يقرءون القرآن ويؤمنون به ويصدقونى فهم أقوى الخلق إيمانا) الحديث يرويه الترمذى وغيره . فهاهم المسلمون الذين يأخذون من القرآن كل شىء فى أمر دينهم — وإليك ما جاء عن عمر بن عبدالعزيز فى طبقات ابن سعد بسند حسن أو صحيح . أنه كتب لعماله أن ناسا من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم ومواليهم عدل صلاتهم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : فإذا جاءك كتابى هذا . فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين خاصة . ودعاؤهم

للمسلمين عامة ويدعو بما سوى ذلك بعد الاذان وعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه قد قال فيه العلماء إنه آخر الخلفاء الراشدين.

فهذا أول استحداث الزيادة الخاصة بالصلاة والسلام على غير حضرته ولما رأى بعض من علم هذا الافراد بالصلاة على غير حضرته أنها جائزة خصوصا فى حق الصالحين والمصلحين ومن كان على قدم من يلحق بتبعيته صلى الله تعالى عليه وسلم. وأن المقصود من الصلاة طلب الخير للمصلى عليه زاد بعض من يقتدى به الصلاة والسلام بعد الأذان لذلك ولأجل التعريف بشأن من يصلى عليه الذى أفرده الله تعالى فى كتابه العزيز أنه أفضل خلقه على الإطلاق. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ولما قتل الحاكم بأمر الله أمرت أخته المؤذنين أن يقولوا فى حق ولده السلام على الإمام الظاهر ثم استمر السلام على الخلفاء بعده إلى أن أبطله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأمر أن يقال قبل أذان الفجر فى كل ليلة بمصر والشام السلام على رسول الله واستمر ذلك إلى سنة سبعمائة وإحدى وثمانين ثم جعل عقب عشاء كل ليلة جمعة بالخصوص الصلاة على رسول الله

ثم أول ما زيدت الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد كل أذان فى زمن السلطان المنصور حاجى بن الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون بأمر المحتسب نجم الدين الطنبدى لرؤية رآها بعض المعتقدين كما قال العلامة المحقق فى الدر المنضود لابن حجر وذلك فى شعبان سنة سبعمائة وإحدى وتسعين هـ بعد كل أذان إلا المغرب والصبح لضيق وقتهما واستمر الأمر على ذلك إلى الآن — كذا نقله العلامة الشيخ سليمان الجمل العجيلى عن البرماوى فى حواشى شرح المنهج.

استدراك

قال صاحب مجلة الاعتصام لسان حال السبكية الذين يسمون جمعيتهم الجمعية الشرعية. منتقدا وداعيا بالسوء على من رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنام يرشد المسلمين إلى الصلاة والسلام عليه عقب الأذان، طاعنا فى ذلك الرائى للخير قائلا هل من يرى رسول الله يأمره بأمر فى الدين هل يصدق بعد التشريع وبيان الأحكام؟

نقول له هل من يرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطعن فيه ويذم نعم. يطعن فيه كل من لا يدرى مقام الرائين لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وتجهل حال الرائى والرؤيا

والمرئى صلى الله تعالى عليه وسلم هل أمره بحكم جديد فى الدين لم يك واردا . تباله.

وأما قوله بأمره بحكم شرعى ، فهو حكم شرعى مأمور به فى الكتاب والسنة والفرض من الرؤيا لفت نظر الرائى إلى هذا الحكم الشرعى المراد تنفيذ إعلامه.

وفى الرؤيا التى هى جزء من الوحى . إشارة لطيفة . من عالم الرؤيا بالصلاة والسلام على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم عقب الأذان الذى كان مبدأ تشريعه الرؤيا وقد رأى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم — الأذان من جبريل وسمعه من كل ملك فى كل سماء ليلة المعراج على ما قرره الأفاضل شراح حديث المعراج . وهو فى صحيح السيرة النبوية التى هى أول مدون من سنة سيد العالمين . بهذه الألفاظ المعروفة لنا الآن . ولم يصرح به صلى الله تعالى عليه وسلم حتى فى قوله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة) الآية . إلا بعد أن أوحى الله تعالى إليه به — ورآه من رآه من الصحابة .

فهل لو بقى الأمر من وقت أن أخذوه بالسلام على الأمراء والخلفاء إلى وقتنا هذا — هل أحد يستطيع أن يرجعهم عنه ؟ أم الأحسن الصلاة على رسول الله كأمر الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ثم إن لرؤية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باظهار الصلاة والسلام عليه بعد الأذان . لم يكن فيها مجال للطعن على الرائى لعدم مخالفتها التشريع ولا استحداث ما ليس له أصل فى الدين حتى ينكر على الرائى . كيف لا ورؤيا رسول الله حق لا يتدخل الشيطان فيها كما رواه العدول الثقات .

ولا يخفى أنها شبيهة أو أخف رؤيا خازن الدار لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه على ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وابن سعد — أن خازن الدار لعمر بن الخطاب رضى الله عنه جاء إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قبره — وقال يا رسول الله أدع الله لأمتك . وكانوا قد قحطوا فرأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى ليلته يقول له : قل لعمر يستسقى للناس وقل له القصد القصد يا عمر . فجاء إلى عمر وأخبره بما رأى فجعل يبكى ويقول والله يا رسول الله لم آل جهدا وأخذ العباس رضى الله تعالى عنها واستسقى وفى أخذ عمر العباس دون من هو أفضل منه فى الصحابة لعله من حين وقعة بدر أن الله تعالى يحبه فتوسل إلى الله تعالى بأحب العباد إليه وفى هذا إشارة للتوسل بالذوات .

فهذه رؤيا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تنذت فى حكم شرعى معلوم من الدين لم تكن هذه كرؤية من رأى إعلان الصلاة والسلام المأمور به على حضرته بعد الأذان فهؤلاء المنكرون هم المعنيون بقوله تعالى أوعلى قدم من قال تعالى فى شأنهم (فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

ترغيب، وتحذير ، ووعيد

لا يخفى على من رزقه الله نور اليقين أن الله سبحانه وتعالى خلق عباده أهل الخطاب ليعرفوه . ولا يعرفونه تعالى إلا عن طريق المرشدين من الأنبياء والمرسلين واتباعهم وبما نصبه لهم من الآيات فى مكوناته جميعها . ومنهم من خلقه مطبوعا على معرفته تعالى مدفوعا بفطرته الطيبة إلى التعلق على الدوام بربه وحب الأنبياء والمرسلين وعامة الصالحين وهو أقرب طريق فى الدلالة عليه جل وعلا . وجعل لسيد العالمين مزية خاصة على جميع الأنبياء والمرسلين وهى كثرة الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم حتى من دأب على ذلك ولازم عليها صار من المقربين — ولا يتقرب إليه تعالى إلا بهذه الوسيلة فأمرهم والأمر للوجوب بقوله تعالى قال (صلوا عليه وسلموا تسليما) أى بالدوام والاستمرار .

والتحذير

لا يخفى أن الله سبحانه وتعالى حذر عباده عن مطلق إيذائه صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) الآية وفى عدم الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وعدم الاعلان بها وعدم تنبيه الناس بالصلاة عليه لها إعراض عن ذكره وذكر الذاكرين لله تعالى ولحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم — أفلم يكن منع هؤلاء المانعين للصلاة والسلام عليه بعد الأذان خصوصا بعد أن أجمع عليها علماء الأمة الإسلامية من الإيذاء لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كانت الآية الكريمة تتناول أكثر من ذلك

وعيد

أو لم يخش هؤلاء المانعون للصلاة والسلام عليه بعد الأذان أن يدخلوا فى الوعيد

الشديد لخروجهم على إجماع المسلمين ذلك الخروج المبين فى قوله تعالى(ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم « عليكم بالجماعة فمن فارق الجماعة قيد شعرة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » وقال « يد الله مع الجماعة »وقال فى معنى الجماعة (السواد الأعظم) أى من المسلمين.

أو لم يخشوا أن يدخلوا تحت الوعيد بمنعهم ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وما يترتب على منعهم من عدم الصلاة والسلام من السامعين للصلاة والسلام عليه بعد الأذان فيكونون بذلك قد آذوا الله ورسوله الذى جاء به الوعيد الشديد فى قوله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) نسأل الله تعالى السلامة والعفو والعافية (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

الفصل العاشر

فى حكم الصلاة والسلام على رسول الله بعد الأذان من الكتاب والسنة والإجماع

لا يخفى على كل ذى عقل سليم أن كل مخالف خارج عن إجماع المسلمين أنكر حكم الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الأذان بدعوى أنه لم يفعلها صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أنها لا تكون إلا سرا

نقول : إن الله سبحانه وتعالى أمر عباده المؤمنين بالصلاة والتسليم على حضرته بدون شرط ولا قيد ولم يخصها بزمان دون زمان ولا حال دون حال ولا بالسر ولا بالجهر ولا بالقيام ولا بالقعود، بل قد رغب سبحانه وتعالى عباده بالثواب العظيم لكل مصل عليه بما جاء فى بيان السنة من مثوبة الله تعالى لعبده المصلى عليه حتى أجمع أفاضل الأمة على أنه لا يعادل ثواب القرآن أى نوع من العبادة إلا الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . وأن الأعمال تحبط برفع الصوت فيها جهرة وأن الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يحبطها أى رياء ولا رفع الصوت بها جهرة

ثم إن الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم يجب أن تكون بأية صيغة من الصيغ المشروعة من بيانه الشريف وبأى لفظ يشعر فيه بعظم قدره العظيم مما أخذ من ذلك البيان الكريم من طرق حديث تعليمه صلى الله تعالى عليه وسلم الأمة كيف تكون الصلاة عليه — فبين فى الصيغة الابراهيمية طرقا متباينة الألفاظ والمعانى ثابتة الأركان والمبانى على ما سنبينه إن شاء الله تعالى .

فأفاضل الأمة أجازوا التنويع فى الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بقدر معرفة المصلى وبقدر علمه بشىء من مزاياه الشريفة — وهاك شيئا مما بينه أفاضل الأمة

قال العلامة الألوسى فى الجزء السابع من تفسيره طبع بولاق ملزمة ١٢ ، ١٣ — قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) صلوا عليه أى عظموا شأنه فانكم أولى بذلك والأمر فى الآية للوجوب . بل أجمع الأئمة والعلماء عليه — وقالوا : يجب الاكثار منها من غير تعيين بعدد — وقيل : تجب فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم مرارا — وقيل : تجب فى كل دعاء — وقيل : تجب كل ما ذكر عليه الصلاة والسلام . سواء سمع ذكره من غيره أو ذكره بنفسه . وأنها تجب على المؤذن . وسامعه — والقارىء المار بذكره —

أقول ومن فسره بذلك : أراد أن المراد بالتعظيم المأمور به ما يكون بهذا اللفظ ونحوه مما يدل على طلب التعظيم لشأنه عليه الصلاة والسلام من الله عز وجل لقصور وسع المؤمنين عن أداء حقه ، وما جاء فى الأخبار إرشاد إلى [illegible] كان شأن المؤمنين عدم استطاعتهم القيام بحقه والتعريف بقدره عرفهم صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرفعوا ذلك إلى العليم الخبير بقوله قولوا اللهم صل على محمد الحديث

وجاء ذلك على عدة أوجه والجمع ظاهر أخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة ، والإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخارى ، ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن مردويه عن كعب بن عجرة رضى الله تعالى عنه قال قال رجل : يارسول الله : أما السلام عليك فقد علمناه . فكيف الصلاة عليك ؟ قال قل : اللهم صل على محمد وآل محمد . كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد . كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وأخرج الإمام مالك والإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم ، عن أبى حميد الساعدى أنهم قالوا : يارسول الله : كيف نصلى عليك ؟

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وأزواجه وذريته. كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وأخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم، عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا يارسول الله: كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وأزواجه وذريته. كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد

وأخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن أبي سعيد الخدري. قلنا يارسول الله: هذا السلام عليك قد علمنا. فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم.

وأخرج النسائي وغيره عن أبي هريرة أنهم سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد. كما صليت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم.

وأخرج الإمام أحمد وعبد بن حميد وابن مردويه عن ابن بريدة رضي الله عنه. قال: قلنا: يارسول الله: قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال. قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم إنك حميد مجيد إلى غير ذلك مما ملئت به كتب الحديث

ونقل عن جمع من الصحابة ومن بعدهم أن كيفية الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم لايوقف فيها مع النصوص. وأن من رزقه الله تعالى بيانا. فأبان عن المعاني. بالألفاظ الفصيحة المباني ـ الصحيحة المعاني: مما يعرب عن كمال شرفه صلى الله تعالى عليه وسلم وعظيم حرمته فله ذلك ـ واحتج له بما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن ماجه وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إذا صليتم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه. فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه. قالوا: فعلمنا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة. اللهم ابعثه مقاما محمودا يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

وفى قوله : سبحانه وتعالى (صلوا عليه وسلموا تسليما) رمز خفى إلى طلب تحسين الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام . حيث أتى به كلاما يصلح أن يكون شطرا من البحر الكامل فتدبره . فإنى أظن أنه نفيس . واستدل النووى رحمه الله تعالى بالآية . على كراهة إفراد الصلاة عن السلام وعكسه لورود الأمر بهما معا فيها .

قال النووى فى الروضة : لو حلف ليصلين على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل الصلاة لم يبدأ إلا بتلك الكيفية . ونقل الرافعى عن المروزى أنه يبرأ اللهم صل على محمد وآل محمد كلما ذكرك الذاكرون وكلما سها عنه الغافلون . وقال القاضى حسين طريقة البر . اللهم صل على محمد كما هو أهله ومستحقه . واختار البازى أن الأفضل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد أفضل صلواتك وعدد معلوماتك . وقال الكمال ابن الهمام . كل ماذكر من الكيفيات موجود فى اللهم صل أبدا أفضل صلواتك على سيدنا عبدك ونبيك ورسولك محمد وعلى آله وسلم عليه تسليما وزده شرفا وتكريما وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة .

واختار ابن حجر الهيتمى غير ذلك ونقل ابن عرفة عن ابن عبد السلام أنه لابد فى السلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يزيد تسليما أن يقول : اللهم صل على محمد وسلم تسليما. أو صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما. وكأنه أخذ بظاهر ما فى الآية. اهـ من الألوسى

هذا هو العلامة الألوسى الذى يعتبر آخر مفسر الجامع لأقوال الأفاضل من المتقدمين للفسرين بأن الصلاة والسلام على رسول الله واجبة على أفراد المؤمنين ومن بينهم المؤذنون وأن لا تخصيص ولا التزام بالإبراهيمية فقط بل يصلى بما شرحه وبينه أفاضل العلماء العاملين من الصيغ المتقدمة ونحوها وهذا هو وجه استدلال أفاضل الأمة على التنويع فى صيغ الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وسلم

استدلال العلماء على جواز الصلاة والسلام بعد الأذان

قد استدل أفاضل الأمة على جواز الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الأذان وجهر المؤذن بها باستنباطات منها ما أخذ من بيانه الشريف حيث أمر بحكاية السامع للأذان فقال «قولوا مثل ما يقول ثم صلوا على » الحديث ولا يخفى أن حكاية الأذان لا تكون من السامع إلاسرا والأذان للمؤذن جهرا . وذلك من متبادر منطوق اللفظ الشريف إذ أنه قد وقع التنبيه من حضرته بالصلاة عليه فى وقت تعليمه

الأمة حكاية قول المؤذن للأذان وفيه الإشارة والتنبيه للمؤذن بزيادة الصلاة عليه بعد الأذان وأن السامع أيضا يحكي الصلاة والسلام عليه لأجل أن لا يحرم ثواب حكاية الأذان والصلاة عليه – وإن كان لم ينفذ فعلها بهذه الكيفية في زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة لأن الزمن الذي شاء الله تعالى إظهارها والجهر بها فيه ؟ لم يأت بعد ولم يولد من يظهر الله على يديه ذلك . فاستحداثها من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من سن سنة حسنة » الحديث وقوله « من أحيا سنتي فقد أحبني » الحديث . واعلم أنها من سنة الأقوال – وإن تشأ فقل علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بأسرار الوحي أن الصلاة والسلام عليه ستزاد في المستقبل بعد الأذان فأمر السامعين بحكايتها كما يحكون الأذان ليحصل لهم الأجر في الأمرين ويجهر المؤذن بها ليكون سببا في صلاة كل مصل على حضرته من السامعين فيؤجر بأجر المصلين على حضرته في هذا الوقت وهذه المناسبة .

وقد أخذوا كونها مطلوبة من المؤذن بعد الأذان من بيانه الشريف أيضا لأنه ليس من المعقول أن يأمر السامعين فقط والمؤذن لا يدخل تحت الأمر لأنها واجبة على كل مؤمن وعلى من يسمع ذكر النبي أن يقول على الأقل اللهم صل عليه لأن كثرة اشتغال الناس بالدنيا تجعلهم في الغالب غافلين فلا يصلون على حضرته إلا بذكر اسمه – ودخول المؤذن في عموم أمره صلى الله تعالى عليه وسلم واجب . وقولهم لا يصلي عليه إلا سرا بعيد جدا . إذا لا يتفق مع قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (قولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي) ولا يعرف السامعون ما يقول المؤذن إلا إذا كان الأذان جهرا . وإن قيل إن السامع يقول سرا في حكاية الأذان والصلاة عليه أيضا فالمؤذن أيضا يقول سرا . فإنا نقول إن المطلوب من المؤذن الجهر بالأذان فالصلاة بعده على حضرته لا تكون منه إلا كذلك

ومن فوائد الجهر بها بعد الأذان أمور منها سماع من يريد حضور الجماعة ممن فاتهم سماع الأذان لأمر ما خصوصا وقد كثر الشغل في أيدي الناس ومنها الجهر بتعظيم شأن سيد العالمين ومنها الإطالة في إظهار الشعائر وإعلان الحرص على ذلك والحب البالغ لله ورسوله لابتهاج المؤمنين وغيظ الملحدين والكافرين هذا هو وجه استدلال عقلاء الأمة وإجماعهم على الجهر بهما ليعم النفع وتتم الفائدة .

قول المؤذن يا أول خلق الله ويا نور عرش الله ويا مليح الوجه ويا رحمة الله ويا من على بساط النور أجلسك الله وغيرها من أنواع الصيغ . . .

لا يخفى على العقلاء أن إنكارهم الصلاة والسلام على رسول الله بعد الأذان ليست لزيادتها فحسب بل إنما ينكرون هذه الألفاظ ومعانيها العالية لأن عقيدتهم في سيد العالمين جعلتهم على قسمين .

فمنهم : من يستعظم هذه الألفاظ ويستكثرها على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم لفرط جهله بمعنى الآيات الدالة على بشريته التى ماجعلها الله تعالى إلا لاقتداء البشر بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا الفريق الزائغ لا يعطى النبى من المزايا أزيد مما يعطى غيره من البشر من كل الوجوه . فيستكثر ذلك على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ومنهم من ينكرها حسدا وتعمقا فى المعارضة لإجماع المسلمين جريا على طريقة أسلافهم الضالين فهم على قدم المنافقين فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد قيل عن بعض هؤلاء الضالين: إنه لم ينته به الأمر إلى دعوى الاجتهاد فحسب بل كان يطمع فى دعوى الرسالة لمله الفاسد وعقيدته الزائغة . أن الرسالة والنبوة تكتسب بالجد والاجتهاد والدعوة فى أقوام لايفقهون . وله العذر لأنه بعيد عن فهم أن النبوة والرسالة إنما تكونان بمحض فضل الله وكرمه يخص بهما من يشاء من عباده كيف؟ وقد قال تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته) الآية . نقول : إن اختيار المصلى على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الأذان للفظ يا أول خلق الله وغيره . وسكوت أفاضل الأمة وهم علماؤها على ذلك ما هو إلا مقيد لإجماعهم على صحته وكان هذا كافيا فى الدليل على ذلك إذ أن الله تعالى حباه صلى الله تعالى عليه وسلم مزيد فضل على فضل . وخصه بأشياء لم يخص بها غيره من المفضلين من خلقه . وقد جعل له سبحانه وتعالى مزايا لم يشاركه فيها غيره من جميع المفضلين من الأنبياء والمرسلين .

وها هو القرآن الكريم الذى جمع جميع ما فى الكتب السماوية وجميع الشرائع الإسلامية شرائع الأنبياء والمرسلين . بين لنا سبحانه وتعالى فيه أنه لم يوجد أفضل منه من سائر خلقه. وحيث كان كذلك فليس فوقه فى الفضل إلا الله تعالى . مع العلم بأن الوجود كله فى نظر العقلاء عبارة عن ، عبد ورب ، بدليل قوله تعالى (إن كل من السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا) الآية والمقرر عقلا ونقلا أن العبودية حادثة فلا بد لها من أول . وحيث كان صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل خلق الله فهو أول خلق الله قال تعالى ردا على زعم الضالين (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول

العابدين) فالعاقل يحرص على لفظ أول فى كل تأويل عند أهل التأويل ؛ إذ منهم من يقول أول من يعبد ذلك الولد ـ على زعم الضالين ـ ومنهم من يقول أول من يعرف أن كان لله ولدا ومنهم من يقول أول الرافضين أن لله تعالى ولدا . ومنهم من يقول لكنت أنا ذلك الولد لأنه لا يوجد أكرم منى على الله تعالى ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ

ولا تنس أن الله سبحانه وتعالى لم يقلها لأحد من خلقه المفضلين سواه صلى الله تعالى عليه وسلم . وإن كان قد قال جل وعلا لغيره من المفضلين (أول المسلمين) ، (أول المؤمنين) وحضرته كذلك . قاله مثل قوله تعالى لهم . ولكن (أول العابدين) لم تقل لغير حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فالقائل يا أول خلق الله . ما نطق إلا بالحق وما أتى إلا بالصدق فإن قال قائلهم : كيف ذا . وهو آخر الأنبياء والمرسلين؟

فقل له : أو لم تتنبه لآدم عليه السلام وهو وبنوه أفضل المخلوقين ولم يوجدهم الحق عز وجل بشرا على وجه الأرض إلا بعد أن أوجد لهم كل شيء قال تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) وفى آية أخرى (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) فكذلك حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم لم يوجده الحق عز وجل ببشريته إلا بعد أن أوجد له كل المفضلين من الأنبياء والمرسلين . فكانوا بحضرته لأنهم خير معرفين . هذا هو الدليل العقلى . وأما النقلى فقد قال تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فبصريح كلام رب العالمين أن الأنبياء والرسل نواب عن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاغ فهو رسول الرحمة الشاملة لجميع عباد الله تعالى قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أى لجميع من شاء الله تعالى إبداعه دنيا وأخرى من جميع محدثاته . لتعلم أن رسول الخير واحد ورسول الشر واحد

فالقائل يارحمة الله ما أتى إلا بالصدق والصواب الموافق للسنة والكتاب

ومتى عرفت ذلك فقد عرفت أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ليس بنور عرش الله فحسب بل نور الوجود بأسره . ولما كان العرش أعظم خلق الله تعالى أقر العلماء قول المؤذن يانور عرش الله والعرش العظيم الكريم جسمه من النور وما نوره إلا من نور حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم إذا أن العرش مخلوق والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أول خلق الله.

قال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله) الآية . فعلم أنه أكمل خلق الله تعالى فى كل شىء مصداق قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وحيث كان كذلك . فتكون ذاته أكمل الذوات ومن الكمال نهاية الجمال وأنه يعبر عن الذات بالوجه فمن قال يا مليح الوجه فقد أتى بالحق والصدق . ومن أنكر ذلك فقد قصر عقله عن إدراك معانيها .

وأما قول المؤذن يامن على بساط النور أجلسك الله فقد ثبت فى السيرة المحمدية التى هى أول مؤلف فى السنة فى الدين الإسلامى كيفية مروره صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة المعراج فوق العرش إلى المكان الذى أعده الله تعالى فوقه لحضرته لفرض الصلاة عليه وعلى أمته . فجعل يقول صلى الله تعالى عليه وسلم التحيات لله . الزاكيات لله . الطيبات الصلوات لله . قال الله عز وجل : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فقال كل ملك . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

ولا يخفى أن ما يمر عليه الشخص خصوصا فى هذه الأمكنة النورانية لا يتصور ما تحته من العناية والرعاية والرفاهية فى هذه البقاع النورانية إلا ما يتناسب مع كل هذه المقامات بالبساط حتى يعبر عنه عند الوصف بما يليق بهذا المكان والمقام . فمن قال : يامن على بساط النور أجلسك الله . فقد صدق . وهذا طبعاً لم يصدر إلا من العارفين الذين عرفوه المؤذنين ليحكوه للناس من مميزات حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم

ألا ترى من قال من العارفين الذى شاء أن يخمس الهمزية عند قبره الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم وجلس يكتب :

بابن عمران شرفت سيناء وبإدريس والمسيح السماء

ولك العرش موطىء ووطاء كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم من داخل القبر الشريف. كفى . فاكتفى على ذلك وخلاصة القول فلا يتعرض بالنقد والانتقاد على ألفاظ المحبين . إلا كل شقى لم يفطن إلى قوله تعالى (صلوا عليه وسلموا تسليما) على ماقدمنا . وأما حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أجمع علماء الأمة الإسلامية لا يعرف قدر محمد إلا رب محمد

الضالون من الخوارج يعدون ذلك مغالاة وزيادة إطراء . وذلك لعمى قلوبهم وطمس بصائرهم عن فهم الحقائق إذ نظروا إلى بشريته التى جعلها الله سبحانه وتعالى للاقتداء به فى كل ما يجريه على بنى البشر فى الحياة الدنيا . ثم لفت نظرهم بقوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وهذه الآية كافية فى الدلالة على أن الاقتداء به صلى الله تعالى عليه وسلم هو السبيل الوحيد إلى رضوان الله تعالى وقد خلقه الله تعالى جامعا بين البشرية والنورانية كما جعل عيسى عليه السلام عن ملك وبشر. فلطمس بصائرهم لم يفهموا إلا البشرية فقط كالنصارى لم ينظروا فى عيسى عليه السلام إلا إلى النورانية فقط

فترى هؤلاء المعارضين يحكمون على من يشيد من أهل الحق بمميزاته الشريفة بأنه ضال ومتغال ومطر فوق الحد . لفهمهم أنه كان كالبشر من كل الوجوه لجرى العوائد البشرية عليه صلى الله تعالى عليه وسلم . واستدلوا بمثل هذه الآية التى لايعقلون لها معنى (قل إنما أنا بشر مثلكم) فقل لهم أكملوا الآية وهو قوله تعالى (يوحى إلى) وهل أنتم يوحى إليكم ؟

إذا فهو صلى الله تعالى عليه وسلم ليس كالبشر من كل الوجوه — وأيضا استدلوا بمثل هذا الحديث الذى لا يعقلون له معنى أيضا (لاتطرونى كما أطرت اليهود والنصارى أنبياءهم) إذ معناه لاتمدحونى مدحا يخرجنى عن كونى عبد الله ورسوله كما غالت اليهود فى عزير وجعلته ابن الله وغالت النصارى فى عيسى كذلك . وماذكر ذلك صلى الله تعالى عليه وسلم إلا لبيان الفارق بين المؤمنين والكافرين . وهل أحد من المسلمين والحمد لله أو من المادحين لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم قال كما قالت اليهود أو النصارى طوال هذه الأزمنة حتى يعد مغاليا فوق الحد؟ وهل يعد مغاليا مطريا من يذكر الحقائق التى خصه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء والمرسلين ؟ .

قل لمن يقول إنه بشر مثلك . هل أحد من المفضلين من آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام كان مثله حتى يقول هذا الضال مثلك مثله ؟.

ومن ذا الذى عرج به ولو إلى سماء الدنيا ورجع يحدث عن ملكوت السماء مثل حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ ومن شق صدره من الأنبياء والمرسلين مثل صدره الشريف

صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ ومن كان مثل حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم يأتيه الوحى نورا يتخلل جسده الشريف حتى يخرج عن العوائد البشرية إلى لجاج عالم النور والروحانية فتترك ناقته من تحته لعظم ما اتصل بجسده الشريف من روحانية ونور ؟ من كان مثل حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أقسم الله تعالى به فى كتابه العزيز (لعمرك) ومن كان مثله فى عناية الله تعالى به حتى قال له (واصبر فإنك بأعيننا) ومن مثله خلع الحق عز وجل عليه من أسمائه الكريمة رؤوف ورحيم والهادى والحق وغير ذلك من أسمائه الشريفة . ومن الذى خاطبه الحق عز وجل بالألقاب الشريفة (يا أيها النبى) و (يا أيها الرسول) وجميع المخاطبين من المفضلين بالأسماء مجردة وكفى

وقد وفيت الكلام فى غير هذا المقام فى كتابنا [فيض الوهاب فى بيان ما ضل فيه ابن تيمية ومن على مبادئ ابن عبد الوهاب] نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

الخلاصة

فتلخص لك مما تقدم أن الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بعد الأذان من بيانه الشريف والعمل بها من سنة الأقوال التى يعمل بها فى الزمن الذى شاء الله تعالى إظهارها فيه وهذا هو حكمها عند السادة الشافعية والحنابلة امتثالا لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم (صلوا على) الحديث وعلل بعض الشافعية سنيتها لما فيها من استذكار السامعين الصلاة والسلام عليه صلى الله تعالى عليه وسلم

وهى عند الحنفية والمالكية ـ بدعة حسنة ـ وقولهم : بدعة ؛ لأنها لم تفعل بهذه الصفة فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم . وقولهم : حسنة ؛ لأن أصلها من الدين ـ وكان يكفى المنكرين للصلاة والسلام بعد الأذان الرجوع إلى كتاب الفقه فى المذاهب الأربعة لوزارة الأوقاف ولحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من البيان فى مستحدثات الزمان ما تقصر عقول الضالين عن الوصول إلى حقيقة معناه كما قدمنا . وإلا لم يكن لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من سن سنة حسنة » الحديث معنى ـ وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « من أحدث فى ديننا هذا ما ليس منه فهو رد » الحديث يفيد هذا المعنى إذ مفهومه من يحدث

فى الدين ما هو منه فليس برد ، والمردود إنما هو الذى لا أصل له فى الدين خصوصا بعد أن أخبر عز وجل فى كتابه العزيز على من لم يعرف هذه المستحدثات من مثل هؤلاء الملحدين وبيان حال الخارجين بقوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) وأى ذكر بعد هذا الذى ينكره الخوارج عن إجماع المسلمين بعد أن جاء عن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيان شأن المحدثات وأنها واقعة لا محالة بقدرة الله الحكيم العليم بأفعال عباده بقوله « تحدثون ويحدث لكم » الحديث، وقد رفعه أهل الحديث من طرق شق . ولكن لما كان المحدث على حالتين كما جاء فى بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم أن من المحدث ما هو حسن ومنه ما ليس بالحسن قال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما ليس بحسن « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة » الحديث ، ومن المعلوم أن المحدث هو الذى يحدث بعد أن لم يكن من قبل. فلبدا أمره يقال له بدعة . والبدعة هذه ينظر فيها العلماء من الأمة . إما أن يكون لها أصل فى الدين — أم لا — فالتى لها أصل فى الدين يسمونها بالبدعة الحسنة . لأنها من الدين كما تقدم فى الحديث كالصلاة والسلام بعد الأذان — وكقسم الزواج كما قدمنا —

وإن لم يكن لها أصل فى الدين فهى الرد أو الضلالة التى يكون صاحبها فى النار وأنت تعرف أن من البدع ما هو واجب كتعليم الأدلة التى تقطع ألسنة الملحدين . وكتعليم الآلات الحربية التى تقطع دابر الكافرين .

فقول من يقول على البدعة الحسنة التى لها أصل فى الدين ضلالة فإنما ذاك القول ضلالة منه هو — فقد أجمع عقلاء الأمة أن البدعة الواردة فى الحديث هى من قبيل العام المخصوص — والله أعلم

الفصل الحادى عشر

فى قراءة سورة الكهف يوم الجمعة

يقول كل خارج عن إجماع المسلمين إن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة بدعة سيئة — دليلهم على ذلك أنها لم تكن فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين — وأنها تشوش على المصلين والذاكرين لله تعالى فى المسجد .

نقول لهم : ـ أما إنها لم تكن فى زمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه الكيفية ـ فقد قدمنا الكلام عنه فى الأذان والصلاة والسلام على رسول الله بعد الأذان

ويمكننا هنا أن نقول لهم : ـ جاء العمل بها فى بيان السنة المطهرة والقرآن المجيد . غير أنه لم يكن جاء الزمن الذى شاء الله تعالى تنفيذ العمل بها فيه . وهو زمن تابع تابع التابعين وقد أجمع على قراءتها خيار الأمة الإسلامية وهم علماؤها ـ ولا تنسى الوعيد الشديد من الله تعالى لكل مخالف لإجماع المسلمين على ما جاء فى بيان الدين خصوصا الأحكام التى تفعل ولها أصل فى الدين من كتاب رب العالمين وبيان سيد المرسلين.

فما أجاز هؤلاء الأفاضل قراءتها إلا أخذا من هذا البيان الشريف لما فيه من كبير الفائدة التى تعود على مصلى الجمعة الذين تقرأ عليهم سورة الكهف التى هى من القرآن الذى وعد الله تعالى عباده بالثواب لتاليه والرحمة لسامعه إذ قال عز من قائل (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) فالسامع للقرآن مطلقا لا يخلو من الرحمة بوعد الله العزيز الحكيم ولقول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « ماجلس قوم فى بيت من بيوت الله عز وجل يتدارسون كتاب الله إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة) فالمستمعون للقارئ كالسامعين للدارس له . والتالى له كالمدرس لهم فهم فى هذه الحالة أولى وأقرب وأرجى لرحمة ربهم من المصلين لتحية المسجد ـ أو الذاكرين . وقلوبهم مشغولة بالمارين بين الصفوف أو المسلمين من الداخلين عليهم وهم أيضا أرق وأفضل من الساكت أو المتكلم مع من بجواره خصوصا وإن تحية المسجد بين صلى الله تعالى عليه وسلم بما يقوم مقامها وهو قوله الشريف « إذا دخلتم المسجد فارتعوا قيل وما الرتع يارسول الله قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » الحديث . وأنت تعلم أن قلوب المصلين مشغولة والذاكرين كذلك وقد لا يقبل منهم الذكر والصلاة . لهذه المشغولية وإن السامع للقرآن قد جمع بين الحسنيين تحيته المسجد ورحمته لاستماع القرآن .

قال العلامة القرطبى قال الليث بن سعد الإمام : يقال : بالرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن لقوله تعالى (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ولعل من الله واجبة . وقال : وإذا كان هذا الثواب لمستمع القرآن فكيف بتاليه :

قال : وفى الخبر أنه يدفع عن مستمعه بلوى الدنيا وعن تاليه بلوى الآخرة .

وقال: وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

« من استمع إلى آية من كتاب الله له ألف حسنة مضاعفة ومن تلى آية من كتاب الله تعالى كانت له نورا يوم القيامة » خرجه الوايلى أبو نصر من حديث إسماعيل ابن عياش عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس فذكره .

وقال : قال ابن عباس « من سمع آية من كتاب الله تعالى كانت له نورا يوم القيامة »

فلهذا يا أخا العقل أجمع الأفاضل على جواز قراءتها وسنيتها فهى من سنة الأقوال على ما سنبين لك إذ السماع للقرآن أفضل بكثير من الصلاة والذكر والسكوت فى المسجد لأن الرحمة له محققة من الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فهذا يا أخا الإسلام والمسلمين فى قراءة أى شىء من القرآن

تخصيص القراءة يوم الجمعة بسورة الكهف

ما خصص العلماء القراءة بسورة الكهف يوم الجمعة إلا لأنها من سنة الأقوال عنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما ورد فى بيان فضلها ومزاياها فى هذا اليوم خاصة عن الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى من الأحاديث الصحيحة الواردة فى شأنها .

منها مارواه أصحاب السنن والمسانيد وتلقاها منهم وعنهم أفاضل الأمة الإسلامية فقد روى النسائى فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين »

وقال صاحب الدر النظيم اليافعى رضى الله عنه فى خواص القرآن الكريم وفى فضائل سور القرآن : قال : فى مسند الدارمى ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ألا أخبركم بسورة ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض ولتاليها من الأجر مثل ذلك من قرأها يوم الجمعة غفر له ما بين الجمعة والجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بعثه الله لأى الليل شاء ومن قرأها يوم الجمعة أعطى نورا بين السماء والأرض ووقى ضمة القبر وفتنة الدجال وأعطى نورا ما بينه وبين مكة »

وفى مسند الثعلبى : قال : وقال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض ولتاليها مثل ذلك . قالوا بلى يارسول الله قال سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء ووقى فتنة الدجال »

هذا الحديث ذكره أيضا العلامة القرطبي في تفسيره وفي تذكرته وفي الرسالة المخطوطة له ، المسماة . ذكر ما ورد من الأخبار في فضل سور القرآن وذكر آيه . تحت رقم ٢٤ علوم القرآن بدار الكتب الكبرى بالأزهر - لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي : قال العلامة المذكور . ولا يصح ما للبخاري في التاريخ أن إسحاق ابن عبد الله بن أبي فروة : متروك . وهو أبو سليمان مولى عثمان بن عفان القرشي : قال : لي أحمد بن أبي الطيب عن أبي الفديك مات سنة ١٣٦ ست وثلاثين ومائة يثني أحمد بن حنبل عن حديثه .

وفي مسند الدارمي أيضا : عن أبي سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ أول سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق »

وفيه أيضا : قال معاذ بن جبل : قال النبي صلى الله عليه وسلم (من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من السماء إلى الأرض وذكره الثعلبي أيضا

لهذه الأحاديث الصحيحة المتعددة الطرق اختار أفاضل الأمة قراءتها يوم الجمعة ولمانيها من لفت نظر الناس لقراءتها خصوصا لمن قصرت هممهم عن أسباب معرفة ذلك لتوجيههم لما فيه من الخير واستدامة واستمطار الفضل الرباني « إن الله لا يمل حتى تملوا » الحديث وليتال السامع هذا الأجر العظيم مع التالي لها أيضا خصوصا وأن كل من وفق لبناء المساجد كان أحرص الناس على نيل الحسنات فجعل للتالي لهذه السورة أجرا ثابتا ليعود عليه ثواب ما يتلوه القارئ لما في ذلك من مزيد فضل وكبير أجر .

ولهذا شدد الأفاضل على التالي لها يوم الجمعة أن لا يحيد عن تلاوتها ليثاب هو والمقروءة له (وليتساءل الناس) عن تلك الملازمة لهذه السورة في كل يوم جمعة فيرشدوا لما وردفيها من مزيد الفضل وعظيم الأجر فيرغبوا في قراءتها ولو في المصحف .

ولهذه المرغبات أيضا أجاز علماء الأمة الإسلامية قراءتها يوم الجمعة وملازمة تلاوتها .

وأما من ينكرها أو يحيد عن تلاوتها فقد قصر عقله عن ذلك وعجزت همته عن الوقوف على سبب إجماع خيار الأمة عليها وقد عرفت أن لا حظ لهذا المخالف إلا لاشتهاره بالمخالفة لإجماع المسلمين لهوا في النفس وحظ للشيطان ومعارضة للحق الصريح الواضح .

وكان يكفيهم في مثل هذا العمل من الأحكام الشرعية التي لم يظهر العمل بها في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين إجماع المسلمين ،

على العمل بها لأنهم لايجمعون إلا على كل أمر له أصل فى الدين من الكتاب والسنة. ولا يتبعهم ولايفطن إلى ماهم عليه إلا كل من شاء الله توفيقه وجعله من الأمة الإسلامية الذين امتدحهم فى كتابه العزيز . وممن قال تعالى فيهم (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب)

اللهم إنا نضرع إليك ونتوسل إليك بجاه نبيك عظيم الجاه أن توفقنا والمسلمين أجمعين للعمل لمرضاتك والنجاة عندك يا أكرم الأكرمين .

الفصل الثانى عشر

فى النقد والانتقاد على زعماء الفرق الضالة

عجب عجب عجب. لأقوام عرفوا الضلال والضالين فاتبعوهم وغووا وأسرعوا إلى المخالف فاسترشدوهم . قوم نشأهم الله تعالى على ذلك . فلا حظ لهم فى هذه الحياة إلا حب المحمدة والظهور فيها ولو بالمخالفة لإجماع المسلمين فعرفوا بالمارقين المخالفين

تراهم يعرضون عن اتباع طريق الإجماع هارعين إلى اتباع طريق المخالفين .

قال تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)

نعم قد أبان الله تعالى بهم طريق الشر من الغى والضلال من الهدى فلولاهم ما عرف أهل الحق أنهم على الحق . كيف لا ؟ وهى سنة الله تعالى فى خلقه قال تعالى (فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

فلا غرو فهم على أقدام أسلافهم السابقين الذين جعلهم الله تعالى معارضين للأنبياء والمرسلين . وهكذا كل من نشأ على أقدامهم من أتباعهم وتابعيهم . فهم لايزالون كذلك ، وأهل الحق على حقهم من التابعين إلى يوم الدين قال تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون).

فلا يخفى أن مبدع الكائنات المعبود بحق . واحد . والدين واحد . وطريقته التى اتبعها خيار الأمة واحدة . فما لهؤلاء والمخالفة ؟ فما ذاك إلا أنهم اتباع الشيطان وحزبه قال تعالى (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب

الشيطان هم الخاسرون)

المسلمون يجمعون على جواز كل محدث حسن وله أصل فى الدين خصوصا إذا كان فيه من الثواب والمنفعة للعاملين فيجمعون على حسنه والعمل به وهؤلاء الخوارج المارقون لوجود الزيغ والتشكيك والضيق والحرج فى قلوبهم ينتحلون طرق المخالفة ويجمعون عليها ويعتقدون أنها الحق ويتمسكون بها قال تعالى (ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون) .

أليس هؤلاء الآن على قدم من قال الله تعالى فيهم (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) الآيات .

فهؤلاء من مبدأئهم إلى الآن فرق كما حدث عنها الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم وليست فيها فرقة تتحد أو تتفق مع الأخرى فى جميع مبادئها وما هى عليه فى كل شىء بل كل واحدة منها تعتقد وتجزم أنها هى التى على الحق لاغيرها وكلهم قد ضلوا أيضا فى معرفة الحق ـ وأنه واحد لا يتجزأ .

واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد ذم الفرق فى قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) الآية وقال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) الآية .

وقد امتدح سبحانه وتعالى الأمة الواحدة فى كلامه العزيز بقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) الآية وفى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية وفى قوله تعالى(وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)الآية

ومن العجب أن هذه الفرق الضالة تحسب نفسها أنها هى الأمة . فهل يتصور هذا إلا مجنون منهم ، وإلا فبيان الأمة يرجع فيه إلى من ألزمه الله تعالى التبيين فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيانه الشريف فى معنى الأمة .هى الجماعة . والسواد الأعظم من المسلمين . الذين ورد فيهم من الكتاب والسنة ما ورد . وأنهم على الحق وعلى طريق مستقيم . نسأل الله تعالى التوفيق لذلك .

وهؤلاء إذا نظرت بعين العدالة والانصاف على ماقدمنا من حكم المخالفة . تراهم لا يحاربون ولا يعترضون ولا يعادون إلا أهل الحق من المسلمين . ويرمونهم بالشك

والشرك — المخالفة — ويعتقدون أنهم فى الإسلام هم المصلحون — وهم لا حظ لهم إلا التفرقة . والتشقيق بين المسلمين . كابن عبد الوهاب الذى لا حظ له إلا ذلك . قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لايهدى القوم الظالمين) فيا أخا العقل هل رأيت أحداً من زعماء هذه الفرق الضالة ومن بينهم ابن عبد الوهاب وعلى رأسهم ابن تيمية ومن قبله أسلافه السابقون فى الضلال قام بمحاربة ومعاداة أحد من أعداء الله ورسوله وعمل بآيات الجهاد والحق عليه فيها وبيان سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك — أم تراهم لا يعادون — ولا يحاربون — ويكرهون — ولا يفرقون — ولا يشككون إلا البرآء — والبسطاء — والسذج من أمة ، لا إله إلا الله ، وقد نهى الله تعالى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم عن مقاتلة أهل ، لا إله إلا الله ، بل عن مقاتلة المشركين الذين بيننا وبينهم معاهدة . وهؤلاء يبيحون دم أهل ، لا إله إلا الله — لدعواهم أنهم مشركون — وهم لا يعرفون معنى — لا إله إلا الله — ولا الشرك — ولا الإشراك — قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

ومن أعجب ما ترى أنهم يخالفون ما عليه إجماع المسلمين قاطبة . بما حصرناه فى أول الباب من شبههم المخالفة ويحبون أنهم يحسنون صنعا . ويدعون أنهم هم المصلحون — بل لم يرعوا حال من كان قبلهم من أهل هذه الفرق الضالة المضلة . بأن الله تعالى لم يرفع لهم شأنا يسودون به على أهل الحق لضلالاتهم ولطالما كانت فى أيديهم ناصية الأمور وكثرة أتباعهم — ولكن شاء الله تعالى . أن لا يجعلهم إلا فرقا كذلك . فكل ما اشرأبت أعناقهم قطعها الله بواحد من أهل الحق — وكل ما أوقدت نيرانهم أطفأها الله بوابل من أهل الحق — لكل نمرود إبراهيم . ولكل فرعون موسى . ولكل ضال رادع من أهل الحق ولاتنس أنهم على مبادىء أعداء الله ورسوله الذين يحقدون على رسول الله وأهل الإيمان . ويتربصون بهم الدوائر . ولا يظهر ذلك فيهم ويفشوا وينتشر إلا إذا وصل ليد أحد منهم شىء من مراكز الدنيا الرفيعة فتراه يظهر هذا الشقاق بين المسلمين بالهيمنة على نفاذه ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره قال تعالى (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

ومن العجب أنهم أيضا على قدم أعداء الله ورسوله والمسلمين -وهم الآن المستعمرون- الذين يسعون قصارى جهودهم بكافة الوسائل سياحثيثا فى تحطيم كل ماجاء به الدين وتخلقت به أفراد المسلمين .

فإنا نراهم ينشئون النشء من صغره على حب أخلاقهم وعاداتهم وأعمالهم طارحين - الأخلاق الإسلامية وراء ظهورهم . وأيضا كل من يتصل بهم من ذوى المراكز العالية فى وظائف الحكومات . وتعود نسائهم لذلك . نابذين ماخطه الله عز وجل لعباده من حسن الأخلاق والآداب ومكارمهما . غير مبالين فالمستعمرون يتصاون بمثل هؤلاء الذين لاخلاق لهم فى الدين ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولا بين المسلمين - ويحملونهم على السعي فى هدم ناحية من نواحى الدين وهى تشكيك البرآء من البسطاء السذج فى عقائدهم ومعتقداتهم التى لها الأصالة فى الدين من كتاب رب العالمين وبيان المرسلين حتى أجمع عليها خيار علماء المسلمين -كالحمل - والمولد- والصلاة والسلام على رسول الله بعد الأذان - وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة - وزيارة الصالحين - والتبرك بهم بل بالبقاع التى شاء الله تعالى دفنهم فيها الذين خصهم الله تعالى بالنعمة البارزة من نعمه التى أظهرها فى أفراد عباده متنوعة على مقتضى حكمته العالية بآثار صفاته - والذكر - والتصوف - والصوفية الذين خصهم الله تعالى بالقيام بأحد أركان الإسلام من مصدره ما بقيت الدنيا - ودعاء نصف شعبان وغيره - مما قدمنا من حصر شبهم فى أول الباب .

فهم أداة هدم لأعداء الإسلام والمسلمين فى ناحية من نواحى الدين وإلا فقل لهم:- هل اجتماع الرجال بالنساء فى السينمات والحفلات والدنصات - والكبار يهات -والسير فى الشوارع عراة - والخلوة فى الحوانيت والدكاترة - والمحامين - وصديق العائلة - وترك الرجال والنساء عذابا إلى سن الثلاثين فأكثر من غير زواج - وغير ذلك مما أفسد به عدو الله ورسوله المستعمر الأخلاق - كل ذلك وأشباهه مما يفسدون به الدين.

فيا غيورا على دينه - التفت واعتبر بأن كل مخالف لإجماع المسلمين ناقم على التمسك بالإجماع وماهو إلا معول هدم فى دين الله مع عدو الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم يدلك على ذلك ما يذاع فى الاذاعات الحكومية من شرائط السينمات والحفلات والأغانى الخليعة التى هى أكبر حامل على فساد الأخلاق للشبان والشابات الذين يسمعونها بالألفاظ والنغمات المثيرة للشهوات - وفتح أبواب الشر والفساد خصوصا للنساء والبنات فى البيوت وهن محجبات بريئات (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها)

إدعاء وافتراء

فإن تعجب أيها المتمسك بدينك فاعجب لمخالفتهم إجماع المسلمين من صدر الصحابة اليوم حيث يدعون أن صلاة التراويح ثماني ركعات بدلا من عشرين فانظر يا أخي إلى شذوذهم الذي اتخذوه معارضا للإجماع . مدعين أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصل التراويح إلا ثماني ركعات؟ (وقد كذبوا والله) وأعجب من هذا وذاك أنهم يدعون أنهم علماء مطلعون تبا لهم وسحقا فلو فيهم رائحة علم لاطلعوا ولو على بعض شرح الحديث الآتي المذكور بعد .
وهل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صلى تراويح طول حياته قط ؟ ما أجهلهم بأمور دينهم وتشريع نبيهم اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله إليك البيان يا أخا العقل على مقتضى بيان رب العالمين وسنة سيد المرسلين . إن الله تعالى أمر عباده أن يصوموا رمضان فكذلك من أسند الله تعالى إلى حضرته البيان والتبيين أمرهم بقيامه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث المروى عند أصحاب السنن والمسانيد « إن الله فرض عليكم صيامه وأنا سننت لكم قيامه. » وقال لهم أيضا « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وأراد أن يعلمهم القيام في رمضان على النحو الذي بين صلى الله تعالى عليه وسلم لهم فصلى بهم العشاء ثم احتجر حصرا في ركن المسجد ودخل يصلي فيها فصلى وراءه من كان بالمسجد ثماني ركعات المفروضة عليه طول حياته فأصبح الذين صلوا أخبروا السرعان الذين دائما يخرجون عقب الفرض فكثر الناس في الليلة الثانية أكثر من الأولى فأصبح الناس يتحدثون فكثر الناس في الليلة الثالثة حتى ضاق المسجد بأهله فصلى العشاء ودخل بيته ولم يخرج وانتظر الناس كثيرا حتى حصل منهم ما يشعر بذلك بعضهم يتنحنح وبعضهم يرفع صوته بالكلام يشعر بالإقامة حتى الصبح وعمر بن الخطاب أخذ حصا وألقاه على الباب ففتح الباب وقال « يامعشر الناس لم يخف على مقامكم خشيت أن أخرج إليكم فتفرض عليكم من شاء منكم أن يصلي فليصل ما شاء فقام الناس يصلون جماعات وأفرادا أوزاعا » واستمر الأمر على ذلك حتى جمعهم عمر رضي الله تعالى عنه على قارىء واحد وأمره بعشرين ركعة وصار إجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين على ذلك الذي صار عليه من بعدهم من التابعين وتابعي التابعين وهاجر إلى يومنا هذا بل إلى يوم الدين إن شاء الله تعالى ، ولا يخفى على كل ذي عقل أن إجماع الصحابة هو الإجماع الأول في الدين نقول لهم : هل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شرع في نافلة وقطعها حتى يشرع في التراويح ليلتين ويقطعها؟ كلا وألف

كلا أنظر إلى بيانه الشريف فى الصلاة التى بعد العصر . وهو أن عمر بن الخطاب أرسل جاريته إلى السيدة أم سلمة تسأل له النبى صلى الله عليه وسلم عن الركعتين اللتين بعد العصر ممعناه ينهى عن الصلاة التى بعد العصر وما نراه إلا يصليهما فقالت السيدة أم سلمة عندى نسوة من بنى حرام فادخلى عليه وأقرئيه السلام فإن رد عليك فاسأليه وإلا فانتظرى فكان صلى الله تعالى عليه وسلم فرغ من صلاته فرد فقال « يابنت أبى فراس إن وفد عبدالقيس لما أتونى شغلونى عن الركعتين اللتين بعد الظهر فهاهما هاتان » وحادث فتح مكة الذى انشغل فيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن قيام الليل فقضاه بالكعبة بعد الفتح ومنها صار الضحى ثمانى لمن شاء وهكذا بيان السنة المطهرة فى كل شىء فكيف يصلى صلى الله تعالى عليه وسلم التراويح ولم يقضها بعد وهاهو الحديث المشهور الذى يرويه أصحاب السنن والمسانيد عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها فى قولها (ما زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمانى ركعات لا فى رمضان ولا غيره) فيكون على رأى المخالفين أنه بعد أن شرع للناس كيفية القيام فى رمضان صار عليه فى كل ليلة ست عشرة وما قال بها ضال فضلا عن مسلم . فمن أين لهم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى تراويح . تخزياً لهم تخزياً .

فلو كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى التراويح لنقل به الصحابة ولم يخف عنه عمر ولو غاب عن عمر لحاجه به الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كما حاجته امرأة فى مهر النساء . وكما حاجوا الصديق فى ميراث الجدة حين قال لها لم أجد لك ميراثا فى كتاب الله تعالى فقام رجل وقال ياخليفة رسول الله إن رسول الله ورثها فقال حتى تأتينى بشاهد فجاء بستة من خيار الصحابة فورثها ولو كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى التراويح ثمانى ركعات لأجمع عليها الصحابة وجاءنا فى بيان السنة المطهرة ودونه أئمة الفقه فى المذاهب الأربعة . وهم أخذوا من قوله الشريف « من شاء منكم أن يصلى فليصل ما شاء » لا بأس على من صلاها فى بيته ما لم تفضل المساجد. وهم قد أخذوا من قوله الشريف «إن الله فرض عليكم صيامه وأنا قد سننت لكم قيامه» إنه من سنة الأقوال فصار العمل بها حتما لازما على كل من يرجو رضوان الله تعالى بشرف اتباع حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم.

وأما ما جاء به عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فهو من مصداق قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم حين سأله أحد الصحابة كم أصلى يارسول الله القيام؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « صل عشرين ركعة » ذكره الزرقانى بسنده فى شرحه على موطأ

الإمام مالك رضى الله تعالى عنهم وإن كان فيه طعن ولم يذكر سبب الطعن فإنه من جهة الضعف فالحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال . وأيضا فإنه يجب علينا أن نعتقد أن الصحابة الذين شهد الله تعالى لهم بالعدالة فى التوراة والإنجيل قبل أن يخلقوا لا يأتون بشىء من الأقوال والأفعال والتقريرات التى هى أمور أصل الدين من تلقاء أنفسهم بل لابد وأن يكونوا سمعوها من الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم هذا . ولنا أن نقول إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أخذ من بيانه الشريف عشرين ركعة من أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم صلى بهم ليلتين بست عشرة ركعة وكأن الليلة الثالثة التى لم يخرج فيها إليهم وأمرهم بالصلاة فكأنها نصف ليلة بأربع ركعات فكان المجموع عشرين ركعة فهذا كحكم تجويف المحراب فى الحائط أخذا من بيانه الشريف من التزامه مكانا واحداً فى كل صلاة هذا . ولنا أن نقول إن عمر رضى الله تعالى عنه علم أن أهل مكة يصلون ستا وثلاثين ركعة لأن كل مصل يقوم ليطوف حول الكعبة بركعتين وركعتين سنة الطواف فكأن كل طواف بأربع ركعات فكأن أربعا فى تسع بست وثلاثين ركعة وليس كل أحد فى مكة فابتدع رضى الله تعالى عنه عن عشرين ركعة وسماها بدعة لأنها لم تكن من قبل بهذه الكيفية فابتدعها رضى الله تعالى عنه ليبين للناس ما فى البدع ماهو محمود كما بين الله تعالى لعباده فى كتابه العزيز (رهبانية ابتدعوها) فمنها ماهو واجب العمل به ومنها هو سنة فراجعه قريبا .

وإليك ما هو أهم وأعم وأتم وهو إجماع المسلمين . أليس هو الحجة الثالثة فى الدين بصريح كلامه العزيز على ما بيناه من قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) كما قال الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه حين سئل عن الحجة فى دين الله تعالى . فقال : كتابه . قال السائل ثم ماذا ؟ قال : سنة نبيه . قال : السائل ثم ماذا ؟ قال : إجماع المسلمين . قال السائل من أين لك بها فطرق الشافعى رضى الله تعالى عنه برأسه هنيهة . فقال السائل أجلت بها ثلاثة أيام بلياليهن فإن لم تجئنى بها فاعتزل الناس . فاعتزل الشافعى الناس ثلاثة أيام وخرج فى اليوم الثالث بعد العصر متغير الوجه ، وجاء السائل وقال حاجتى . قال نعم وقرأ الآية ثم قال رضى الله تعالى عنه لم يعلق إصلاءه النار على المخالفة إلا أن اتباعهم أمر واجب كيف لا وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم

« سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على الضلالة فأعطانيها » وقال صلى الله تعالى عليه وسلم « يد الله على الجماعة » وفي الرواية الأخرى « يد الله مع الجماعة » ومن شذ شذ في النار وفي رواية أخرى « من فارق الجماعة قيد شبر » وفي أخرى « قيد شبر » وفي أخرى « قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » والروايات في ذلك كثيرة كما قدمنا وهذا هو إجماع الصحابة فلا يخالفه إلا من سبقت شقوته والعياذ بالله تعالى ولهذه الأدلة أقول نهارا جهارا الصلاة معهم باطلة وفي مساجدهم عاطلة لأنها غير مساجد المسلمين ولا يخفى أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا في منتهى الحرص على بياناته الشريفة وخاصة فيما يتعلق بأحكام دين رب العالمين وكان بعضهم يرجع إلى بعض في الحكم الواحد حتى يستقر الرأي إليه ويجمع الأمر عليه . وناهيك بالمساجد التي اتخذوها كمسجد ضرار الذي اتخذه المنافقون مضارة ومحاربة للمسلمين في مساجدهم التي اتخذوها من بيان سيد العالمين وقد أجمعوا عليها ولم يشذ أحد منهم فيما هو مجمع عليه من لدن الصحابة إلى وقتنا هذا بل إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى . ولكن ليعلم العالمون أن من سنة ربك تبارك وتعالى ما أنزل آية من القرآن المجيد في حادثة إلا كانت أصلا لما سيستحدث مثلها في الأزمنة المستقبلة حتى يرجع الإنسان فيها إلى الحكم الإلهي الذي أنزل بيانه في كتابه العزيز ولما كان ربك سبحانه وتعالى عالما بما سيحدثه عباده أنزل قرآنا يتلى ليكون حجة عليهم ويكونون هم على قدم سابقيهم في السبب والاختيار والغرض والوجهة فقال عز من قائل (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا) الآيات وياليتهم خالفوا الإجماع في مساجدهم الضارة للمضللين من البرآء من المسلمين ضعفاء الإيمان بل يعمدون إلى ما هو شر منه وأمر وهو صلاتهم الجمعة في الشوارع العامة وإمامهم في دكان أو تحت عمارة أو في فضاء مصنع أو على الأرصفة كأنهم لا يبالون بالتشريع ولا بالشرع . من أين لهم هذا من الدين أم من بيان سيد العالمين أم من الكتاب المبين كلا ، ما هي إلا أوهام وفساد في العقل والنقل . وياليت الأمر مقصور على أهل هذه الطريقة المخالفة لإجماع المسلمين . بل لفساد أهل هذا الزمان من ضعفاء الإيمان بل امتد الأمر وشاع الضلال لوجود مرتع له من بعض أئمة مساجد الأوقاف يصلون كذلك الثماني ركعات تقليداً لهؤلاء الضالين المضلين من غير بحث عن دليل لقصر همهم هؤلاء وهؤلاء عن الوقوف على أي دليل لهم وما هي إلا المخالفة لإجماع المسلمين وخاصة الصحابة رضوان

الله تعالى عليهم الذين رووا لنا كل ذلك فكيف نأخذ عنهم بعض الأحكام ونتركهم في بعض أليس هذا كال اليهود والنصارى الذين يؤمنون ببعض الرسلين ويكفرون ببعض سبحان الفعال لما يريد الذى جعل الضلال والهدى دائمى النزاع والصراع بينهما إلى يوم القيامة قال تعالى (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وقال تعالى (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) ولما كان هو الفعال لما يشاء في مكوناته وكان وجودهم على مقتضى الصفتين المتقابلتين الرحمة والغضب قال تعالى (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) اللهم إنا نسألك التوفيق لما يرضيك إكراما لمن أرسلته رحمة للعالمين .

عظة واعتبار

أيها القارىء الكريم ألهمنى الله وإياك وهدانى وهداك إلى النظر في حقائق الأمور التي أبانها سبحانه وتعالى لعباده وشرعها لهم على يد سيد المرسلين وأمرهم أن يسيروا عليها بلا تغيير ولا تبديل وقال تعالى لهم (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) ولما علم ربك سبحانه وتعالى أنه يوجد في عباده مخالفين منحرفين عن الطريق المستقيم أرشدهم كثيرا في كتابه العزيز إلى عدم التفرق والاختلاف وقد قدمنا الآيات في ذلك كثيرا وكذا الكثير من الأحاديث التي أمر بها صلى الله تعالى عليه وسلم وحث عليها والتي من أجلها تأليف هذا الكتاب فلربما يظن ظان أو يتوهم متوهم أنى حاقد عليهم أو حاسد لهم كلا والله إنى إن شاء الله تعالى مع الذين قال تعالى فيهم (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) فلله الحمد والمنة لا أحقد على مسلم ولا أكره مسلما ولو آذانى بالفعل ، بل أطلب له العفو والمغفرة من الله الكريم ، ولكنى والله غيور على دين الله عز وجل وأكره كل مخالف ومتفرق فيه كما أمر الله عز وجل عباده في قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وغير ذلك كثير ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذى رويه مسلم ترعوا أن تذكروا الفاجر بما فيه ، كى يحذره الناس ، وقد قال بعض الأفاضل :

من الذين كشف الستر من كل كاذب وعن كل بدعى أتى بالعجائب

ولولا رجال مؤمنون لهدمت صوامع دين الله من كل جانب

فلهذا وفقنى الله تعالى للقيام بمطاردة وإرداع كل مسلم مخالف لإجماع المسلمين ومحاربته بالكتاب العزيز والسنة المطهرة ، لأجل ألا يكون بين المسلمين خلل ولا نزاع ، لأن ربهم واحد ودينهم واحد ونبيهم واحد ، وأحكام دينهم واحدة على ماقدمنا فالخلاف بسبب النزاع والتفرقة وقد نهى الله عنهما فى قوله تعالى (منيبين إليه . واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) ولطالما أحدث الشقاق الوقائع بين المسلمين وحوادث وجنايات نشأت عنها العداوة المستمرة فى البلد الواحد والعائلات ، قال سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم « طوبى لمن جعله الله مفتاحا للخير ، مغلاقا للشر ، وويل لمن جعله الله مغلاقا للخير ، مفتاحا للشر » الحديث .

فأنت ياأخى اعتبر كلامى كأنه لم يكن ، وانظر بعقلك ، وحكم دينك ، هل المساجد التى بناها الصحابة كمسجد معاوية بدمشق الشام ، ومسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة ولا يقال لكل منها إلا الجامع الجامع ، لأن الصحابة قد أجمعوا على إقرارها ، وناهيك بالأزهر الذى بناه الفاطميون الذين هم من مصداق قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » والفاطميون من خير القرون أم مساجدهم التى تخالف مساجد المسلمين من عهد الصحابة إلى يوم الدين ؟ إن شاء رب العالمين هل رأيت قبل ظهور هذه الفئة تغاير مساجد المسلمين منذ القرن الرابع عشر الهجرى اللهم إلا مساجدهم التى اتخذوها ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون) ولا يفوتك أيها القارىء الحكيم ادعاؤهم أنهم أهل سنة فى لباسهم وأخلاقهم ومأكلهم ومشربهم وقيامهم وقعودهم ونومهم ومعاملتهم أما لباسهم فهو مغاير للسنة من كل الوجوه ، نخص بالذكر من عمائهم التى لاتزيد من ذراعين أو ثلاثة تقريبا ، وهذا القدر مغاير للسنة ، إذ الوارد فى السنة اثنا عشر ذراعا ثم لباسهم المشتمل على مايشبه الحرير وهو نوع من أنواع الزينة ، وجلوسهم لايكون إلا على الكراسى ، ونومهم لايكون إلا على الأسرة المفروشة بالفراش الوثير ، وطعامهم مالذ وطاب من صنوف الطعام ولحاهم لا تزيد عن قيراط بعد البشرة ، وعذبة عمائهم لا تزيد عن فتر ، وأخلاقهم فى الدين شاذة يدلك على ذلك أنك إذا حييت أحدهم عقب

صلاته بقولك (حرما أجابك بقوله « برما » ثم أردف هذا اللفظ بقوله « لم يرد » وكذا لو قلت له هنيئا ، أو شفيتم ، أو تقبل الله ، أو غير ذلك مما تعورف بين الناس بالتحية بقوله لك لم يرد ، وجهل ما علم الله تعالى عباده التحية بعضهم بعضا من قوله عز وجل (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) ومعاملتهم كأسوأ ما يكون فى الأخلاق ولا يسعنا أن نذكر منها شيئا عملا بقول القائل :

إن الكريم إذا رأى عيبا ستر   أما اللئيم إذا رأى أفشى الخبر
ليس اللئيم يضر إلا نفسه   والله يغفر للكريم كما غفر

ويا ليت هذا الأمر المخالف فيه ، إذا رفع لذوى الحل والربط يحقوق الحق ويبطلون الباطل ويميزون الخبيث من الطيب ، وينصرون الحق وأهله ، ويضربون على أيدى المضلين ، ويلزمونهم الحجة ، ويمنعونهم عن السير استحداث الفتن والفرقة بين جماعة الموحدين ، بل يقولون وهذه الأمور خلافية ، وقد قدمنا فى أول هذا الباب أنه لا خلاف بين المسلمين أهل الحق والإجماع ، إذ الحق لا خلاف فيه ، ولا مشاحة ولا تعارض ، وقد أرشد الله سبحانه وتعالى عباده فى كتابه العزيز أنهم يرجعون إلى كتابه العزيز إذا ما قام أحد بمغايرة فاعليه إجماع المسلمين ، فقال تعالى (وإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال تعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ونسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق لجميع المسلمين ، وأن يحول حالهم إلى أحسن حال ليغفر لهم ويلتئم لهم إكراما لمن أرسله رحمة للعالمين . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

(الباب السابع فى التوسل والوسيلة وفيه فصول)

الفصل الأول فى معنى التوسل والوسيلة

شرع الله عز وجل الوسيلة وجعلها أصلا يرتكز عليها ولا يقبل العمل إلا بها وجعلها ضرورة من ضروريات الحياة البشرية ولفت عباده النظر إليها بعد أن خلقهم بالفطرة والطبيعة فيها وإليها فقال عز من قائل (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) قال صاحب الكشاف فى تفسيره الوسيلة كل ما يتوسل به أى يتقرب

به من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك . فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المنهيات وأنشد :

أرى الناس لا يدرون ماقدر أمرهم   ألا كل ذى لب إلى الله واسل

فاعلم يا أخى أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا عكس الآخرة من جميع الوجوه وأن هذه الدنيا هى دار العمل بالتكاليف الشرعية والتوجيهات الإلهية . والتعاليم الربانية . فلم يوجد الحق عز وجل فيها شيئاً إلا بالعمل ولذا قال عز من قائل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وناهيك بالآية الجامعة فى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) بل جميع أوامر الحق عز وجل ونواهيه فى كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم ترشد عباده إلى العمل فى هذه الحياة .

وإن من تأمل بعين الفكر ونظر بمنظار الإيمان وعلم من كثرة الاطلاع وجد أن جميع ما سبق من الأدلة يحث على الأخذ فى الأسباب وهى الوسيلة الموصلة إلى الغاية المرجوة دنيا وأخرى لما تبين واتضح أن كل موجود للحق عز وجل لم يوجده إلا بالوسيلة.

والوسيلة فى جميع مابينا تنقسم إلى قسمين مادية « حسية » ومعنوية « روحية » فالمادية الحسية هى ما يشاهد ويلمس بحاسة اللمس ولو للأعمى فى جميع المكونات ولا تذهب بك بعيداً بل تلفت نظرك إلى قول الحق عز وجل (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) فمن أى شىء وجدت أيها القارىء الكريم ؟ وبأى شىء تعيش ؟ وفى أى شىء تعمل وتقيم ؟ وماهو الناشىء منك وعنك ؟ فلا ترى إلا أنها كلها وسائل . وقس على ذلك كل حالة مادية حسية .

والمعنوية الروحية مالفت الله سبحانه وتعالى عباده النظر إليه من حكمة إرسال الرسل وتوجيههم العباد إلى الله عز شأنه بالإيمان الذى هو معنى من المعانى والذى لا يعرف إلا بالصورة التى جعلها الله تبارك وتعالى مقابلة لهذا المعنى الروحى إذ لا يعرف إلا بها وهى قيامك بالمأمورات ظاهرا حتى يبرهن به عنك بالمعنى الباطنى الروحى الذى لا يعرف إلا بهذا الظاهر وفى دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إلى الله أكبر دلالة على الوسيلة المعنوية والروحية قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال تعالى (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) وقال تعالى (واتقون ياأولى الألباب) وليس فى كل معنى ماتقدم إلا بعد نفى جميع ماعدا أوامره باطل وإثبات ماهو جدير به وأحق بكل تلك الأوامر وهو الله تعالى .

لعله قد استبانَّ لك مما قدمنا أن الوسيلة على قسمين : مادية وروحية . فالمادية عليها جميع التكاليف الشرعية من امتثال الأوامر واجتناب النواهى ومن أهمها معاملة الخالق جل وعلا ومعاملة المخلوقين كما أمر سبحانه وتعالى إذ يفتح من هذه المعاملات التى هى وسائل بنص الشرع عمل يستحق عليه الجزاء دنيا وأخرى فالعمل الباطنى الروحى ينشأ عنه العمل الظاهرى المادى المحسوس الذى ينشأ عنه العمل الجزائى وهذا الجزاء لا يتوصل إليه إلا بالوسائل التى شرعها الله عز وجل لعباده وجعل تبارك وتعالى نسبة العمل إليها نسبة حقيقية وتضاف إليها الأعمال وتنسب إليها إذ لا يترتب الثواب والعقاب عليها إلا بهذه النسبة والإضافة الحقيقية . هذا هو أصل التوسل والوسيلة وحقيقة مشروعيتها وتوجيه الله سبحانه وتعالى عباده إليها . ومن جهل ذلك فقد جهل سنن التكوين الإلهى وجهل سنن التشريع الربانى لعباده ولا ينكره إلا كل مخالف لإجماع المسلمين.

ولما كانت حكمة العليم الحكيم وجود المخالفين فى الدنيا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ضد الحق وأهله (ليميز الله الخبيث من الطيب) وجود المخالفين الذين لا يفرقون بين الحق والباطل بانكارهم جميع أنواع الوسيلة حسداً منهم وحقداً وتوهينا وتضعيفا فى قدر سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم ومن بعده من الصالحين الطيبين الطاهرين جهلا منهم وضلالة عن الحق الصريح الواضح وعدم نظرهم إلى الصراط السوى الذى شرعه الله عز وجل لعباده وجموحهم إلى الضلال بتمسكهم ببعض آيات فى القرآن العزيز وبعض الأحاديث فى السنة المطهرة التى لا يعقلون لها معنى كقوله تعالى (ادعونى أستجب لكم) يظن الغمر أن هذه وأشباهها تنفى التوسل والوسيلة أليست هذه وأشباهها ترشد إلى التوسل والوسيلة . لأن الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور لا يحتاج إلى دعاء ولا طلب . (إذ هو قائم على كل نفس بما كسبت) وإنما شرع لهم الدعاء ليلفت لهم النظر أن لهم إلها قادرا ينفع ويضر ويجيب دعوة المضطر لا كالأصنام التى يعبدونها من دون الله . ويقول أيضا جاهلهم فى استدلاله على عدم الوسيلة قال الله تعالى (واسألوا الله من فضله) فقل لهذا الأخرق أليست هذه الآية الكريمة هى دعوة من الله عز وجل لعباده بالتمسك بالوسيلة إذ فضله الذى وجهنا إليه تعالى هو بما قربه إلينا وجعله بين أيدينا كما عليه أهل التحقيق من المفسرين فهى عين الإرشاد لعباد الله تعالى إلى التوسل والوسيلة والأخذ فى الأسباب ظاهرا وباطنا هو سنة الله تعالى فى مكوناته وهو عين التوسل .

ويقول أيضا هذا الـ . فى استدلاله وإنكاره على عدم التوسل بالحديث المشهور

المروى عن أصحاب الصحاح من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » الحديث فبالله أليس هذا هو عين الإرشاد إلى التوسل والوسيلة لأن السائل للمخلوق إنما هو في الحقيقة سائل لله تعالى ظاهراً وباطنا أما الظاهر فبلسان المقال والباطن بلسان الحال لأنك تعرف أن الوجود كله على زوجين ومنه الظاهر والباطن ومنه قولنا على المقابلة والمماثلة وهذا هو الحق والتحقيق ونضرب لك مثلا ليستنير لك الحال ويتضح لك المقال وذلك كحال من به علة مرض فلا يسعه إلا أن يذهب إلى الطبيب ليسأله عن العلة فلسان الحال الذهاب إليه ولسان المقال الشكاية وبيان العلة له وهذا ليس بحرام ولا منتقد ولا غبن فيه بل هو واجب بالفطرة التى فطر الله الناس عليها بل يقول المريض ومن معه مبتهلا اللهم اجعل فى يده الشفاء وألهمه الصواب ووفقه لمعرفة الداء وأن الحديث كان فى صدر الإسلام وإنهم كانوا قريبى عهد بكفرهم فى أشد الحاجة إلى توجيههم إلى فاعل الكائنات والمكونات ظاهراً وباطنا سبحانه وتعالى . وكانت مخالطتهم للأعمال الدنيوية أشد لما فيها من المنافع العائدة على حياتهم ودنوهم وما يترتب عليه حسن المثوبة الأخروية فكان المراد والغرض من إرشاده الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم للعباد ليعرفوا أن جميع الأقوال والأفعال والحركة والسكون منه سبحانه وتعالى ولا تنس أن مستعمل الدواء عند تعاطيه يقول اللهم اشفنى أو بسم الله الشافى فالغرض المداومة على تعليق قلبه بمن هو شأنه كذلك سبحانه وتعالى لمداومة التوفيق والهداية لمرضاته . وأما ما فهمه أجهل الجهلاء فى الحديث بأن الغرض منه صرف العبد عن مكونات الحق عز وجل فهو من الخرافة بمكان لما يترتب على ذلك من تعارض الآيات بعضها بعضا وكذلك السنة على مقتضى أفهامهم الفاسدة وأباطيلهم الكاسدة . وإليك شيئا من الآيات الكريمة التى قص علينا سبحانه وتعالى ليعلمنا أسراره فى مكوناته بقوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) هو الذى يسيركم فى البر البحر) (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (هذه تدل على أنه هو الفعال وهو الحق . فكيف بهذا مع قوله تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداءا) وهكذا من جميع الآيات التى ذكر الحق عز وجل وجعل بنسبة الأعمال للعباد وهاهى الآية الجامعة وهى قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)فكيف بهذه مع قوله تعالى (فعال لما يريد) (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) وكيف بذلك كله مع توجيه الله عز وجل

عباده ولفت النظر إلى مكوناته من أخذ الأمور من أسبابها كقوله تعالى (واسألوا الله من فضله) قال العلامة البيضاوى وعليه جميع عقلاء الأمة المفسرين للقرآن المجيد أى مما قربه إليكم وجعله بين أيديكم وعليه فالأخذ بالأسباب حتم لازم من هذه الموجودات وهى الوسائل للحق عز وجل خصوصا وقد نوع سبحانه الأسباب وسماها أبوابا وقال تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها) وقال (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) وقال تعالى(حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وقال تعالى (حرض المؤمنين على القتال) وقال تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال تعالى (ويذيق بعضكم بأس بعض) على أن الحديث الذى لم يفهموا له معنا آخر يعطى نفع العباد وضرهم ببعض فالحديث يحث على الأخذ بالأسباب .

ومعناه إذا سألت مخلوقا فلاتنس الخالق لأنه هو الذى بيده ملكوت كل شىء . وهو الخالق لك ولمن يستعين به والآيات والأحاديث لاتعطى إلا ذلك المعنى لأنه لا يعقل التوجه إلى الله إلا بالأخذ فى الأسباب . وجميع بيانات السنة لاتعقل إلا كذلك فكيف يفهمها قاصرو الذهن بهذا المعنى مع قوله صلوات الله وسلامه عليه « دع الناس فى غفلاتهم يرزق الله بعضهم من بعض) وهكذا جميع بيانات السنة وما ورد فيها من أنواع التوسل والوسيلة التى لاتكاد تقف عند حد من توسلاته الشريفة صلى الله تعالى عليه وسلم بأنواع نعم الله عز وجل ومن النعمة الزمان والمكان من الموجودات كما سيأتى من بعض ما ورد عنه فى صحيح السنة صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

الفصل الثانى

(فى قصرهم الوسيلة على أنواع العبادات)

فانظر ياأخى : فلست أدرى من أين لهم قصرهم الوسيلة على العبادة فحسب بعد إطلاق الحق عز وجل فى قوله تعالى بعد أمره لعباده بالتقوى وملازمتهم لها لاينسوا الوسيلة(وابتغوا إليه الوسيلة)وقد عرفهم بأنهم فى دنيا الأسباب التى لايتأتى فيها حصول شىء إلا بالأسباب وكل الأسباب والمسببات من نعمه تعالى وعظيم قدرته وبديع صنعته وأمرهم بأن يأخذوا بها ويعملوا ببيانه الحكيم وإرشاد رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام . فلست أدرى ما حقيقة عقول هؤلاء الذين لايفقهون ولايتفقهون ويقولون قال الله تعالى (ادعونى أستجب لكم) أليس قول عز من قائل ادعونى هو عين الوسيلة

إليه جل وعلا (وإذا سألت فاسأل الله) الحديث هو عين الوسيلة لأن الدعاء والسؤال هو عين الوسيلة لمن ترجو منه حاجتك وهو الدين وقد قدمنا من تفسير الكشاف وقال العلامة أبو حيان في تفسيره البحر، وكذا تفسير النهر: الوسيلة القربة التي ينبغي أن يطلب بها أو الحاجة أو الطاعة أو الجنة أو أفضل درجاتها فكيف يقصرها على العبادة فكأن الرغيف من الخبز الذي يعيش به والماء ليس بوسيلة. وقد قال الإمام الفخر: اعلم أن مجامع التكليف محصورة في نوعين لاثالث لهما أحدهما: ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله تعالى (اتقوا الله) وثانيهما: فعل المأمورات وإليه الإشارة بقوله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة) ولما كان ترك المنهيات مقدما على فعل المأمورات بالذات لاجرم قدمه تعالى عليه في الذكر وإنما قلنا إن الترك مقدم على الفعل؛ لأن الترك عبادة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي والفعل هو الإيقاع والتحصيل - ولاشك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها. فكانت ترك قبل الفعل لامحالة. فإن قيل ولم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أنا نعلم أن ترك المعاصي قد يتوسل به إلى الله تعالى. قلنا الترك إبقاء الشيء على عدمه الأصلي وذلك للقدم المستمر لايمكن التوسل به إلى الشيء البتة. فثبت أن الترك لا يمكن أن يكون وسيلة بل من دعاة داعي الشهوة إلى فعل قبيح ثم تركه لطلب مرضاة الله تعالى فهاهنا يحصل التوسل بذلك الامتناع إلى الله تعالى إلا أن ذلك الامتناع من باب الأفعال ولهذا قال المحققون ترك الشيء عبارة عن فعل ضده . كما وقع في حديث الثلاثة الذين آووا غارا : يرويه أصحاب السنن والمسانيد .

إذا عرفت هذا فنقول: إن الترك والفعل أمران معتبران في ظاهر الأفعال فالذي يجب تركه هو المحرمات والذي يجب فعله هو الواجبات . ومعتبران أيضا في الأخلاق فالذي يجب حصوله هو الأخلاق الفاضلة والذي يجب تركه هو الأخلاق الذميمة . ومعتبران أيضا في الأفكار فالذي يجب فعله هو التفكر في الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد والذي يجب تركه هو الالتفات إلى الشبهات ومعتبران أيضا في مقام التجلي فالفعل هو الاستغراق في الله تعالى وأهل الرياضة يسمون الفعل والترك بالتحلية والتخلية وبالمحو والصحو وبالنفي والاثبات وبالفناء والبقاء ، وفي جميع المقامات النفي مقدم على الإثبات ولذلك كان قولنا لا إله إلا الله النفي مقدم فيه على الإثبات والوسيلة فعيلة من وصل إليه إذا تقرب إليه قال لبيد الشاعر:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ألا كل ذي لب إلى الله واسل

أي متوسل . فالوسيلة هي التي يتوسل بها إلى المقصود اهـ منه . وقال العلامة

الألوسى فى تفسيره : الوسيلة ملاك الأمر كله فهى الذريعة لكل خير والمنجاة من كل ضير . وأخرج ابن الأنبارى وغيره عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الوسيلة الحاجة وأنشد له قول عنترة :

إن الرجال لهم إليك وسيلة   أن يأخذوك تكحلى وتخضبى

فكيف بعد هذا الذى ظهر من بيان عقلاء المسلمين فى معنى تعميم الحق عزوجل لأنواع الوسيلة يقصرونها هم على أنها بمعنى العبادة فقط ما هو إلا تعصب وجهالة خصوصا قولهم لا توسل . وأن الله ليس فى احتياج إلى الوسيلة وغاية أمرهم إنكارهم على المتوسلين بعباد الله الصالحين ولم يفطنوا لقول رب العالمين (وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) فلم يعب الحق عزوجل عليهم الوسيلة بالغائب المنتظر بل عاب عليهم فى إنكارهم عليه وعدم الإيمان به صلى الله تعالى عليه وسلم أو لم يقرءوا قوله تعالى (ألم تر إلى الملإ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالو لهم ابعث إلنا ملكا) الآيات . إذا الجماعات من بنى إسرائيل لما سألوا نبيهم هل كفروا على زعمهم الباطل : سنوضح ذلك ونبين لهم مايخزيهم .

الفصل الثالث

فى بيان استدلالاتهم على أن الزائر للنبى والولى والناذر لهم والمتوسل بهم مشرك كعابد الأصنام فى زعمهم مستدلين بقوله تعالى (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) وبقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) وهكذا كلما يرون شبهة ولو واهية يدلون بها نقول : لايخفى على ذوى البصيرة أن المنحرفين عن الجادة والطريق المستقيم من الفرق المارقة الذين يحرفون كلام رب العالمين وسنة نبيه الكريم عن مواضعها لأهوائهم الشيطانية التى يدعون إليها ضد الحق وأهله فى كل ناحية من نواحى انحرافهم ففى مثل التوسل والوسيلة يجعلون كل زائر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو الولى رضى الله تعالى عنه مشركا الشرك الأكبر الذى لايغفره الله عزوجل كما يقول الداعى لهم الآن بمصر فى تعليقه على كتاب (فتح المجيد) من صفحة ٤٣ إلى صفحة ٢٦٩ على أنها كفر وعبادة أوثان وعبادة أصنام جاعلين الآيات التى أنزلها الحق عز وجل فى حال الكافرين وما كانوا عليه من عبادة غيره جل وعلا منبطقة

على الزائرين تماما بلا فارق بينهما يضللون المستمعين لهم بقولهم الدعاء مطلقا عبادة بل هو مخ العبادة وهؤلاء الداعون للأموات كحال الداعين للأصنام تماما لأن الداعى للنبي أو الولى يعتقد كما يعتقد الكافر العابد للصنم إذ الداعى للنبي أو الولى يقول إذا ماسألته إن الله تعالى هو الفعال وكذلك الكافر يعتقد ذلك وقد حكى الله عز وجل عنهم بقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فحال هؤلاء الزوار للأنبياء والأولياء كحال هؤلاء الكافرين الذين يعبدون الأصنام فلا يسع السامع المغتر المضلل إلا الموافقة له واتباعه فى الضلالة ولم يفرق هذا الضال والمضلل بين الزيارة والعبادة بل لم يخجل ولم يستحى من الله تعالى الرقيب عليه أو لم يخف أن أحداً من أهل الحق يطلع على تخريفاته وتضليلاته هذه فيلعنه خصوصا إذا كان مستجاب الدعوة لا يرد الله تعالى دعوته فيستحق خسران الدنيا والآخرة . ماذا أصنع وقد قال العليم الخبير بعباده (ومن يضلل الله فلا هادى له) (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)

يا أخى أو لم يفقه هذا الناسب نفسه للعلم وأهله بأن اللفظ الواحد من اللغة العربية التى نزل بها القرآن المجيد له عدة معان بل قد يكون فى معناه التضاد كقوله تعالى (زعم الذين كفروا) ففى لفظ الزعم معنيان الكذب كما هنا . وقد يطلق على القول المحقق والصدق كما فى حديث ضمام بن ثعلبة المروى عند البخارى وغيره بلفظ « قال يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك قال صدق) الحديث وكذا الظن فإنه يطلق على السوء من الشر والتحقيق من الخير كما فى الكتاب والسنة قال سبحانه (وظننتم ظن السوء) (وتظنون بالله الظنونا) وفى الحديث عند البخارى وغيره (لقد ظننت يا أبا هريرة) وفى قول عمر رضى الله عنه المروى عند البخارى وغيره (ذلك الظن بك يا أبا إسحق) وكما فى معنى الوفاة قال تعالى (إنى متوفيك ورافعك إلى) فيفهم من لفظ الوفاة يعنى الموت . وكذا يفهم منه معنى النوم إذهما شقيقان فى قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) وهكذا الكثير من معانى الألفاظ العربية التى بها نزل القرآن الكريم وعليها بيان السنة المطهرة فكيف بهذا المارق الفارق يجعل لفظ يدعون فى عبادة الأصنام كلفظ يدعون الزائرين للمزورين ويجعل الكل معنى واحدا وهى العبادة بقياسه الفارق المارق . قل له لو أن الأمر كما تقول لكان كل لفظ يا ن أو أيا الموضوعين لنداء البعيد والقريب يكون شركا وعبادة ولم يقل بها حتى المخبول فى عقله وهاهو كلام العلامة الألوسى المفسر للقرآن الكريم وهو آخر مفسر يقول عليه بعد التحقق من كلامه ومعرفة أغراضه وماجئتك بكلامه

إلا بعد اطلاعى ومراجعتى على جميع كتب المفسرين الآن فقد جمع رحمه الله تعالى جميع ماقيل على هذه الآية التى يتمشدقون بها فى كلامهم ولايعقلون لها معنى ولو كان لهم أدنى اطلاع ومعرفة ما استدلوا بها على أباطيلهم العاطلة ودعواهم الباطلة إذ الآية الكريمة لاتفهم ولا تعقل إلا ببيان سابقتها وهى قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) فهاهو كلام العلامة الألوسى بل هو كلام جميع المفسرين على هذه الآية إذ لم يترك فيها قولا لقائل . قال فى صفحة ٢٩٧ جزء ثان : إن التوسل والاستغاثة بالأحياء جائزة لاشك فيها ولا يتوقف على أفضليته من الطالب بل قد يطلب الفاضل من المفضول فقدصح أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لعمر رضى الله تعالى عنه لما استأذنه فى العمرة (لاتنسنا ياأخى من دعائك) وأمره أيضا أن يطلب من أويس القرنى رحمة الله تعالى عليه أن يستغفر له وأيضا أمر أمته صلى الله تعالى عليه وسلم يطلب الوسيلة له بأن يصلوا عليه وبما رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح عن عثمان بن حنيف رضى الله تعالى عنه أن رجلا ضرير البصر أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أدع الله تعالى أن يعافينى فقال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك قال فادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إنى أسألك وأتوجه بنبيك صلى الله تعالى عليه وسلم نبى الرحمة يارسول الله إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى اللهم فشفعه فى » وهو عين التوسل بالذات وفى صحيح البخارى عن أنس أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس وقال : اللهم إنا كنا نستسقى بنبيك صلى الله تعالى عليه وسلم فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا فيسقون . ثم إن العلامة الألوسى بعد أن نفى التوسل بالأنبياء والصالحين أمواتا وأحياء ونفى أيضا التوسل بالذات خصوصا بعد أن ذكر الحديث السابق من توسل سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه بسيدنا العباس رضى الله تعالى عنهم وحكى أنهم كانوا يتوسلون بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صفحة ٢٩٩ جزء ثان قال : وبعد هذا كله أنا لا أرى بأسا فى التوسل إلى الله تعالى بجاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حيا وميتا ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته فيكون معنى قول القائل أتوسل إليك بجاه نبيك صلى الله تعالى عليه وسلم أن تقضى لى حاجتى يعنى إلهى إجعل محبتك له وسيلة فى قضاء

حاجتى وقال فى صفحة ٣٠٠ جزء ثان : بل لا أرى بأسا بالإقسام على الله تعالى بجاهه صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا المعنى — والكلام فى الحرمة كالكلام فى الجاه — يعنى بحرمة كذا — وقال ملتمسا وعجيبا عن الصحابة فى عدم توسلهم بالأموات ولعل ذلك كان تحاشيا منهم عما يخشى أن يعلق منه فى أذهان الناس إذ ذاك وهم قريبوا عهد بالتوسل بالأصنام شىء ثم اقتدى بهم من خلفهم من الأئمة الطاهرين وقد ترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد إبراهيم لكون القوم حديثى عهد بكفر كما ثبت ذلك فى الصحيح وكذا التوسل بجاه غير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا بأس به أيضا إن كان المتوسل بجاهه مما علم أن له جاها عند الله تعالى كالمقطوع بصلاحه وولايته أهـ . منه .

ولا يخفى على كل ذى عقل متعقل أن قول العلامة الألوسى فى إجابته عن عدم توسل الصحابة بالأموات كونهم حديثى عهد بكفر ماثبت عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه قطع شجرة البيعة وثبت فيه لكونهم كذلك . وقال العلامة فى حديث الاستشفاع بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وقد روى أبو داود فى سننه (أن رجلا قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إنا نستشفع بك إلى الله تعالى ونستشفع بالله تعالى عليك فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى رؤى فى وجهه ذلك وقال ويحك أتدرى ما الله تعالى إن الله تعالى لا يشفع به على أحد من خلقه شأن الله تعالى أعظم من ذلك) فهو وإن كان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أنكر عليه قوله إنا نستشفع بالله تعالى عليك ولم ينكر عليه صلى الله تعالى عليه وسلم قوله نستشفع بك إلى الله تعالى ومنه أخذ أفاضل العلماء جواز الاستشفاع به صلى الله تعالى عليه وسلم كما هو مفاد هذا الحديث وحديث الضرير اهـ .

الفصل الرابع

فى الجواز بالتوسل بحق المتوسل به

إذ لا يخفى على ذوى العقول الراجحة أن الفرق الضالة الذين ينكرون التوسل والوسيلة خصوصا لعباد الله الصالحين ، يستهجنون قول القائل لله عز وجل كذا المتوسل به قائلين إنه لا يجب على الله حق لعباده أو لخلقه إنكاراً فاحشا . وحكمهم على القائل بذلك لأنه مشرك كافر وهم يضللون بيان القرآن الكريم وصريح السنة المطهرة

إذ يقول الحق تبارك وتعالى لعباده تفضلا منه لاوجوباً عليه (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) والحق بمعنى الوعد الثابت المتحقق الوقوع . وفى الآية الأخرى (وعداً عليه حقا) وفى الأخرى (وعداً علينا إنا كنا فاعلين) وفى الصحيح من حديث معاذ بن جبل « هل تدرى ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت : الله ورسوله أعلم قال حق الله على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً وحقهم عليه إن فعلوا ذلك ألا يعذبهم » ومنه ما رواه ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعاء الخارج إلى الصلاة « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا . فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولارياءاً ولا سمعة ولكنى خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أن تنقذنى من النار وأن تدخلنى الجنة » .

ومنه حديث السيدة فاطمة بنت أسد والدة سيدنا على بن أبى طالب الذى يرويه الطبرانى فى معجمه الكبير والأوسط عن أنس بن مالك رضى الله عنه الذى قال فيه « بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى أن ترحم أمى فاطمة بنت أسد اللهم اكرم نزلها ووسع لها فى قبرها » الحديث

فانظر يا أخى إلى هؤلاء الذين يجهلون كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وإلى ما يضللون به عباد الله تعالى وتحريفهم كلام الله تعالى عن مواضعه وتعميتهم فى كل ما يدعون إليه ويجعلونه مذهبا لهم خارجا عن إجماع المسلمين وماعليه أهل التحقيق . ومن العجيب أنهم يسمون أسلافهم الضالين والمضللين الذين هم على قدمهم أهل الإجماع . وأن الإجماع مصدره من الصحابة والتابعين وهم أهل السواد الأعظم من المسلمين على ماقدمنا وهم المعنيون فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة بالأمة التى يستحيل تواطئها على الكذب . ثم إنهم قد يجيزون التوسل بالصالحين الأحياء منهم فى هذه الحياة الدنيا كما قال ابن تيمية فى رسائله إن الأنبياء والمرسلين وسيلتنا إلى الله فى دعوتهم وإرشادهم الخلق إلى الله تعالى ثم استمر إلى أن تقاها عنهم أمواتا : ننشأ من على قدمهم الآن ينكرون التوسل بالأموات اعتقادا منهم بأنهم ماتوا واتهوا على عقيدة اليهود والنصارى . بل يعتقدون أن المساجد التى فيها الموتى لا يصلى فيها . والصلاة فيها باطلة . كما كان المشركون يصلون للأصنام . هذا والله تعالى أبان فى كتابه العزيز أن ميت الآدمى ولو كافرا أحيا من حياة الدنيا على مابينا وسيأتى قريبا البيان الذى يجعل أدلتهم واهية بل وعاطلة لايقبلها ذو عقل سليم وسيتضح لك ذلك إن شاء الله تعالى . وقد أفردنا للميت الآدمى بابا خاصا أوضحنا فيه أنه أحيا من حياة الدنيا من الكتاب .

العزيز والسنة المطهرة وإجماع عقلاء الأمة على ذلك مما لا يستطيع أحد أن يرده ولم تدع
فيه قولة لقائل وإذا كان هذا الميت حيا أحيا من حياة الدنيا أفلا يجوز التوسل به ومن أدل
الدلائل على حياة الآدمى الميت قول الله تعالى (وسل من أرسلنا من قبلك من رسلنا
أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وهل الله سبحانه يرشد رسوله صلى الله تعالى
عليه وسلم إلى أموات بادوا وانتهوا وما قال تعالى ذلك إلا أنهم كانوا قالوا لرسوله
(والله أمرنا بها) والله تعالى عالم بأن ميت الآدمى حى أحيا من حياة الدنيا ولو كافرا
وكذا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك إنما رد عليهم بذلك تقريعا لهم وخزيا وكل
المؤمنين يعلمون كذلك بما أفاض تعالى عليهم بالعلم والمعرفة فى كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم.
كيف لا وقد توسل صلى الله تعالى عليه وسلم بالآدميين الأموات فى حديث السيدة
فاطمة بنت أسد الذى قال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم بحقى وحق النبيين
من قبلى اغفر لأمى فاطمة بنت أسد » الحديث. تقدم قريبا وقد توسل صلى الله تعالى
عليه وسلم بنعم الله تعالى على عباده. بسم الله والماء والتراب فى الحديث المروى عند
البخارى حيث قال (بسم ربنا وبريقة بعضنا وتربة أرضنا يشفى ربنا) قال شارحه
توسل صلى الله تعالى عليه وسلم بسم مبدع الكائنات وأشار إلى الأصلين اللذين خلق
منهما ابن آدم. الماء والتراب فماذا تقول بعد ذلك يا ذا العقل السليم لهؤلاء المنحرفين
المارقين فى عقائدهم الزائفة ودعواهم الباطلة أنهم على الحق وينا صرون السنة ويكتبون
كتبا ويطبعون منشورات ويقولون فى المحاضرات والخطب فى الجمعيات التى لا يسمعها
إلا من نشأه الله تعالى على تلك الضلالات فى قولهم إن المتوجه إلى شىء من خلق الله فهو
متوجه إلى غير الله فهو مشرك ويسردون الآيات التى لا يعقلون لها معنى إلا المخالفة
ومتابعة أنفسهم هواها. فانظر واعتبر وميز فى الفرق بين قولهم لا إله إلا الله (فقط)
وأن غيره من المخلوقات له أعمال تغاير أعمال الله تعالى ولا يخفى أن هذا هو عين
الضلال المعارض لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم. وهل يوجد
الله تعالى شىء فى الوجود خال من نعمه تعالى ورحمته التى وسعت كل شىء.
وهل يجردها منه بعد أن يموت وكيف يقول فى توجيه الله تعالى سيدنا موسى عليه السلام
إلى الخضر أهل كان موسى عليه السلام مشركا بالله وهو ذاهب إلى مخلوق مثله ؟
أم حين استشار سليمان عليه السلام أهل مجلسه والتجأ إلى المخلوقين بقوله أيكم يأتينى
بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين أكان مشركا ؟ ولما سأل بنوا إسرائيل موسى عليه السلام
عن من قتل هذا المقتول وقال لهم : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة وأخذوا يتعرفون
عنها حتى اهتدوا إليها أكان هذا انصرافا عن الله تعالى أم هو عين التشريع الإلهى لعباده ليعرفوا

أن له فى كل شىء آية تدل على أنه الواحد . فانصراف الخلق إلى الخلق ليعرفوا منها
أنه سبحانه وتعالى له فى أفراد موجوداته مميزات يغاير بعضها بعضا وأمر عباده أن يأتوا
من فيه أو عنده حاجته ويطلبها منه وهو فى هذه الحال متوجه إلى الله تعالى وهو الموجد لها والموجد
لمن عنده هذه الحاجة. هذا والله تعالى أمر عباده أن يحبوا ويخلصوا ويطيعوا وينقادوا
إلى المرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين فقال تعالى (من يطع الرسول فقد
أطاع الله). فقدم تعالى طاعة الرسول على طاعته جل وعلا. ومن المعلوم أن الرسول
غير الله وهو مخلوق له فقل له هل الله أمر عباده أن يشركوا به غيره ؟ أم ماذا تقول
يا أيها المفرق بين الله ونعمه فى مصادرها وهم خلقه ثم قال تعالى أيضا (قل إن كنتم
تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وهكذا الكتاب العزيز والسنة المطهرة يدعون إلى توحيد
الحق عز وجل فى كل شىء ومع كل شىء وبكل شىء حتى يصبح معنى وحده لا شريك له متحققا
فى كل شىء . أو لم ينظر هؤلاء إلى قوله تعالى (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون
حرج إذا نصحوا لله ورسوله) وقوله تعالى (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال)
أليس هذا توجيها للقتال وقدمنا فيه الكلام طويلا وإليك البيان الشريف من حضرته
صلى الله تعالى عليه وسلم حيث قال فى الحديث الشريف المروى عند البخارى وغيره
(من لكعب ابن الأشرف) والحديث الآخر (من لأبى رافع سر تجار الحجاز)
أليس هذا هو عين تشريع الحق عز وجل لعباده وأنهم يأخذون الأمور من مصادرها
وفى كل شىء بحسبه وأنه تعالى هو الذى أجرى الأسباب مع المسببات حتى يتم الأمر على
المعنى المراد ومن يحد عن ذلك فقد ضل ضلالا مبينا وهو الخارج عن الكتاب العزيز
والسنة. وقد سألنى سائل منهم بقوله ياسيدنا الشيخ أأترك الله وأذهب لسيدنا الحسين؟
فقلت له فى أية جهة تركت الله تعالى فسكت. فقلت: من خلق الحسين؟ فقال: الله فقلت له ومن
أوجد فيه هذه النعمة والمزية التى لا يشاركه فيها غيره؟ فقال: الله . فقلت له من يحقق سؤلى
عنده؟ فقال : الله . فقلت له: ومن حببنى فيه ورغبنى فى التوجه إليه؟ فقال: الله. قد له
إذا أنا ذاهب إلى الله أى إلى مصدر من مصادر نعمه التى أوجدها لعباده فى مكوناته
وأمرهم بالتوجه إليها وعلى هذا يكون النذر والحج وغيره وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى.

الفصل الخامس

فى إنكارهم التوسل وأن عمل الغير لا ينفع الغير

فمن أعجب أحوالهم وأغرب أقوالهم أنهم ينكرون التوسل وقد شرعه الله تعالى بالهام وأنه

موجود فى جميع كتب الفقه فى المذاهب الأربعة وهو باب الاستسقاء بالمطر ومنه أن المصلين يخرجون إلى الخلاء ويخرجون ماشيتهم معهم فما السر فى إخراج الماشية أليس فيه الإشارة بالتوسل بها إلى الله تعالى أن يسقيهم لأجلها ولا يردوهم خائبين وخاصة أن الشرع الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول فى دعائه « اللهم اسق بلدك وبهيمتك » فإذا كان التوسل بالبهائم نافعا أفلا يكون بالصالحين أنفع . نعم فيهم فرقة من أسلافهم يقولون التوسل بالصالحين الأحياء جائز وسيأتى بياننا لهم أن الميت فى قبره أحيا من حى الدنيا من القرآن والسنة . وعليه يكون التوسل به أنفع من حى الدنيا وأن الله تعالى لم يسلبه نعمة الكرامة التى كان بها متميزا عن غيره وهى من كمالات الله تعالى التى لا تتناهى فكيف بموته تنقطع الكرامة لأنه فى نظرهم متى مات ابن آدم انتهى مستدلين بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية » وهم لا يفهمون له معنى هل قال صلى الله تعالى عليه وسلم انقطعت حياته أو قال انقطع عمله لو قال انقطعت حياته كان لهم العذر فى فهمهم الخاطىء لكنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: انقطع عمله الذى يضاف إلى ما يكون له به الميراث فى الجنة ونحن لم نقل إنه يصبح يأخذ المفاتيح ويفتح الدكان أو يتسلم عمله فى وظيفته إنما نقول إنه أصبح فى حياته الأخرى أوسع من هذه الحياة الدنيا والحياة الأخرى إنما هى أكبر وأوسع من الحياة الدنيا على ما بيناه وسيأتى (عمل الغير لا ينفع الغير) قولهم هذا غريب وليس له أصل فى الدين يستدلون بقوله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) وهم مع جهلهم لا يفهمون لها معنى لأنه لو كان على جهلهم لاستضمت مع التشريع الكريم كيف ذلك والقرآن الكريم بخلاف ما فهموا ؟ ومرة سمعت شيخا من أشياخهم يذيع فى الإذاعة بهذه الألفاظ التى لا يقول بها إلا كل مخبول فى عقله فقابلته وقلت له: كيف تذيع هذه الألفاظ الخارجة عن الدين فقال أنا عالم ولى أن أقول ما أشاء وأنت عالم لك أن تقول ما تشاء . فقلت له يظهر أنك لم تصل على أحد من أموات المسلمين فى حياتك ولم يرتدع عن غيه وطبعها فى كتابه المملوء بالكلام الفارغ كلام من سبقه فى الضلال . والحمد لله قد رددنا عليه وعلى غيره فى طرهاتهم الكاذبة فلست أدرى أهؤلاء أنفسهم من المسلمين وهم يهدمون فى عقائده ويطعنون فيه ويقولون على الله ما لا يعلمون وأن ليس للانسان إلا ما سعى وراء الإيمان وأنه متى كان مؤمنا له ما للمؤمنين من الخير العائد على المؤمنين فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة كما قال تعالى فيهم (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل

في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) وأيضا أبان لنا سبحانه وتعالى أن غير جنس الآدمي وهو جنس الملائكة يدعون للمؤمنين في قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) الآيات ولا يخفى أن دعاء الملائكة مستجاب. وكان من حسن الرد عليه أمام جمع كبير من العلماء وكثير من طلبة الأزهر، وذلك أن أحد العلماء المدرسين بكليات الأزهر صدمته سيارة أمام بيته بالزيتون فجاءوا به ليصلى عليه بالأزهر ودخلوا به قبل الميعاد المحدد فوضعوه أمام القبلة القديمة في الأزهر على غير القبلة حتى على عكس القبلة ودخلت لأصلي عليه مع المصلين فوجدت الحال مخالفا. فقلت ياسبحان الله. في الأزهر وأمام علماء الأزهر الرجل يوجه على غير القبلة فلا تنبهوا وعدلوه إلى القبلة ثم وجدت له أهلا يبكون عليه. فقلت لجميع الحاضرين لاتبكوا عليه فالأفضل اقرءوا قرآنا لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قرأ القرآن على الميت. ثم قلت: يامعشر الناس من لم يكن متوضئا منكم فليتوضأ ليكثر الشفعاء للميت. لأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال «من صلى عليه أربعون قبلت شفاعتهم». وأشرت إلى من قال: عمل الغير لاينفع الغير وهو جالس مع وزير الأوقاف وقلت لأجل أن تردوا على من قال في الإذاعة عمل الغير لاينفع الغير مستدلا بقوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) وهو لايفهم للآية معنى. فكان هذا أحسن من الرد عليه في الكتاب وإن كنت لم أدع لهم مخالفا إلا قطعت عليه ألسنتهم

(الفاتحـــة)

ومن أنجس أقوالهم وسيء اعتقادهم قولهم إن الفاتحة لا تنفع الميت ولا لقضاء الحاجات. وها هي الفاتحة ليس فيها نفع الميت ولا لقضاء الحاجة. وقد جهلوا أن الفاتحة جمع الله تعالى فيها جميع ما في القرآن المجيد وأن أخير ما يتوسل به إلى الله تعالى كلامه ويقولون القرآن قانون يعمل به لاغير. ماله وللأموات ولقضاء الحاجات ثم إنه قد جرت عادتي أن أتهكم بهم أولا. وأذكر لهم الدليل العقلي ثانيا. ثم الدليل النقلي من الكتاب والسنة والإجماع لئلا يكون لهم ولا لأي أحد حجة فيقول من الأمور التي لا ينكرها من عنده أثارة من علم أن نعم الله تعالى التي لا تحصى منها الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي أفهل يقتصر منه على شيء وإلا هو جعله الله تعالى صالحا لكل شيء من مستلزمات حياة ابن آدم. وإذا كانت نعمة واحدة صالحة لكل شيء. أفلا يكون كلام الله تعالى صالحا لكل شيء. هذا وأما القرآن الكريم فقد قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) أما الشفاء فهو للمرضى وقد حصل من الصحابة على بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم والحديث

رويه أصحاب السنن والمسانيد. وأما الرحمة فهي للأموات وقد قرأ صلى الله تعالى عليه وسلم الفاتحة على الميت كما هو مروى عند أصحاب السنن والمسانيد وقد جعلها سيدنا الإمام الشافعي سنة في الركعة الأولى في صلاة الجنازة. وإذا كانت الفاتحة بصريح القرآن. بيان السنة تنفع للعلاج من المخلصين الصالحين والرحمة عامة للمؤمنين أفلا تنفع لقضاء الحاجات. وقد روى القرطبي رضى الله تعالى عنه أن التابعي الجليل سيدنا سعيد بن المسيب كان جالسا بالمسجد يقرأ القرآن فدخل عليه رجل فقال له: إن زوجتي حامل لها خمس سنين أفرأها الفاتحة لعل الله تعالى يفرج عنها. فقال مالهؤلاء الناس بنا أيظنون أنا أنبياء. الفاتحة أن الله تعالى يفرج عنها مابها وقرءوا الفاتحة وخرج الرجل ورجع بعد ساعتين يحمل طفلا خارجة رباعيتاه. وهذا عمل التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين القرآن خير مايتوسل به إلى الله تعالى إذ أن القرآن جمع مافي الكتب السماوية على ماقدمنا وهو يشتمل على التوحيد والمعاملة والقصص. وكل ذلك في الفاتحة أفلا تكون خير ما يتوسل به في كل شيء. فالفاتحة هي الوسيلة في كل شيء لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ألا يكفيهم أن الصلاة لاتقبل إلا بها وهي القرآن والقرآن هي قال تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم).

التبرك بآثار الصالحين

إن في ليلة الإسراء لكبير دلالة على التبرك بآثار الصالحين حيث قال عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) وبين لنا صاحب السنة المطهرة ما كان من الإسراء الذى منه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم نزل فصلى بأرض هجرته وفي المكان الذى سيدفن فيه. ثم نزل عند الشجرة التى كانت سببا في بدء رسالة موسى عليه السلام. ثم نزل على طور سيناء الذى كلم الله تعالى عليه موسى. ثم نزل في المكان الذى ولد فيه عيسى عليه السلام. وكان في كل منزل يصلى فيه صلى الله تعالى عليه وسلم ركعتين وهكذا حتى تم الإسراء في جميع بقاع الأرض والأمور التى عاين فيها كل مايجب على كل مسلم العمل به والنهى عنه. وماحصل بالاجتماع العام الذى جمع الله تعالى له فيه جميع الأنبياء المرسلين. وما حصل في المعراج من انتظار المرسلين لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم في كل سماء وما دار بينهم من الكلام الذى بينه في السنة في ذلك من خوارق العادات والكل كانوا أمواتا وماحصل من جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى من قوله

إلى هنا آخر مقامي يا محمد وهو ملك مخلوق من نور وما حصل لحضرته وهو صلى الله تعالى عليه وسلم بشر وقد أجازه الله تعالى إلى ما فوق العرش حتى قال العارف بذلك:

يابن عمران شرفت سيناء ‏ ‏ ‏ وبإدريس والمسيح السماء

ولك العرش موطيء ووطاء ‏ ‏ ‏ كيف ترقى رقيك الأنبياء

ياسماء ما طاولتها سماء

فكان يكفي هذا في بيان التبرك بآثار الصالحين وإن السنة المطهرة ملأى من بيناتها الشريفة صلى الله تعالى عليه وسلم التي منها ماء وضوئه صلى الله تعالى وسلم ومن فضل ثوره وثور أصحابه.

ثم تقبيل يديه صلى الله تعالى عليه وسلم الذي صار سنة لعباد الله الصالحين التبرك بهم من بعد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم للتأسي بالصحابة مع حضرته وهكذا كان أمر التابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين. والسنة مليئة بالبيان الشريف الصادر عنهم أجمعين وناهيك بما صدر من غير وفد وهو وفد عبد القيس وغيرهم وهاك بيان عبدالله بن العباس الذي أمسك بزمام دابته فقال اهذا يابن عباس فقال: أمرنا بأن نفعل مع أشياخنا هكذا فقبل شيخه يده وقال وبهذا أمرنا أن نفعل مع آل بيته نبينا. فتقبيل يد الصالحين سنة عن سيد العالمين ولاينكرها إلا الجاحدون الحالقون الخارجون عن إجماع المسلمين. هذا وإن الشهاب الخفاجي محشي البيضاوي سأل شيخه. فقال إن ناسا ينكرون على من يقبل يد الصالحين. فقال

قبل يد الأخيار من أهل التقى ‏ ‏ ‏ ودع عنك طعن عنك طعن

فإن ريحانة الله عباده ‏ ‏ ‏ وشمها لثم أياديهم

وإليك واقعة حال حصلت معي وهي أني اطلعت على مجلة نداء الشرق وقلت فيها إن الإمام أحمد بن حنبل كان يتبرك بآثار شيخه وأجاز تقبيل قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم والصالحين والوهابية يدعون أنهم حنابلة وينكرون كل ذلك بل يقولون لمن فعل ذلك مشرك فرد على أحد الوهابية فقال إن الشيخ عبد ربه رجل عظيم ولكنه سرد كلاما بدون دليل. وقال إن الإمام أحمد بن حنبل توسل بشيخه الإمام الشافعي ولم يذكر لنا في أي كتاب توسل الإمام أحمد بشيخه الإمام الشافعي وقال في الرد كلام. فرددت عليه وقلت: مانصه. بعد اطلاعنا على مقال الأستاذ عبدالله بن محمد العالم بنجد الذي لم يخرج فيه عن دائرة عقيدة الوهابية في إنكارهم ماعليه خيار الأمة الإسلامية من بيان ما اشتمل عليه صريح الآيات القرآنية التي حادوا عنها وخالفوها في عقائدهم وهي لم تخرج عن مقال صاحبه إمام المسجد الحرام. حذوك النعل بالنعل وقد سبق رددنا عليه في خمس مقالات. ويظهر أنهم اقتنعوا بما ذكرناه لهم في سابق الأعداد غير أنهم لم يصلوا إلى معرفة ماتوسل به سيدنا أحمد بن حنبل بأشياخه وآثارهم المباركة حتى انه طلب منا الدليل على ذلك.

وهاهو الدليل والبيان. قال الحافظ العراقي في كتابه فتح المتعال: أخبرني الحافظ أبو سعيد ابن العلاء قال رأيت في كلام والدي أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ أن الإمام أحمد بن حنبل سئل عن تقبيل قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وتقبيل غيره . فقال لابأس بذلك . فأريناه الشيخ تقي الدين بن تيمية . فصار يتعجب من ذلك. ويقول عجب عندي أحمد جليل يقول هذا؟ قال وأي عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أنه غسل قميصا للشافعي وشرب الماء الذي غسله به. وموجود بخط الحافظ الضياء القدسي الحنبلي في كتابه الحكايات المنثورة المحفوظ الآن تحت رقم ٩٨ من المجاميع بظاهرية دمشق أنه سمع الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي يقول إنه خرج في عضده شيء يشبه الدمل فأعيته مداواته ثم مسح به قبر أحمد بن حنبل فبرئ . ولم يعد إليه — وفي تاريخ الخطيب جزء أول ص ١٢٣ يسند إلى الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال — إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره كل يوم يعني زائرا . هذا ابن تيمية الذي جمع لكم كل المخالف لإجماع المسلمين المتلون في رسائله جمعاء يروي عن الإمام أحمد أنه تبرك بآثار شيخه الشافعي فكيف تفهمون كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين فيال العجب والسلام . كان هذا هو ردي عليهم فلم يستطيعوا جد ذلك كلاما . ثم إنه ثبت عن سيدي الإمام الشافعي أنه في توسلاته قال :

وبالعلماء العاملين بعلمهم • وبالأولياء السالمين من الدعوى

وهاهو المشهور عنه رضي الله تعالى عنه

أحب الصالحين ولست منهم * وعسى بالصالحين أنال الشفاعه

وأكره من تجارته المعاصي * ولو كنا سويا في البضاعه

قال له سيدي احمد بن حنبل تلميذه رضي الله تعالى عنهم أجمعين :

أنت تحب الصالحين وأنت منهم وعسى بك الصالحون ينال الشفاعه

وحقا تكره من تجارته المعاصي حماك الله من تلك البضاعة

وهذه هي سنة الله تعالى في خلقه التي جعل عباده أجمع على المقابلة والمماثلة فالصالحون يحبون الصالحين والمخالفون يحبون المخالفين . ثم إنا قدمنا لك بأن تقبيل قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقبور الصالحين جائز لاشيء فيه ونبينه لك من وجهين . أولا : إن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كانوا يقبلون قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا أمر سائد عندهم بالفطرة ولعلهم أخذوه من بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم من تقبيله الحجر الأسعد لأنه ينسب إلى جهة المعبود سبحانه وقس على ذلك قبره صلى الله تعالى عليه وسلم ولذا لما جاءت السيدة فاطمة

الزهراء رضى الله تعالى عنها زائرة لقبر أبيها اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله قبضت قبضة من التراب الذى على القبر الشريف ثم قالت :

وماذا على من شم تربة احمد ٭ أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها ٭ صبت على الأيام عدن لياليا

ثم قبلت التراب ووضعته وتناولها للتراب ولم تطئطئ أمام الناس ولم ينكر عليها أحد من الصحابة . وها هو سيدنا بلال لما جاء للشام لزيارة معاوية ومكث عنده اثنى عشر يوما فرأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول له أوحشتنا يابلال فقام من نومه عازما على السفر وحاول الخليفة تأخيره إلى الصباح فلم يستطع وجاء إلى قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وجعل يمرغ خديه على قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويبكى ويقول: أوحشتنى يارسول الله ويقبل ويبكى فلم ينكر عليه أحد من الصحابة وهكذا صار الأمر مستمرا إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى من المحبين .

وثانيا : أنه يجب على كل مؤمن أن يعتقد أن الله تعالى خالق المعانى والصور وقد جعل سبحانه وتعالى لكل معنى صورة فى الخارج تدل عليه كما سنبين لك ذلك باب فى باب الموت والحياة لتعلم أن الموت معنى من المعانى وصورته فى الخارج عدم الحركة فى الحيوان والحياة معنى من المعانى وصورته فى الخارج الحركة كما أنه سبحانه جعل الحب معنى فى القلب وصورته فى الخارج التى تدل عليه أنواع وأقلها القبلة فالذى أتى بالزائر للمزور إنما هو الحب وحبنا فى الولى لا يكون إلا لله تعالى لأن الله تعالى يحبه لأنه من آل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وآل البيت حبهم واجب وأجرى سبحانه عليه نعمة الكرامة فحبنا فيه لذلك فنحن نحبه لحب الله تعالى فيه . وكما عرفت صورة الحب فكذلك صورة البغض فيجب عليك أيها المعارض المخالف أن تعرف ذلك . وتعرف أسرار ربك كيف جعلها على المقابلة والمماثلة وأيضا الإيمان الذى محله القلب معنى من المعانى وصورته فى الخارج الإسلام وما اشتمل من الأحكام الشرعية التى يعرف بها ومنها أنه مؤمن مسلم . ولنضرب لك مثلا لكى يستنير لك الأمر وهو أن لك طفلا صغيرا ولبرودة الجو لفته أمه بقميصها فوق ثيابه فرأت أيضا الجو أبرد فلفته بملف أثقل ورأت أن تلفه بأثقل أيضا وجئت بسيادتك وناولتك الولد بهذه الحالة وبالطبع أنت تحبه فأردت أن تبرهن على حبك بالصورة الظاهرية وهى القبلة فأى شىء أمامك تقبله فلا تقبل إلا اللحاف الصغير وإذا رفعناه فلاتقبل إلا الملف الذى تحته وهكذا حتى ثيابه ثم تقبل الجسد وهو المراد بالذات وهل الجسد أنت صنعته وإلا هو صنعة الصانع المبدع الذى أحاطه بكرمه ونعمه . فكذلك الزائر

لولى أو أى نبى من الأنبياء والمرسلين فإنه يقبل ما هو محيط به لصلته بالمحبوب ولو الحيطان أو الضريح أو القبور فإنه يجوز تقبيلها على ما قدمنا لك من الأدلة . هذا ويظهر أن مجنون ليلى كان رجلا صالحا علم ربك أنه سيظهر خوارج معارضين لأهل الحق فأنطقه بما يقطع به ألسنتهم بعد الأدلة التى قدمنا حيث قال :

أمر على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديار

القبور فى المساجد

غير خاف أن كل من جعله الله تعالى مخالفا لإجماع المسلمين ينكر على دفن الأموات فى المساجد ، بل لا يصلى فى مسجد فيه قبر فيه ميت ، زعما منه أن الميت فى المسجد كالصنم فى اعتقادهم الفاسد ، وزعمهم الباطل ، قائلين إنه مات وانتهى ، وهى عقيدة اليهود والنصارى كما قال تعالى مبينا لنا عقيدتهم فى الأموات (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) مع أن الله تعالى بين لنا سبحانه أن الكافر فى قبره أحيا من حى الدنيا كما بيناه من الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، ولما كان حالهم المخالفة ، لم يرشدهم الحق سبحانه إلى الصواب أبدا ، كما قال تعالى فى أسلافهم المعارضين لسيد العالمين (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) بل يعتقدون أن الصلاة بالمسجد الذى فيه ضريح باطلة ، وبعضهم يقول : صل ولا تجعل القبر أمامك ، وهل المصلى يقول « الله أكبر » وأم القبر أكبر » ما أجهلهم ! أولم يكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يصلى والسيدة عائشة معروضة أمامه كالجنازة ، فإذا سجد غمزها فى رجلها فتقبضها ، وإذا رفع مدتها . الحديث يرويه البخارى وغيره . وهل الذى على وجه الأرض أبين أم الذى تحت التراب ، نقول لهم : إن دفن الأموات فى المساجد سنة لله تعالى قديمة قبل ظهور سيد العالمين ودعوته العباد لتوحيد رب العالمين ، ومن العجيب أن السبكية منهم ، وأن شيخهم قد كون جماعة من العلماء قاموا بشرح سنن أبى داود أحد الكتب الصحاح الستة وهو أى أبو داود روى فى صحيحه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « ما بين زمزم والحطيم تسعون نبيا موتى » فهم يتركون بيان سيد العالمين ، ويتبعون الوهابية الذين أعماهم الله تعالى جميعا عن فهم حقائق الدين ، وما جاء فيه من أنواع التبيين وما جاء عن الأنبياء والمرسلين الذين أهلك الله أقوامهم ، وكانوا يرحلون إلى مكة ويقيمون فى البيت الحرام حتى إذا ما انتهى أجل أحدهم دفن حيث تخرج روحه ،

فكلهم كانوا كذلك . وقد قال سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم (نحن معشر الأنبياء ندفن حيث تخرج أرواحنا) وهاهو حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كان كذلك، ودفن في بيت عائشة رضي الله تعالى عنها، ودفن معه الصديق رضي الله تعالى عنه، وأن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما أصابه ما كان سببا في موته أرسل ابنه عبدالله إلى السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها يستأذنها فى دفنه مع صاحبيه ، قالت نعم . إنى استأذنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن أدفن معهما فقال (ما هو إلا موضعى وصاحبي وعيسى بن مريم) فدفن عمر معهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وكانت عائشة رضى الله تعالى عنها تزور النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ووالدها رضى الله تعالى عنه فى قبرهما وهى مكشوفة الوجه ، ولما دفن عمر رضى الله تعالى عنه معهما كانت تزورهم مقنعة . أفلا يعتبر هؤلاء من حياة أصحاب القبور بل ولا من بناء مسجد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فوق قبور المشركين؟ والحديث يرويه البخارى وغيره «أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقبور المشركين فنبشت ،وبالطعام فقطيت وأسس مسجده الذى أسس على التقوى» ، وقد قال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة، ومنبرى على حوضى » الحديث وأيضا قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم « كل ما أضيف إلى مسجدى فهو مسجدى» وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم بأسرار الوحى أنه سيضاف إلى مسجده ما سيضاف إليه شيئا فشيئا حتى صار كما هو عليه الآن ، فقد تحقق قوله الشريف المعروف أنه أضيف إليه الكثير حتى أصبح القبر الشريف مخالطا بالمصلين ، أو لم يكفهم هذا ؟ وهذه هى الأماكن المقدسة المطهرة المدفون بها الكثير من الأموات ، والمسلمون يصلون فيها قديما وحديثا ، أفلا يقتدى بها وبهم ؟ فالقبور فى المساجد سنة الله فى خلقه لما بينا من الأدلة (ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

الطواف حول القبور

أما الطواف حول القبور فلا شىء فيه ، لأنه سنة الله فى خلقه ، وقد أخذ قياسا من الطواف حول الكعبة ،وإلا فما فائدة القياس فى الدين ، بل إن الطواف حول الكعبة عبادة وحول الضريح عادة ، ثم إن الطواف حول الكعبة ما هو إلا لنيل البركة الموجودة فى الكعبة كما قال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) الآية، فكان الطواف حول الكعبة للحصول على البركة ، ولتوجيه الله تعالى عباده إلى جهة

أو إلى أي مكان ليعلم منها امتثال أمر المعبود بحق كما قال تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) وحيث كان كذلك لحرمة العبد المؤمن الصالح أحسن وأفضل ، كما روى الترمذى أن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما وقف تجاه الكعبة وقال (أشهد أن حرمتك عند الله عظيمة ، ولكن حرمة المسلم عند الله أعظم منك) وحيث عرفت هذا ، فالطواف حول ضريح الصالح لاشيء فيه .لأنه وماحوله معمور بالرحمة والبركة على الدوام خاصة الأماكن الطاهرة ، لاتبرحها الملائكة أبدا ، وأن الدعاء فيها مستجاب بنص الحديث الشريف «أحب البقاع إلى الله مساجدها» الحديث ، ولذا كان من هنا رغبة عباد الله الصالحين الدفن بالمساجد ، ثم اعلم أنه لايوجد على وجه الأرض ولى لله تعالى إلا وهو من آل البيت بدليل قوله تعالى (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) فالرحمة وهى الإكرام لهم مستمرة إلى يوم القيامة ، فإن قال قائل ، الآية لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام نقول نعم ، إنما عادة الله تعالى أن يذكر من البيت أبرزه ، وإن أبرز بنى إبراهيم عليه الصلاة والتسليم إنما هو إسماعيل وكان رسولا نبيا فى بنى إبراهيم، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار» هذا وقد سئل صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أنزل الله عز وجل قوله تعالى (قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) من آل بيتك يارسول الله الذين أوجب الله تعالى علينا حبهم وودهم ، فقال (فاطمة وعلى وما تناسل منهما) هذا ولما أنزل الله تعالى فى شأن سيدنا عيسى عليه السلام النيف والسبعين آية الواردة فى قوله تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) الآية ، قالوا من الغد يا محمد، فلما غدوا من الغد خرج صلى الله تعالى عليه وسلم وبيده الحسن وبالأخرى الحسين ، وخلفه فاطمة ، وخلفهما على رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، فعرف الناس أن هؤلاء هم أهل البيت ، وإليك مارواه الترمذى عن أنس بن مالك، أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جبة يمانية واسعة فلبسها صلى الله تعالى عليه وسلم يوما وأراد الخروج، فجاء الحسن يجرى فدخل تحتها وجاء الحسين يجرى فدخل تحتها، فجاءت فاطمة فدخلت تحتها وجاء على فدخل تحتها فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) هذه الأدلة تثبت لك أنه لايوجد ولى لله تعالى يجرى الله تعالى على يديه خرق العادات والنعم بإظهار الكرامات إلا وهو من آل البيت رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . وناهيك بما رواه الأئمة الثقات عن ابن مسعود رضى الله تعالى

عنه وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله تعالى وسلم قال «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا آل بيتي لحبي» أفلم يكن هذا أكبر دليل على حث عباد الله الصالحين المؤمنين على حب آل بيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وودهم أولم تكن الزيارة لهم أحياء وأمواتا حبا وودا. وهل الزائر لهم المحب يكون مشركا؟ قل لهؤلاء الذين ينكرون بيان الله تعالى لعباده على لسان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ويكرهون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وآل بيته الطيبين الطاهرين. نسأل الله تعالى أن يرزقنا حبهم وودهم ودوام عطفهم وأن يحشرنا في زمرتهم وكل محب لهم إكراما لمن أرسله رحمة للعالمين.

القباب التي على القبور

يقولون في القباب التي على القبور إنها بدعة ضلالة ولا أصل لها في الدين ولا بيان سيد العالمين قولهم هذا زور وبهتان أيرضى علماء المسلمين عن فعل منكر في الدين أو على شيء لم يرضه الذي أوكل الله تعالى إلى حضرته البيان والتبيين في دينه المبين وكيف ذلك والله تعالى جعل لعباده المحترمين في الدنيا الميزة والتمييز عن سائر أقرانهم حتى في أسفارهم بأن تكون لهم القباب على المحامل وإذا أوضعوها فلا يجلسون إلا تحتها ولا يعرف العظيم في القوم من غيره إلا بجلوسه تحتها فصارت علامة على من مات منهم ليميز بها عن غيره أيضا بعلامة يعرف وقد جاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال «ضعوا لي على قبر صاحبكم علامة» وهو سيدنا سعد بن عبادة الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم «اهتز العرش لموت سعد» وهو الذي ارتضاه يهود خيبر أن يكون حكما بينهم وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وبعد أن حكم قال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم «إن حكمك هذا نزل من فوق سبع سموات» فهذا العظيم لما مات وكان حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، قال لمودعيه إلى مدفنه بالبقيع «ضعوا لي على قبر صاحبكم علامة» فصار الأمر من ذلك الحين وضع علامة على قبر العظماء ليميزوا بها عن غيرهم، ثم إن أول من أحدث القبلة على القبة الفاطميون وهم من خيرة تابعي التابعين، وهم من الذين قال فيهم صلى الله تعالى عليه وسلم (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) واعلم أن الأمر ما ساد وما اتبع إلا من بيانه الشريف في شأن سيدنا سعد، وقد رأوا أنه لا يوجد أعظم

من حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم، فعملوا الحضرة تمما يكون أعظم ميزة ، ودأب الناس على ذلك حتى ترقوا فى وضع العلامة على القبر بأن يكتب عليها اسم صاحب القبر ، وزاد الكثير من الناس ذكر شىء من مميزاته التى كان عليها فى الدنيا حتى توسعوا إلى أن وصلوا إلى ما تراه الآن .

فالقباب إن لم يكن فيها إلا قراءة الفاتحة والترحم على من تحتها لكفى ، وهى لبيان فضل العظماء فى الدين والدنيا والآخرة ، ولا شىء فيها إلا ما ذكرنا فالمنكرون والمعارضون لاحظ لهم إلا الحسد لعباد الله الذين أنعم الله تعالى عليهم حتى استحقوا تلك الميزة ، ويا ليتهم اقتصروا على ذلك ، بل يبخلون بالترحم وقراءة الفاتحة لصاحب القبة مع أن الله تعالى أبان لنا فى كتابه العزيز بأنه تعالى يرحم الكافر لوجود العبد الصالح فى بلده قال تعالى ردا على سيدنا إبراهيم لما جادل الملائكة بقوله : أتهلكون قرية بها أربعون صالحا؟ قالوا: لا، قال وثلاثون؟ قالوا: لا، قال: وعشرون؟ :قالوا لا قال وعشرة؟ قالوا لا ، قال : لا ، قال وواحد؟ قالوا لا (إن فيها لوطا) الآية والله أعلم .

الموت والحياة

يعتقد كل ضال من الخوارج الوهابية وغيرهم بأن الموت عبارة عن العدم، ولا قائل به غير الكافرين الذين هم على مبادىء الشيطان وضربه ، فهم على تلك المبادىء تبع لذلك الحزب؛ لأن العقلاء يفهمون أن الخلق فى كل شىء على حالتين : إيمان وكفر ، ضلال وهدى ، حتى فى الحزبية حزب الشيطان وحزب الرحمن وهكذا . كما لا يخفى على كل ذى بصيرة قال الله تعالى فى عقيدة الكافرين ومن على مبادئهم (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) فكل هؤلاء شركاء فى العقيدة فيقولون: إن الموت عدم وفناء وعليه يبنون أن الذاهب الميت ذاهب إلى عدم وفناء، وهو معارض لصريح القرآن والسنة فعقلاء الأمة رضى الله تعالى عنهم يقولون: إن الموت والحياة وصفان يقومان بالموصوف فى كل شىء بحسبه قال تعالى (الذى خلق الموت والحياة) الآية فموت الأرض، عدم النبات بها وحياتها بالنبات فيها قال تعالى (والله أنزل من السماء ماء فأحيينا به الأرض بعد موتها) وموت الكافر وهو حى يجرى على الأرض بعدم الإيمان كما قال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات) الآية فلا يخفى أن الموت فى الحيوان وصفه بعدم الحركة، وفى النبات بيبسه وفى الجماد تفرق أجزائه. والحياة فى كل ذلك بضده

يعنى فى الحيوان بالحركة ، وفى النبات بالخضرة ، وفى الجماد بتماسك أجزائه .

ولما كانت الحياة منها ما هو معتبر الصنعة ، ومنها ما هو غير معتبر فعد الله تعالى المؤمن به وبأنبيائه وآياته حياة طيبة . ومن كان بخلاف ذلك فليس بذى حياة طيبة فحياته كحياة غيره من غير الآدميين .

ولما كان وصف الموت والحياة مشتبهان فى حالة النوم واليقظة فرق الله تعالى بينهما بقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) الآية . فحال النائم كحال الميت سواء بسواء فى عدم الحركة فى كل فالفارق بينهما قيام الحى يسعى فى الأرض إلى أجل مسمى والميت عدم الحركة مطلقا .

ولما كان الموت والحياة عنوانا لهاتين الصفتين ذكر الله عز وجل الفارق بينهما بالنسبة للدنيا والآخرة إذ قد سمى سبحانه وتعالى لكل منهما حياة وموتا فبين عز من قائل إن حياة الآخرة أرقى وأعلا وأرفع من حياة الدنيا فقال تعالى (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) الآية وفى الآية الأخرى (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) . وباعتبار ماقدمنا من أن الموت عدم الحركة والحياة الحركة فهم الكافر قبل وجوده فى الدنيا موت وفى الدنيا حياة ، وفى القبر موت وبعد قيامه ودخوله جهنم حياة أخرى فقال (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) . الآية فتعرف من هنا ومما قدمنا لك أن الله عز وجل ذكر أن للدنيا حياة وللآخرة حياة فكيف يقر ويقول المخالف الملحد بحياة الدنيا وينكر حياة الآخرة التى هى أحيا من حياة الدنيا بصريح كلام رب العالمين وبيان سنة سيد المرسلين ولا فاصل ولا فارق ولو لحظة بين الحياتين بل ينتقل من حياة الدنيا إلى حياة أرقى منها متصلا بها اتصال اليقظة بالنوم والجوع بالشبع والألم بالصحة والفقر بالغنى والكفر بالايمان والليل بالنهار فهل يا أخا العقل فاصل بينهما أو فتور ؟ كلا إن ربك القادر جل وعلا جعل الموجودات متصلة لا انفصال بينهما إلا فى عقل المخالف ونظر أعمى البصيرة ، والله يهدى من يشاء إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

واعلم أن الموت والحياة ترق فى الوجود بالدليل العقلى المستفاد من الدليل النقلى : الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فالعقلى هو اعتقاد أنه ما تعلقت قدرة الحق عز وجل بإيجاد موجود إلا ويترقى فى الحياة أبداً لا يلحقه العدم بالمشاهدة والعيان وذلك فى كل شىء بحسبه بمعنى أن ترقيه فى الوجود بالانتقال من حالة إلى حالة أرقى منها . إذ الموجد

جل وعلا ما أوجده إلا بمقتضى كماله ، وكمالاته سبحانه وتعالى لا تتناهى إذ ما من كمال إلا وعند الله أكمل منه . وأيضا أنه تعلقت صفته تعالى به وهى حى بالوجود . ولو انعدم هذا الموجود لتعطلت الصفة التى هو أى الوجود بها حى . وصفات الله تعالى لاتعطل .

وأما النفى فقد قال تعالى بعد أن سمى الحياتين الدنيا والآخرة (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) وقال صلوات الله تعالى وسلامه عليه مفصلا لتلك الحالتين بقوله الشريف « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » ولما كان حال الدنيا مبنيا على تفاوت ودرجات للموجودات فيها فقد قال تعالى فى النبات (يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) وفى الجمادات قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) الآية وقال تعالى فى الدواب والهوام والحشرات والطيور والوحوش والأسماك أنهم كبنى آدم فى الأحوال الاجتماعية (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) وفى بنى آدم الذى هو محل نظر الحق عز وجل من هذا الخلق الذى خلق له تلك الأشياء جمعاء وغيرها لم يجعل واحداً منهم يماثل الآخر بل التفاوت فى جميع أفراده بل ما اشتمل عليه الفرد من الجزئيات فى عموم مركباته جل الصانع المبدع قال تعالى (ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) وفيما فيه فخره فى الدنيا وعزه وشرفه فيما بينهم قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وفيما فيه جاههم من حيث الغنى بالمال قال (ولقد فضلنا بعضكم على بعض فى الرزق) وهذا فى عموم أفراد بنى آدم فقد جعل تعالى الفروق بينهم متباينة لاينكرها إلا كل مكابر من الذين يقولون اعمل وأنت تكون مثله .

وأما من هم أفضل بنى آدم وهم أقسام ثلاثة الأنبياء . فقد قال تعالى فيهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وفيمن هم أفضل أفضلهم وهم الأنبياء والرسل قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وفيمن هم أفضل منهم أفضلهم وهم أولو العزم من الرسل قال تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وفى الآية الثانية فى بيان أولى العزم قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين) الآية .

فهذا حال أهل الدنيا الذى لم يجعل الحق عز وجل فى فرد منه ما يماثل الآخر

لأنه لاضرورة إلى الثانى وقدرة الحكيم المتعال صالحة للتنوع فى الإبداع والإيجاد فالمخالف لإجماع المسلمين يقول فى الولى هو مخلوق مثلك. اعمل وأنت تكون مثله أو أحسن منه . فهو على قدم من قال أولا للحق عزوجل (خلقتنى من نار وخلقته من طين) بل تطاول وتعدى طوره بقوله (أنا خير منه) فتجد هذا المخالف لايحيد عن قول داعيه الأول ليكون من حزبه . أو هو يقول بقول الطبيعيين وهم على مبدأ إبليس أيضا أن الخلق مثل مصنع يسبب وينتج والمعروف فى قولهم وما يهلكنا إلا الدهر . مع أنه سبحانه وتعالى بين لعباده أن الحياة الدنيا على درجات وأنواع وأنه سبحانه وتعالى المبدع لكل شىء حتى الذرات التى هى شىء قال تعالى (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) .

ولما كانت الدنيا كذلك فقد جعل كل ما فى الآخرة كالدنيا غير أنه أرقى وأرفع فى كل أحوال الموجودات قال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وخاصة من خلقت له هذه الموجودات وقد تكفلت السنة المطهرة ببيان ذلك فى كل شىء بحسبه .

وأما صريح القرآن العزيز فى بيان حال بنى آدم بعد خروج أرواحهم من الحياة الدنيا وانتقالها إلى الآخرة فى كل مؤمن وكافر بأن تكون حياته مستمرة لايعتورها ضعف ولا انفعال فقد قال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) هذا حال الكافرين والمنافقين والضالين فحياتهم أرقى من حياة الدنيا لشعورهم بالعذاب بكافة أنواعه ولاشك أنه أشد من آلام الدنيا وأهوالها. وأما حال المؤمنين فقد قال تعالى فيهم (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) .

فبين عز من قائل أن الدخول مابقيت الدنيا ليس دخولا حقيقيا بل على الأبواب بما يشعر به بمآله كما قال تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) وهذه الآية اغتر وضل فى فهم معناها الكثير من الضالين إذ يقولون بأن بين الحياتين الدنيا والآخرة حياة برزخية وهم لا يفهمون معنى البرزخ وحقيقته هو الحائل بين الشيئين بقدرة ربه سبحانه إذ يقول تبارك وتعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان) . فظن هؤلاء أن البرزخ حياة بين الحياتين وهم مخطئون فى عقيدتهم غافلون عن فهم

ما جاء فى الكتاب والسنة وفاتهم قوله تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكوون) ثم أنى لهم القسم الثالث وهو الحياة البرزخية اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون.

وأما ما جاء فى السنة من أن الموت ترق فى الحياة فدليله ما ورد فى الصحاح من أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه» فقالت عائشة رضى الله تعالى عنها أو أحد يحب الموت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « إن العبد إذا احتضر : أى حضرته الملائكة لقبض روحه فى الحالة التى يغيب فيها عن الدنيا وما فيها ومن حوله ولا يرى إلا الملائكة . ورأى ما أعده الله له من النعيم المقيم رغب فيه فأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن العبد إذا احتضر ورأى ما أعده الله من العذاب الأليم كره فيه فكره لقاء الله فكره الله لقاءه» وهذا معنى قولهم فيما قص الله تعالى لنا عنهم (ما كنا نعمل من سوء) فترد عليهم الملائكة بقولهم (بلى إن الله عليم بما تعملون فادخلوا أبواب جهنم) وفى الآية الأخرى (قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فصريح القرآن أن حياة بنى آدم بعد مفارقة الدنيا أحيا من حياة الدنيا إذ فى الصحيح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « إذا مات أحدكم فإنه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار » ولا يشعر بذلك ويدركه حقا إلا من كان حيا. وفى الحديث الآخر «إذا وضع أحدكم فى قبره فيقال له انظر فينظر إلى النار فيقال هذا مقعدك فى النار وقد أبدلك الله خيرا منه فى الجنة فينظر إلى الجنة فيجد مكانه ويقال له هذا مكانك من الجنة» وفى الحديث الآخر «إذا وضع أحدكم فى قبره فيأتيانه ملكان له فيقعدانه ويقولان : ما عملك بهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول هو محمد جاءنا بالبينات والهدى فأجبناه واتبعناه هو محمد ثلاثة . وأما المنافق أو المرتاب فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ويقال له لا دريت ولا تليت ويضرب بمقرعة من حديد لو ضرب بها الجبل لذاب » وفى الآخر قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شىء إلا ويشهد له به يوم القيامة » ومن المعلوم أن الميت شىء ويشهد ضمن الشهداء والشهادة لا تعقل إلا من حى فصريح القرآن وبيان السنة على أن ميت الآدمى حى أحيا من حياة الدنيا وناهيك بحديث أهل القليب قليب بدر وهو بعد أن انتهت المعركة وقتل فيها سبعون من صناديد قريش وأسر مثلهم فجعل يمر صلى الله تعالى عليه وسلم على الصرعى ويقول لهم « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعد ربكم

حقا؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أتناجى موتى يارسول الله ؟ فقال: « ما أنت بأسمع منهم ولكن لا يجيبون » فهاهم الكفار يخاطبهم صلوات الله تعالى وسلامه عليه لعلمه بحياتهم أحيا من حياة الدنيا وها هو حديث الصحاح : بينما نحن جلوس إذسمعنا صوتا بعد العصر فى ضواحى المدينة فقلنا ماهذا فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « يهود تعذب فى قبورها » وفى الحديث الذى قدمناه فى الدلالة على جواز قراءة القرآن على القبور ووصول الثواب للميت أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم « مر على قبرين فقال يعذبان وما يعذبان فى كبير » الحديث أليس كل ذلك من صريح القرآن وبيان السنة يكفيك دليلا على أن حياة ميت الآدمى فى قبره أحيا من حياة الدنيا وأرقى منها بصريح القرآن وبيان السنة وإذا كان هذا فى الكافر أفلا يكون فى المؤمن المجرد الإيمان أرقى ؟ وفى العبد الصالح أرقى منه ؟ وفى الولى أرقى منه ؟ وفى الشهيد أرقى وأرقى ؟ وفى الأنبياء والمرسلين أضعاف ذلك ؟ خصوصا وقد قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) ولاتنسى قوله تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) حتى ان بعض المحققين من خيرة العلماء العاملين الشارحين لبيان سنة سيد المرسلين عن قوله فى الحديث السابق فى سؤال الملكين للميت « ماعلمك بهذا الرجل ؟ فينظر الميت فيجد أمامه صورة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فالمؤمن من يراه كأنه كان معه بالأمس فيقول هو محمد » الحديث . ولذا أجمعوا على أن ما من ميت يموت مؤمنا كان أو كافرا أومنافقا أو ضالا إلا وتحضر له صورة من صور حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وقدرة الله تعالى صالحة لذلك ولعلك قد فهمت من حياة الآدميين أن أحيا حياة فيهم وأرقاها حياة الأنبياء والمرسلين فما بالك بحياة سيد العالمين . أليست أعم وأشمل وأوسع من حياة جميع الآدميين ولعله يقرب لك فهم الحديث الصحيح الذى أفرد به بعض أفاضل الأمة مؤلفا خاصا وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « حياتى خير لكم ومماتى خير لكم تعرض على أعمالكم بالغداة والعشى فما وجدت خيرا حمدت الله تعالى وما وجدت بخلاف ذلك استغفرت لكم » .

ويكفينا من تعليمه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم لزيارة الأموات بيانا على حياتهم ، وعلم الزائر بقوله « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » الحديث ففى هذا أكبر الدلالة على حياتهم إذ لايسلم صلى الله تعالى عليه وسلم على أموات ولايبين للأمة أن تسلم على أموات لايحسون ولا يشعرون ولا يعرفون من المسلم عليهم ، ففى الحديث المروى

عند الترمذى ما يؤيد حديث الزيارة وحياة المزور إذيقول صلى الله تعالى عليه وسلم «ما من عبد يمر على قبررجل كان يعرفه فى الدنيا ويسلم عليه فيرد عليه السلام ويعرفه» وناهيك بما رواه ابن سعد رضى الله عنه أن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها كانت تزور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأباها قبل أن يدفن معهما عمر رضى الله تعالى عنه غير مقنعة ولما دفن رضى الله تعالى عنه كانت تدخل عليهم زائرة مقنعة لأنه وجد مع أبيها وزوجها أجنبى ولأى شىء يا أخا العقل كانت رضى الله عنها تتقنع بعد عمر ماذاك إلا لأنها تعلم بحياتهم واعلم أن حياتهم عكس الدنيا مع ما هم فيه من النعيم أو الجحيم يدركون كل شىء الدنيا والآخرة .

فحياة أهل القبور من بنى آدم أحيا من حياة الدنيا بصريح القرآن وبيان السنة . ويعلمون بمن يدعو لهم أو عليهم وبمن هو راض أو ساخط عليهم وهذا معنى أن الحياة الآخرة أوسع وكل من مات من أهل الدنيا أصبح فى الآخرة . وأما قولهم إن الحياة الآخرة بعد القيام من القبور فهذا كذب محض وافتراء على الله ورسوله فى جميع مابينه لعباده إذ من أكبر الدلائل على أن حياة الآخرة التى هى أكبر وأحيا من حياة الدنيا ومبدؤها بمفارقة حياة الدنيا قول الله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون) فجميع عقلاء الأمة من المفسرين على أن المراد باليوم أى اليوم الذى تفارق فيه حياة الدنيا إذ لا يخفى أن هؤلاء لم ينظروا إلا إلى ماظهر من الأحوال فى نظرهم ومعقولهم ، وأما عقائدهم فى الأموات كعقائد الكافرين .

إذ يقولون : عظام الميت فنيت وبليت ولا أثر لحياته فهو كقول الكافرين الذين عارضوا بيان الحق عز وجل فى قولهم (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون) وقولهم (أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد) فحكى الحق عز وجل عنهم بقوله (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

فهم لم يفطنوا حق ولا لقول أمثالهم الذين كانوا قبل الاسلام فهم يقولون : شيئان لا يفنيان — المادة والروح فهذا هو الصواب بعينه وهو رأى لبعض الفلاسفة المتحققين فى علومهم بعقولهم التى ميزوا بها بعض الموجودات عن بعض فهم أحسن من الخوارج عقيدة وإدراكا وتمييزا إذ عقلاء الأمة يقولون بمفارقة الروح للجسد فى هذه الحياة الدنيا لا تفارقه مفارقة كلية بل تكون متصلة بمادته وجزئياته اتصال الشعاع

بالقابل له مع انكشاف ما هو عليه ولاحق به وقائم بذاته حتى يكون الواصل بالموصول على ما هو عليه حقيقة بينة .

فكل من تفرقت أجزاؤه وتباينت أوصاله وتباعدت ذراته لابد من اتصال الشعاع الخاص به على كل تلك الأفراد والجزئيات حتى ينطبق عليه بيان إدراكه بالنعيم أو العذاب فيدخل فى ذلك من تقطعت أجسامهم وتمزقت أشلاؤهم وأكلتهم السباع والأسماك والطيور ومن أبلتهم الأرض السبخة فمثلهم كمثل من حدث عنه الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث المروى عند أصحاب السنن والمسانيد « أن رجلا ممن كان قبلكم أحضر بنيه عند وفاته وقال لهم إذ أنا مت فاحضروا لى حطبا واحرقونى حتى إذا امتحشت فانظروا يوم رحا فأذرونى فيه ففعلوا به ذلك فقال الله تعالى له لم فعلت هذا ؟ قال حياء منك يارب فقال الله عز وجل عبدى استحى منى فاستحييت منه فغفر الله له » .

وأما من يدفنون بكامل أجسامهم فهم على قسمين فمنهم محترم الذات ومكرم الخلقة فلا تمس الأرض أجسامهم ولو دفنوا فى السبخة كما شوهد ذلك فهم فى قبورهم كيوم دفنهم.

ومنهم غير ذلك ويدفنون فى الأرض الرملة الجافة فأجسامهم تيبس وتجف كالخشب وغيره فأمرهم واضح ، اتصال شعاع الروح بهم اتصالا منحصرا وعليه يدركون النعيم والعذاب بالروح والجسد معا إذ لا قائل بتعذيب الروح دون الجسد ضرورة اعتراضها على خالقها لا أعضاء لى فعلت بها ! ! ولا على الجسد فقط ضرورة اعتراضه على خالقه لا حركة لى ! ! فتعين أن يكون العذاب والنعيم على الروح والجسد معا لاتصالهما بالفعل اتصالا مشتركا مباشرا لما يستفاد من قول الله عز وجل فى وصف أهل النعيم فلا يكون إلا بالإنسان الكامل بالروح والجسد . وفى أهل الجحيم كذلك قال تعالى (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله لهم عذاب جهنم) الآية وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) الآية . بعد أن عرفت مما تقدم أن شيئان لايفنيان أزيدك وضوحا . وهو أن الله تعالى جعل فى تركيب ابن آدم مدارك يدرك بها الخير وضده وهى الحواس الخمس الباطنية التى مقرها الرأس وجعلها الصانع الحكيم سبحانه متصلة بالحواس الخمس الظاهرية التى هى البصر والسمع والشم والذوق واللمس فالإنسان إذا نام يرى بهذه صديقا له ويرى ما عليه من الثياب ويشم رائحة ما يطعمه ويسقيه ويرى كل أنواع الكرم له وهو لم يمش ولم يتحرك ولم يتكلم ولم يأكل

بل أدرك كل ذلك بالروح بالحواس الخمس الباطنية المتصلة بالحواس الخمس الظاهرية. فبانتباهه من النوم تحكيه الحواس الخمس الظاهرية رأى العين فالنعيم والجحيم في القبر هكذا . لأن الروح لاتفارق الجسد أبداً وهي اتصالها بالحواس الخمس الباطنية مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «إن الميت ليعلم من يغسله ومن يكفنه ومن يحمله ومن يدليه في القبر » فالذى تأكله الأرض . الروح متصلة بذرات رأسه ليشعر بالنعيم أو الجحيم. والله سبحانه وتعالى أعلم .

الذكر أمام الجنازة

الذكر أمام الجنائز سنة حسنة ولا ينكره إلا المخالفون لإجماع المسلمين كعادتهم في إنكارهم المستحدثات الحسنة التي جاء بها كلام رب العالمين وبيان سنة سيد المرسلين. وهم يقولون لم تكن في زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة والتابعين. وقد بينا كل ذلك في الصلاة والسلام بعد الأذان وسورة الكهف فلا داعي للإعادة فراجعه قريبا سبق وياليتهم يقولون إنها بدعة حسنة لاشتمال الكتاب العزيز والسنة المطهرة عليه. بل يقولون إنه بدعة سيئة وهم لايعرفون الحسنة من السيئة بل ينسبون إلى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم التقصير في البيان بعد قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) لأجل أن يضلوا المستضعفين من المؤمنين ويمنعوهم الخير الذى وعد الله تعالى عباده الفاعلين له. وقد بينا هناك كل شيء والحكمة في عدم وجود المستحدثات في زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ولا التابعين أوضح بيان وأجل تبيين فراجعه ثم إن إجماع علماء الأمة الإسلامية على جواز الذكر أمام الجنائز ماهو إلا أخذ من الكتاب العزيز حيث حث الله تعالى عباده على الذكر حيث قال تعالى (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) وقال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً) وقال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) وقال تعالى (ولذكر الله أكبر) وقد جاء في بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم إن الذاكرين الله تعالى تنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة وتحفهم الملائكة ويذكرهم الله تعالى فيمن عنده وفي هذا الباب بين صلى الله تعالى عليه وسلم كثيرا من الأجر والثواب للذاكرين وهو وعد من الله تعالى حق لايتخلف . وإنه تبارك وتعالى لم يخص الذاكر بزمان دون زمان ولا مكان دون مكان ولا بحال دون حال ولا بأشخاص دون أشخاص ولا بهيئات دون هيئات . ولما كان شأن المشيعين للجنازة أن يتلمسوا له

كل أنواع الرحمة يرجونها له من الله تعالى وبعد الصلاة عليه والدعاء له بطلب المغفرة ورجاء كل خير . واختار علماء الأمة أن يشيعوه ذاكرين الله تعالى لأجل أن لا يحرم من كل خير وعدالله تعالى عباده به وإني أرى أن تقام عليه بعد الصلاة حلقة ذكر يذكر فيها اسم الله كثيراً لما ورد من بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم « إن لله ملائكة يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا حلقه تداعوا إليها هلموا إلى حاجتكم هلموا إلى حاجتكم فيتراصون حتى يبلغوا العنان فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم علام يجتمعون فيقولون يجتمعون على ذكرك ياالله فيقول الحق عز وجل هل رأوني فيقولون لا وعزتك فيقول الحق عز وجل فكيف لو رأوني فيقولون لكانوا أشد ذكرا وأشد خشية وأشد عبادة فيقول الحق عز وجل علام يرجون رضاك والجنة فيقول الحق عز وجل هل رأوها ؟ فيقولون لا وعزتك فيقول الحق عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لكانوا أشد خشية وأشد عبادة فيقول الحق عزوجل علام يحذرون فيقولون يخافون سخطه والنار فيقول الحق عز وجل هل رأوها ؟ فيقولون لا وعزتك فيقول الحق عز وجل فكيف لو رأوها فيقولون لكانوا أشد خشية وأشد ذكرا وأشد عبادة فيقول الحق عز وجل أشهدكم أني قد غفرت لهم فيقول ملك فيهم فلان جاء لحاجة فيقول الحق عز وجل هم القوم لا يشقى جليسهم » فلأجل أن تتأكد من مغفرة الله تعالى له عمل معه ذلك وهو من بيان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو من سنة الأقوال التي لم تتوقف على زمن حضرته ولا زمن الصحابة ولا التابعين ولا تابع التابعين لأننا نلبس للميت كل ما فيه أجر أو ثواب والذكر فيه استدرار هذا الخير الموعود به حقاً . فكان هذا خيراً من الصمت وهم يتمشدقون بما لا يعقلون له معنى من قولهم إن الله يحب الصمت عند ثلاث الخ اعلم أن الله تعالى لا يهدى الخالفين أبدا لسبق شقوتهم ولأجل أن يكون لهم عمل فى الدنيا فلم يوفقوا إلا عمل الشر والدعوة إليه نسأل الله تعالى العفو والعافية والتوفيق لما يرضيه . هذ وإن لم يكن فى جواز الذكر أمام الجنائز إلا الإجماع لكفى والله يتولى هدانا أجمعين .

ومن أعجب ما نرى وأغرب ما نسمع قول علمائهم أن التوسل لم يشرع إلا بالأعمال الصالحة من الصلاة والصوم والزكاة وبر الوالدين لا غير مستدلين بالحديث الشريف المروى عند أصحاب السنن والمسانيد من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فآووا إلى غار فنزل على باب الغار صخرة فسدت باب الغار فقالوا تعالوا نذكر أحسن عمل عملناه لعل الله يصرف عنا ما نزل بنا

فقال أحدهم اللهم إنك تعلم أنى كنت آجر رجالا فأعطيتهم أجرهم إلا رجل استعملنها فعملت له فيها حتى اشتريت له إبلا وغنما وعبدا يرعاها فجاء بعد حين وقال أولم تتق الله وتعطنى أجرتى قلت له هذا العبد وما يرعاه هو أجرتك فقال اتق الله أتستهزىء بى قلت لا والله إنما عملت لك فيها فأخذها وانصرف اللهم إن كان هذا العمل مقبولا عندك فاصرف عنا ما نزل بنا فتزحزح الصخر ولكن لا يستطيعون الخروج فقال الثانى اللهم إنك تعلم أنى كنت أرعى غنما فجئت وقد حبستنى الغنم فوجدت أبوى نائمين فبت حامل القدح إلى الصباح حتى استيقظا من نفسهما فأعطيتهما وأعطيت ثورهما زوجتى وأولادى اللهم إن كان هذا العمل مقبولا عندك فاصرف عنا ما نزل بنا فتزحزح الصخر ولكن لا يستطيعون الخروج وقال الثالث اللهم إنك تعلم وأنت علام الغيوب أنه كانت لى ابنة عم وكنت أحبها فجاءت تطلب منى قوت يومها فقلت لها إلا أن تمكنينى من نفسك فأبت وقد أحرقها الجوع فلما جلست بين شعبها الأربع قالت اتق الله ولا تفضض هذا الخاتم إلا بحقه فتركتها مخافة منك يا الله وأعطيتها قوت عامها. اللهم إن كان هذا العمل مقبولا عندك وأنت راض عنه فاصرف عنا ما نزل بنا فتزحزح الصخر وخرجوا يمشون هذا هو الحديث الشريف الذى لم يفقهوا له معنى لأنهم فهموا أنها كلها أعمال مع أن الأخير منهم ترك فعل المحرم بل والأول كان الأجدر به أن نظف له الشعير أجرته وجبر خاطره خاصة ما أجر نفسه إلا من حاجة والثانى أن لو أعطى زوجته وأولاده الذين باتوا يتلاوون حوله من شدة الجوع فلو قسم اللبن نصفين وأرضى الجميع كان أجدر به هذا وأن من ترك فعل المحرم يثاب بمقتضى الكتاب العزيز والسنة المطهرة وأن من فعل الخير لو جاء به على الوجه الأكمل لكان خيرا له لبيان السنة المطهرة من قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أتقنه » والحديث الآخر « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا » الحديث والحديث الآخر « إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شىء » الحديث . على أن الترك هو عمل كما هو حقيقة التشريع الإلهى فى كل شىء لأنه لا يخلو عن أمر ونهى فالأمر هو جميع ما أمر الله تعالى عباده به فى كل شىء ظاهرا وباطنا كما قال تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) التى منها السر والعلانية من قول وفعل، وأيضا النهى كذلك فى جميع ما نهى تعالى عنه فى كل شىء كما قال تعالى (واجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية التى منها السر والعلانية من قول وفعل وما بين سبحانه فى كتابه العزيز من قوله تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) وقال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) وقال الصادق المصدوق

صلى الله تعالى عليه وسلم « من هم بحسنة وعملها كتبت له بعشر حسنات ومن هم بحسنة ولم يعملها كتبت حسنة ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بسيئة وعملها كتبت عليه سيئة » الحديث ومن هنا أخذ أفاضل الأمة بيان المراتب فى النفس فى جميع الأعمال فقال قائلهم :

للنفس خمس مراتب هاجس ذكروا   فخاطر فحديث النفس فاستمعا
فالهم فالعزم لكن كلها رفعت   إلا الأخير ففيه الأخذ قد وقعا

ومنها أخذ عدم مؤاخذة سيدنا يوسف عليه السلام بالهم . وعلى كل فما ثبت من بيان الكتاب والسنة وعليه إجماع الأمة أن الإنسان كما يثاب على فعل الخير كذلك يثاب على ترك الشر والكل من نعم الله تعالى على عبده (قل كل من عند الله) ومن هنا تعلم أن الفعل والترك لا بأس بالتوسل بهما وقد قدمنا الحديث الشريف فى ذلك من أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم توسل بالزمان والماء والهواء والتراب ومن بيان الحديث السابق أن كل عمل يعمله الإنسان يكون من بيان الكتاب والسنة حتى يصح التوسل به . لأن العمل لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى وهو خلق قدرة الطاعة فى العبد حتى يؤدى ما خلق لأجله من خير وشر قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) ويقول صلى الله تعالى عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له) فالعبد إذا قام بعمل ووقع فى نفسه أنه خير جاء به الكتاب والسنة فيصح التوسل إلى الله تعالى بهذا العمل كالزارع مثلا الذى يزرع ليأكل منه كل شىء فله بكل من أكل منه ثواب وكذا من أجرى نهرا أو حفر بئرا أو بنا سبيلا أو بنا بيتا للغريب أو أعان فقيراً أو يسر على معسر أو قضى دينا وهكذا وعلى كل فجميع الأعمال مادام فيها فعل الخير أو ترك الشر فهو مما شرعه تعالى لعباده ليتوسلوا بها لأنه تعالى خلقهم ووفقهم وأقدرهم على ذلك وإن لم تكن إلا من نعمه على عباده لكفى وهى من أجل ما يتوسل بها إلى الله تعالى . وكذا التاجر الذى قال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين » الحديث فلو توسل هذا بصدقه وأمانته لقبل الله تعالى توسله وكذا البار بوالديه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عن سيدنا أويس القرنى إذا لقيتموه (فاطلبوا منه الدعاء فإنه بار بأمه) يعنى أنه لو طلب من الله تعالى لأجاب طلبه . فكذلك لو أى واحد من الثلاثة المتقدم ذكرهم فى الحديث لو طلب من الله ستجيبه له ولكن

شاء ربك أن كل واحد منهم يذكر ما اعتقده حسنا عند الله تعالى لبيان التنويع فى أحوال التوسل وهو ماوفق إليه وهو نعمة من الله تعالى التى أنعم بها على عبده .

خرجنا من هنا أن التوسل إلى الله تعالى بكافة أنواع التشريع الذى بينه تعالى وجعله سببا فى القرب منه تعالى وأهمها من عمل بأنواع القرب حتى يحبه سبحانه فاو التجأ إلى الله تعالى يحبه فيه لأجابه فيكون من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « وإن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » الحديث والرواية الأخرى «رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره) الحديث نسأله تعالى التوفيق .
وإن تشأ فقل : إن التوسل والاستغاثة شرعها الله تعالى لعباده المحجوبين الذين شرع الأخذ فى الأسباب وبين لهم أن هذا هو الطريق المستقيم وبابه الكريم الذى أمر عباده أن يأتوا أمورهم منه ومن حاد عنه فقد ضل سعيه وهم الذين قال الله تعالى لهم (ادعونى أستجب لكم) وقال تعالى لهم (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وقال تعالى لهم (حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وقال تعالى لهم (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) أى فالنصر واجب عليكم وقال تعالى لهم (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) وقال تعالى لهم (حرض المؤمنين على القتال) وقال تعالى لهم قولوا (إياك نعبد وإياك نستعين) وقال لنبيه اللهم صل وسلم وبارك عليه قل لهم « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » الحديث وقد تقدم كل ذلك وهو خاص بأهل التشريع الذين يعملون فى دنياهم لنيل مآربهم بهذه الوسائل. هذا ولكن هنا له عباد عرفوه وسلموا من تلك الشواغل التى ربما أعاقتهم عن نيل مآربهم الربانية الأخروية الذين عرفوا ماهم عليه وخلقوا لأجله وهم المستسلمون له تعالى الراضون بقضائه وقدره حلوه ومره وخيره وشره . فهؤلاء ينظرون فيما هو محيط بهم فعلى أى حال منه يبشرون ويستبشرون ويحمدون ويشكرون وبما يجريه عليهم ربهم راضون . وهناك خلق أرقى وأعرف وهم المأخذون الذين يسمون (المجاذيب) حقا الذين لا يشغلهم عما هم فيه شىء وهؤلاء لا يخلو منهم زمان ولا مكان وهم الذين قال الله تعالى فيهم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) وقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما) . وهم دائما وأبدا جاعلون نصب أعينهم قوله تعالى (فعال لما يريد) وقوله تعالى (وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه

لحق مثل ما أنكم تنطقون) وقوله تعالى (إن الله على كل شيء قدير) وقوله تعالى (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وقوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقوله تعالى (فاصبر فإنك بأعيننا) ومن كان هذا علمه وعقيدته يعار عليه أن يأخذوا فى شيء من الأسباب حتى الدعاء وهم الآخذون بقول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» الحديث ولذا قال قائلهم :

ويمنعنى الشكوى إلى الناس أننى عليل ومن أشكو إليه عليل
ويمنعنى الشكوى إلى الله علمه بجمل ما أقول قبل أقول

فهؤلاء هم الربانيون حقا والمتوكلون صدقا وهم أندر من الكبريت الأحمر نسأل الله تعالى أن يلحقنا بهم على الإيمان الكامل إكراما لمن أرسله الله تعالى رحمة للعالمين اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

(تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس فى التصوف والصوفية)

فهرس الجزء الرابع

من فيض الوهاب فى بيان أهل الحق ومن ضل عن الصواب

الموضوع	صحيفة

الفصل السادس

الفصل السابع

الباب السادس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الموضوع	صحيفة

الموضوع	صحيفة